

تَوْفِيقُ الْحَمِيدِ

في دروس القرآن

تأليف

الشيخ فيصل بن عبد العزيز بن فيصل آل مبارك

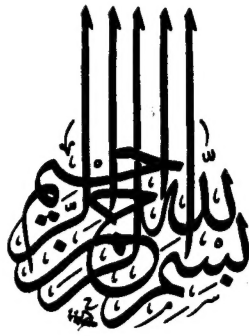
(١٣١٣ - ١٣٦٦ هـ)
رحمته الله

محققه، وشرح أمانيه، وعلى عليه

عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزبير آل حمد

الجزء الأول

من سورة الفاتحة إلى سورة النساء آية ١٤٧



تَوْفِيقًا لِّلْجَمْعِ

١

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

دار العليان

للنشر والنسخ والتصوير والتجليد
وطلبع الرسائل والبحوث العلمية
القصص - بريدة - ص ب : ١٨٣
هاتف : ٣٢٣.٣٤٧ - فاكس ٣٢٤٣٦٤٤

وزارة الثقافة

المملكة العربية السعودية
الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

مقدمة المحقق

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَّوْهُ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٦﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣).

أما بعد:

فإن خير ما أنفقت الأعمار في تحصيله، وخير ما بذلت الأنفاس في شرحه وتفسيره هو كتاب الله عز وجل، فهو الميدان الذي يتسابق فيه المتسابقون، ويتنافس فيه المتنافسون، وهو الصراط المستقيم الذي من تمسك به نجا، ومن تركه ضل وغوى.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١.

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان ٧٠ و ٧١.

أَعْمَى ﴿١٢٦﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٧﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ؕ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٩﴾ ﴿١﴾

قال علي - رضي الله عنه - : «من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، الذي لا تزيف به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»^(٢).

والآيات والأحاديث والآثار في بيان منزلة القرآن كثيرة جداً، وقد ذكرها المؤلف - رحمه الله - في أول كتابه فلا أطيل بذكرها ههنا.

إذا علم هذا؛ فاعلم - وفقني الله وإياك لاتباع السنة، ومخالفة الشرك والضلال والبدعة - أنه لا يجوز لأحد - كائناً من كان - أن يستغني بكتاب الله عز وجل عن سنة نبيه ﷺ، فإنه لا يقول هذا إلا رجل قد تلبس بلباس الدين، وأبطن عقيدة الكفرة الملحدين.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣﴾
وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٤﴾

وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٥﴾

(١) سورة طه: الآيات ١٢٤ - ١٢٧.

(٢) روي مرفوعاً عن علي - رضي الله عنه - والصواب أنه موقف عن علي قوله، وسيأتي تخريجه إن شاء الله تعالى.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٣٢.

(٤) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٥) سورة النساء: الآية ٨٠.

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(١).

قال ميمون بن مهران — رحمه الله — : «الرد إلى الله إلى كتابه، والرد إلى الرسول إن قبض إلى سنته».

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢).

وعن أبي رافع — رضي الله عنه — يبلغ به النبي ﷺ: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»^(٣).

وعن المقدم بن معدي كرب — رضي الله عنه — قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يقعد الرجل متكئاً على أريكته يحدث بحديث من حديثي، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلالٍ استحللناه، وما وجدنا فيه من حرامٍ حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله»^(٤).

وروي عن عمران بن حصين — رضي الله عنه — أنه لما سمع رجلاً يقول: «إنكم لتحدثوننا أحاديث ما نجد لها أصلاً في القرآن» غضب غضباً شديداً، وقال له: «قرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: فهل وجدت فيه صلاة المغرب ثلاثاً، وصلاة العشاء أربعاً، والغداة ركعتين، والأولى أربعاً والعصر أربعاً... إلخ.

والآيات والأحاديث والآثار في هذا الباب كثيرة جداً — والله الحمد — وما أوردته ههنا فيه كفاية لمن أراد الله هدايته.

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٢) سورة الحشر: الآية ٧.

(٣) أخرجه أحمد (٨/٦)، وأبو داود (ح/٤٦٠٥)، والترمذي (ح/٢٦٦٣)، وابن ماجه (ح/١٣)، وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه أحمد (٤/١٣٢)، وأبو داود (ح/٤٦٠٤)، والترمذي (ح/٢٦٦٤)، وابن ماجه (ح/١٢).

قال ابن بطة^(١) — رحمه الله — : «وليعلم المؤمنون من أهل العقل والعلم، أن قوماً يريدون إبطال الشريعة، ودروس آثار العلم والسنة، فهم يموهون على من قلَّ علمه، وضعف قلبه، بأنهم يدعون إلى كتاب الله، ويعملون به، وهم عن كتاب الله يهربون، وعنه يدبرون، وله يخالفون، وذلك أنهم إذا سمعوا سنة رويت عن رسول الله ﷺ رواها الأكابر عن الأكابر، ونقلها أهل العدالة والأمانة، ومن كان موضع القدوة والأمانة، وأجمع أئمة المسلمين على صحتها، أو حكم فقهاؤهم بها، عارضوا تلك السنة بالخلاف عليها، وتلقوها بالرد لها، وقالوا لمن رواها عندهم: تجد هذا في كتاب الله؟ وهل نزل هذا في القرآن؟ اتنوني بآية من كتاب الله حتى أصدق هذا.

فاعلموا — رحمكم الله — أن قائل هذه المقالة... يتحلى بحلية المسلمين، ويضمّر على طوية الملحدين، يظهر الإسلام بدعواه، ويجحد بسره وهواه، فسبيل العاقل العالم إذا سمع قائل هذه المقالة أن يقول له: يا جاهلاً في الحق، خبيثاً في الباطن، يا من خُطئ به طريق الرشاد، وسبيل أهل السداد، إن كنت تؤمن بكتاب الله، وأنه منزل من عند الله، وأن ما أمرك به وما نهاك عنه، فرض عليك قبوله، فإن الله أمرك بطاعة رسوله، وقبول سنته؛ لأن الله — عز وجل — إنما ذكر فرائضه، وأوامره بخطاب أجمله، وكلام اختصره، وأدرجه، دعا خلقه إلى فرائض ذكر أسماءها، وأمر نبيه بأن يبين للناس معانيها، ويوقف الأمة على حدود شرائعها ومراتبها.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢). اهـ.

إذا علم هذا؛ فاعلم — وفقني الله وإياك لاتباع السنة — أنه لا يجوز لأحدٍ

(١) انظر الإبانة (١/٢٢٣ — ٢٢٤).

(٢) سورة النحل: الآية ٤٤.

كائناً من كان أن يفسر كلام الله، أو كلام رسوله ﷺ، بعقله، أو رأيه، أو ما تهواه نفسه، فإن فاعل ذلك — بلا شك — مبتدع ضال عن السنة.

فالذي يريد معرفة مراد الله ومراد رسوله ﷺ، لا بد أن ينظر إلى كلام سلف الأمة: الصحابة، ومن بعدهم — من سار على طريقهم — من أصحاب القرون الثلاثة المفضلة^(١) الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالخيرية، وكذا كلام أهل العلم من أهل السنة رحمهم الله.

قال ابن تيمية — رحمه الله — : «ولهذا تجد المعتزلة، والمرجئة، والرافضة، وغيرهم من أهل البدع يفسرون القرآن برأيهم ومعقولهم، وما تألوه من اللغة؛ ولهذا تجدهم لا يعتمدون على أحاديث النبي ﷺ والصحابة، والتابعين، وأئمة المسلمين؛ فلا يعتمدون لا على السنة، ولا على إجماع السلف وآثارهم؛ وإنما يعتمدون على العقل واللغة، وتجدهم لا يعتمدون على كتب التفسير المأثورة، والحديث، وآثار السلف، وإنما يعتمدون على كتب الأدب، وكتب الكلام التي وضعها رؤوسهم، وهذه طريقة الملاحدة أيضاً، إنما يأخذون ما في كتب الفلسفة، وكتب الأدب واللغة، وأما كتب القرآن، والحديث والآثار؛ فلا يلتفتون إليها، هؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء، إذ هي عندهم لا تفيد العلم، وأولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم، بلا آثار عن النبي ﷺ وأصحابه، وقد ذكرنا كلام أحمد وغيره في إنكار هذا، وجعله طريقة أهل البدع»^(٢). اهـ.

(١) إذا أطلق لفظ (السلف) فالمراد بهم الصحابة، ومن سار على طريقهم من أصحاب القرون الثلاثة المفضلة، أما من أتى بعدهم، ممن سار على أثرهم، وتمسك بما تمسكوا به، فلا يقال له: «إنه من السلف» بل يقال: سلفي، سني، أثري، من أهل السنة، فتنبه لهذا، واعلم أن كثيراً من أهل البدع يلقب نفسه بهذه الألقاب، ليموه بذلك على أهل السنة، بينما هو في الحقيقة: مرجئ... خارجي... يدس السم في العسل، فنسأل الله أن يهلكهم.

(٢) انظر: «الإيمان» ص ٩٩ ط/ المكتب الإسلامي.

فتأمل كلامه — رحمه الله — فكأنه ينظر إلى أهل عصرنا، وقد انكبوا — إلّا — من رحم الله — على تفاسير الجهمية، وأذناهم من المعتزلة والأشاعرة، المليئة بالتأويل والتعطيل، والمخالفة لما كان عليه السلف في تفسير كلام الله عز وجل، والخالية من الأحاديث والآثار الصحيحة الثابتة.

قال ابن بطة^(١) — رحمه الله — في معرض كلامه عن أهل البدع بعد كلام سابق: «لأن لهم كتباً قد انتشرت، ومقالات قد ظهرت، لا يعرفها الغرّ من الناس، ولا النشء من الأحداث، تخفى معانيها على أكثر من يقرأها، فلعل الحدث يقع إليه الكتاب لرجل من أهل هذه المقالات قد ابتدأ الكتاب بحمد الله، والثناء عليه، والإطنا ب في الصلاة على النبي ﷺ، ثم أتبع ذلك بدقيق كفره، وخفي اختراعه وشره، فيظن الحدث الذي لا علم له، والأعجمي والغمر من الناس أن الواضع لذلك الكتاب عالم من العلماء، أو فقيه من الفقهاء...». اهـ.

وبفضل الله عز وجل أدرك علماء أهل السنة — رحمهم الله — ضرورة وضع تفاسير سلفية، مبنية على الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة، ومن بعدهم من السلف الصالح؛ كي تكون فيها — بإذن الله — الغنية عن تفاسير الجهمية وأذناهم، وكان ممن ألف في التفسير من أهل السنة:

عبد الرحمن بن أبي حاتم — رحمه الله — وكتابه طبع منه بعض أجزاءه مؤخراً.

وسفيان الثوري — رحمه الله — وكتابه مطبوع.

وعبد الرزاق بن همام — رحمه الله — وكتابه مطبوع.

(١) انظر: «الإبانة» الصغرى (ص ٣٤٨).

والإمام أحمد - رحمه الله - وكتابه مفقود.

وابن جرير - رحمه الله - وكتابه مطبوع، واسمه: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن».

وابن كثير - رحمه الله - وكتابه مطبوع، واسمه: «تفسير القرآن العظيم».

ومن هذه التفاسير ما هو المطول، ومنها ما هو المختصر.

ومن العلماء الذين لهم أثر بارز في هذا المجال، الشيخ الجليل: فيصل بن عبد العزيز آل مبارك النجدي - رحمه الله - فمن خلال تتبعي لكتب علماء نجد - رحمهم الله - وقع نظري على كتاب قيم له، في التفسير، قد التحف الغبار، وعانق الرفوف سنين طوال، فالفيتة كتاباً مختصراً، نافعاً لقارئه إن شاء الله تعالى.

ومساهمة مني في إحياء كتب علماء الدعوة النجدية، وتجديد ما اندرس من آثارهم السلفية، سارعت إلى تحقيقه وتخريج ما تيسر من أحاديثه وآثاره، فأسأل الله أن يجعل ما نقوم به من نصرة لمذهب أهل السنة، وذبت عن منهاجهم في ميزان حسناتنا، وأن يجزي عنا مؤلف هذا الكتاب، وعلماء الدعوة النجدية، وأئمة أهل السنة النبوية خير الجزاء، وأن يحيينا على الإسلام والسنة، وأن يميّتنا وبيعثنا عليهما، ونسأله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، أن يهلك أهل البدع صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأثاهم، إنه سميع قريب مجيب.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه الفقير إلى ربه القدير

أبو عبد الله عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل حمد

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

رياض نجد ١٤/٤/١٤١٦هـ.

ترجمة المؤلف^(١)

(١) مصادر ترجمته:

- علماء نجد خلال ستة قرون.
- مشاهير علماء نجد.
- الأعلام للزركلي.
- مستدرک معجم المؤلفين.
- الترجمة الموجودة في مقدمة كتاب «المجموعة الجلية».
- الترجمة الموجودة في مقدمة كتاب «خلاصة الكلام» (ط/ الرشد).
- روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين.
- الحالة العلمية في حريملاء منذ عهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب.
- العلامة المحقق والسلفي المدقق.
- «الزبد في تراجم علماء وأعيان آل حمد». وهو كتاب ما زلت أستكمل إعداده، وأجمع مادته العلمية، يسر الله تمامه على خير.
- ما أخذته شفهاً عن وكيل الشيخ، وصفي فزاده، تلميذه الأمين الشيخ / عبد الله بن عبد العزيز آل عبد الوهاب — حفظه الله — ، وقد أفادني بكثير من المعلومات عن حياة المؤلف — رحمه الله — وذلك بيته العامر بالرياض في يوم الثلاثاء الموافق ١٤١٦/٣/٥هـ؛ فجزاه الله عني خير الجزاء.
- واعلم — وفقني الله وإياك لاتباع السنة — أنه كان بودي أن ألتقي بجميع تلاميذ الشيخ — رحمه الله — ومحبيه؛ ولكن مشاغل الحياة غالباً ما تكون عائقاً كبيراً أمام الإنسان في تحقيق ما يريد ويصبو إليه، والله هو المستعان وحده، وإني أرجو كل من لديه إضافات أو ملاحظات عما كتبه ههنا أن يتفضل بإرسالها على العنوان التالي: الرياض ١١٥٢٥ ص.ب. ٥٩٤٠٨، وله مني خالص الدعاء، وجزيل الشكر.

* اسمه ونسبه:

هو: فيصل بن عبد العزيز بن فيصل بن حمد بن مبارك بن عبد الرحمن بن حسن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن راشد بن علي بن سليمان آل حمد، آل أبو رباح، الحسني، البشري، الوائلي، النجدي.

والكلام عن نسب الشيخ وأسرته الكريمة، تجده إن شاء الله تعالى في «الزُّبد في تراجم علماء وأعيان آل حمد» يسر الله أمره.

* مولده:

وُلد الشيخ - رحمه الله - في بيت علم وفضل، عام ١٣١٣هـ، وذلك في عاصمة بلدان الشعيب حويملاء - حرسها الله - وسائر بلاد المسلمين من كل سوء ومكروه، ولما بلغ السابعة من عمره انتقل مع بعض أفراد أسرته إلى الرياض، وبها درس القرآن على الشيخ عبد العزيز الخيال - رحمه الله - ومكث بها قرابة إحدى عشرة سنة، ثم عاد إلى حريملاء عام ١٣٣١هـ.

* نشأته:

نشأ الشيخ - رحمه الله - يتيمًا، فقد قتل والده - رحمه الله - في وقعة البكيرية، عندما كان والده يقاتل مع جيش الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن - رحمه الله وأكرم مثواه - وذلك في سنة ١٣٢٢هـ.

وبعد وفاة والده، انتقل الشيخ وأخواه: عبد الله وعبد العزيز، إلى رعاية عمهم الشيخ محمد بن فيصل - رحمه الله - فكان لهم بمثابة الأب الصالح للابن الصالح.

* طلبه للعلم:

حرص الشيخ فيصل - رحمه الله - منذ نعومة أظفاره على تلقي العلم، والجد في تحصيله، وليس هذا بغريب، فقد نشأ - رحمه الله - في بيت عريق في

الفضل والكرم والعلم، يعلم قدر العلم، وفضله ومكانته، فعمه الشيخ محمد بن فيصل كان أحد العلماء الأفاضل في حريملاء — حرسها الله — المعروف بالخير والصلاح والتقوى، وجده لأمه الشيخ ناصر بن ناصر بن محمد بن ناصر^(١)، كان — مثل عمه — معروفاً بالعلم والخير والصلاح، فالبيئة التي عاش فيها الشيخ فيصل — رحمه الله — بيئة تبعث في النفس الهمة على تحصيل العلم النبوي، والميراث المصطفوي.

فبفضل الله — عز وجل — حفظ الشيخ — رحمه الله — القرآن الكريم، وهو في سن الثامنة عشرة من عمره، ثم بعد ذلك حرص على تلقي الأهم فالمهم من العلم: فبدأ بالأصول الثلاثة، ثم كتاب التوحيد، ثم العقيدة الواسطية، ثم أخذ يتعلم الفقه والنحو، وكذلك علم الفرائض، حتى أصبح — بفضل الله — ذا إمام كبير بكثير من علوم الدين، كما يظهر ذلك جلياً من خلال مؤلفاته ومختصراته.

* شيوخه:

تلقى الشيخ — رحمه الله — العلم على أيدي علماء عرفوا بالصلاح، وصفاء العقيدة، كان منهم:

- ١ — الشيخ عبد العزيز الخيال — رحمه الله —، الذي تعلم على يديه قراءة القرآن، وحفظه عن ظهر قلب.
- ٢ — الشيخ محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ — رحمه الله — الذي درس عليه كتاب التوحيد، والعقيدة الواسطية، وغيرها من كتب العقيدة السلفية.
- ٣ — الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ — رحمه الله — الذي تلقى منه دروساً في التوحيد والفقه وغيرهما من الفنون.
- ٤ — الشيخ سعد بن حمد بن عتيق — رحمه الله — الذي تلقى منه دروساً في التفسير والحديث وغيرهما.

(١) هكذا (ناصر بن ناصر...) كما ذكره لي الشيخ ناصر بن حمد الراشد وفقه الله.

- ٥ - الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري - رحمه الله - الذي تلقى على يديه شيئاً من الحديث وغيره من فنون العلم.
- ٦ - الشيخ حمد بن فارس - رحمه الله - وذلك في الفقه والنحو.
- ٧ - الشيخ محمد بن فيصل، وهو عمه - رحمه الله - الذي تلقى على يديه شيئاً من الحديث، وغيره من الفنون.
- ٨ - الشيخ ناصر بن ناصر بن محمد بن ناصر وهو جده لأمه - رحمه الله - الذي درس عليه «الأصول الثلاثة» وسيرة النبي ﷺ.
- ٩ - الشيخ عبد الله بن محمد الحجازي - رحمه الله - قاضي الشعيب والمحمل.
- ١٠ - الشيخ عبد الله بن فيصل الدوسري - رحمه الله - قاضي الشعيب والمحمل أيضاً.
- ١١ - الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع رحمه الله.
- ١٢ - الشيخ عيسى بن عكاس رحمه الله.
- ١٣ - الشيخ عبد العزيز بن بشر رحمه الله.
- ١٤ - الشيخ عبد العزيز النمر رحمه الله.
- ١٥ - الشيخ عبد الله بن راشد رحمه الله.
- ١٦ - الشيخ علي بن داود رحمه الله.

* رحلته في طلب العلم:

بدأ الشيخ - رحمه الله - بتلقي العلم أولاً عن علماء أهل بلده: حريملاء، كما كانت طريقة أهل العلم السابقين.

ثم انتقل بعد ذلك إلى الرياض ليكمل بذلك مشواره الذي قطعه في تحصيل العلم، فأخذ عن علمائها الأجلاء، ورجالها النبلاء الفضلاء، أهل العقيدة السلفية، والطريقة النبوية السوية.

وبعد أن تم فتح بلاد الأحساء عام ١٣٣١، وإخضاعها تحت ملك الإمام

عبد العزيز — رحمه الله — ارتحل إليها للاستزادة من الميراث النبوي، فدرس على الشيخ عيسى بن عكاس، والشيخ عبد العزيز بن بشر — رحمهما الله — .
ثم ارتحل بعد ذلك إلى قطر، حيث درس على الشيخ محمد بن مانع — رحمه الله — شيئاً من ضروب العلم وفنونه^(١).

* إجازة العلماء له ببعض الكتب :

حصل الشيخ — رحمه الله — على إجازتين في الحديث والتفسير، وغيرها من العلوم الشرعية، من عالمين من علماء نجد الأفاضل، هما:
(أ) الشيخ سعد بن عتيق — رحمه الله — وقد أجاز به بما رواه من كتب الحديث: كالصحيحين، والسنن الأربعة، ومسند أحمد، والموطأ للإمام مالك، وغيرها من كتب السنة والحديث، كالأثبات المصنفة لأسانيد الكتب الإسلامية، وأيضاً أجاز به في التفسير والفقه، وأجاز به — أيضاً — بمصنفات ابن تيمية وابن القيم وغيرها من الكتب المصنفة.

(ب) الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقري: أجاز به أيضاً بما رواه من كتب الحديث والتفسير والفقه وغيرها من الكتب المصنفة، وأجاز به بالرواية لمذهبه الإمام أحمد، وبالرواية لمصنفات ابن تيمية، وابن القيم — رحمهما الله — ، وقد أجاز به الشيخ العنقري — رحمه الله — بجميع ما أجاز به شيخه ابن عتيق — رحمه الله — ، وبجميع ما أجاز به أيضاً شيخه عبد الستار بن عبد الوهاب الصديقي، وبجميع ما أجاز به مشايخه، وتلقاه عنهم رواية، وهم الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ، والشيخ حسن بن حسين بن علي آل الشيخ، والشيخ إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، والشيخ محمد بن إبراهيم بن محمود، والشيخ محمد بن فارس — رحمهم الله — .

(١) كان الشيخ — رحمه الله — ينوي الرحيل إلى الهند؛ لدراسة الحديث هناك، فلما وصل إلى قطر؛ وجد الشيخ محمد بن مانع — رحمه الله — بها، وكان متضلماً بعلم الحديث، فآثر الجلوس عنده (أفاده الشيخ ناصر بن حمد الراشد وفقه الله).

وللأسف الشديد لم أقف على صورة ما أجاز به الشيخ سعد والشيخ العنقري - رحمهما الله - وإن كان مضمون تلك الإجازة ظاهر، وذلك من خلال ما كتبه - رحمهما الله - لبعض طلابهما؛ فلذا أوردت الصيغة العامة لصورة ما كتبه لبعض طلابهما ههنا لأن الشيخ فيصل واحد منهم، والله أعلم.

* صفاته الخُلُقِيَّة والخُلُقِيَّة :

* أما عن صفاته الخُلُقِيَّة: فقد كان - رحمه الله - أيضاً، وكان بياضه مشرباً بحمرة قليلاً، متوسط الطول، ويميل إلى الطول قليلاً، جميل الوجه، حسن المنظر، ذا لحية كثة، ربعة بين الرجال.

* أما عن صفاته الخُلُقِيَّة: فقد كان - رحمه الله - ذا خلق رفيع كريماً، لين الجانب، سهل المعاملة، بشوش مع الناس جميعاً، لا سبَّاباً، ولا شتَّاماً، ولا صخباً، ولا يغضب إلا إذا انتهكت محارم الله، وتعدت حدوده، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم، يتوخى العدل ولا يأباه، ويجافي الظلم ولا يرضاه، متواضعاً زاهداً في حطام الدنيا، راغباً في الدار الآخرة، فرحمه الله وأكرم مثواه.

* زهده وورعه :

توفي الشيخ - رحمه الله - ولم يخلف ملكاً، أو تجارة، أو مالاً كثيراً، فقد كان معرضاً عن الدنيا وحطامها الزائل، ومظهرها الخادع.

وهناك صور كثيرة، وأدلة وفيرة تدل على عزوفه - رحمه الله - عن الدنيا، من ذلك :

ما ذكره أحد تلامذته: أنه - ذات مرة - أحيا قطعة أرض، وقام بزراعتها، وحفر بها بئراً، وبنى فيها مسجداً، وزرع بها زرعاً يسيراً، فلما رأى - تلميذه - ابن عبد الوهاب عمل الشيخ، أخبره بأنها ستصرفه عن أمر الآخرة، فقال له الشيخ - رحمه الله - : «أنا أحيت هذه الأرض وبنيت المسجد، وحفرت البئر لأجل إذا

مرَّ به المارة من أهل الإبل وغيرهم، أن يصلوا فيه، فيكون لهم عوناً على أداء الصلاة، أو كلاماً نحو هذا، ثم قام الشيخ - رحمه الله - وقدمها لابن عيشان، وشرط عليه أن يقيم (المدي) ويحافظ على المسجد.

ولما كتب أحدهم له ترجمة بسيرته الذاتية، وعرضها عليه، بكى، وفاضت عيناه بالدموع، فكتب عليها: «اللهم اجعلني أحسن مما يظنون، وأبرأ إليك مما يقولون»^(١).

وكان جُلُّ وقته ومعظمه إما في صلاة وعبادة، وخلوة مع ربه عز وجل يستغفر فيها ذنوبه، ويسأله فيها خيري الدنيا والآخرة، وإما مع تلاميذه ليعلمهم أمور دينهم ودنياهم، وإما مع عامة الناس لإصلاح ذات بينهم، وما يقع بينهم من اختلاف، والفصل بينهم بحكم الله - عز وجل -، وإما مع أهل بيته لينظر في شؤونهم، وما يحتاجونه، وإما في مكتبة بيته ليستزيد، ويكتب، ويؤلف.

وكان - رحمه الله - لا يأخذ من راتبه شيئاً، ولا يستلمه، بل يقوم عنه وكيله بأخذه، وصرفه على أهل بيته، وإعطاء كل ذي حق حقه من المساكين والأيتام والأرامل.

ولما سافر ذات مرة إلى مصر لأجل العلاج، بقيت في نفسه قضية أحس أنه تأثم فيها، وظلم أحد الخصمين، فكتب إلى وكيله الشيخ عبد الله آل عبد الوهاب بأن يحضر الخصمين ويقل لهما: إن رضىتما بالحكم فالحمد لله، وإن لم ترضيا به، فإن الشيخ فيصل قد وكلني بنقضه، والحكم فيه بحكمي، فقالا: بل رضىنا بحكم الشيخ.

* أعماله ومناصبه :

بعدما تلقى الشيخ - رحمه الله - العلم على يد كثير من علماء نجد وغيرهم، أحسَّ الملك الإمام عبد العزيز - رحمه الله - أن الشيخ فيصلاً قد توفرت

(١) انظر الترجمة الموجودة في مقدمة كتابه: «المجموعة الجلية».

لديه الأهلية لتولي القضاء، والفصل بين الخصوم والدعوة إلى الله، وإرشاد الناس وتوجيههم، فأرسله الملك عبد العزيز إلى تهامة والحجاز معلماً وواعظاً وموجهاً مع الشيخ عبد الله بن راشد وناصر بن جار الله.

ثم عينه الإمام عبد العزيز - رحمه الله - بعد ذلك قاضياً في الصبيخة (تثليت)، وجلس بها فترة من الزمان، ثم عين قاضياً في أبها، وجلس بها مدة وجيزة، ثم عاد إلى الصبيخة، وبعدها انتقل إلى الرياض، وبها تزوج.

ثم عينه الملك عبد العزيز - رحمه الله - في منطقة يقال لها (قرية) العلياً ليكون بها قاضياً، وذلك في سنة السبلة، وأثناء توليه للقضاء في هذه البلدة، يسّر الله له الحج إلى بيته الحرام، وجلس في مكة قرابة الشهرين.

ثم أرسل له الملك عبد العزيز - رحمه الله - أحد أعوانه، وقال له: «قل للشيخ يسلم عليك الإمام، ويقول لك قيّض هذه السنة في تربة...».

وما كان الشيخ - رحمه الله - إلا أن قال بأدب واحترام لمن ولاه الله عليه - كما هو عمل أهل السنة مع ولائهم - : «... ما علي إلا السمع والطاعة الرغبة ليست لي، الرغبة للإمام...» أو كلاماً نحو هذا، فقال الملك عبد العزيز - رحمه الله - بعدما سمع جواب الشيخ فيصل: «هذا ظننا فيه» وأثنى عليه خيراً.

وأقام الشيخ - رحمه الله - في تربة قرابة السنتين أو أقل، قاضياً، ومعلماً وموجهاً، وبها تزوج زوجته الخامسة.

ثم عين بعد ذلك - مرة أخرى - قاضياً في منطقة أبها، وذلك في آخر سنة ١٣٥١هـ بعد أن طلبه أهلها ليكون قاضياً بينهم، وجلس بها قرابة السنتين.

ثم عين بعد ذلك قاضياً في القنفذة سنة ١٣٥٣هـ قرابة السنة.

ثم عين بعد ذلك قاضياً في الخرمة، ولم يمكث بها إلا يسيراً، قرابة ستة شهور.

ثم عين بعد ذلك قاضياً في رنية، ومكث بها قرابة الخمس سنوات أو ست.

ثم عين بعد ذلك قاضياً في ضرما، ولم يمكث بها سوى سنة واحدة أو نحوها.

وكان الشيخ - رحمه الله - في كل بلد من هذه البلاد، يدعو إلى التوحيد، وإلى الالتزام بشرع الله وحده، وكان أول ما يبتدىء في تعليمهم: كتاب الله، ثم عقيدة أهل السنة، وذلك من خلال كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكشف الشبهات، والأصول الثلاثة، والقواعد الأربع، وغيرها من المتون السلفية الوجيزة.

* الجوف والمثوى الأخير:

شاءت أقدار الله - عز وجل - أن تكون الجوف هي المحل الأخير لتنقلات الشيخ.

فبعدما أن انتهى الشيخ - رحمه الله - من فترة توليه للقضاء في ضرماء وعاد إلى الرياض، قال له الإمام عبد العزيز - رحمه الله - : «... إني سأرسلك إلى مكان بعيد... ولكن ستجد فيه دعوة بإذن الله...» أو نحواً من هذا، فوافق الشيخ على ما قاله الإمام عبد العزيز رحمه الله.

فرحل إليها في آخر شعبان من سنة ١٣٦٢هـ، ووصل إليها في أول يوم من رمضان، وكان في وصوله إلى تلك البلاد بزوغ شمس الخير، والعلم، والتوحيد، وهدم، واضمحلال دياجير الجهل، والشرك والتنديد.

فأقام بها قرابة خمسة عشر عاماً: معلماً، وموجهاً، ومرشداً، وداعياً إلى الله على بصيرة.

* حياته اليومية في الجوف^(١):

كان - رحمه الله - إذ صلى الفجر يجلس في مصلاه حتى تطلع الشمس

(١) خصصت الجوف بالذات؛ لأن المؤلف - رحمه الله - قد استقر فيها، وأقام بها إقامة دائمة إلى أن توفي، ففيها التف حوله طلاب العلم من كل حذب وصوب، وفيها ألف، ودرّس، وكتب.

وترتفع قيد رمح، ثم يصلي بعد ذلك ما كتب الله له، ثم بعد ذلك يأتي مكتبته المنزلية ليطالع ويكتب، ثم يجلس بعد ذلك لطلاب العلم فأول ما يبتدئ به في بداية درسه: تعلم القرآن وقراءته قراءة صحيحة، بعيدة عن اللحن والغلط، ثم يعقبه بعد ذلك بثلاثة الأصول، ثم القواعد الأربع، ثم الواسطية، ثم عمدة الأحكام، ثم الأربعين النووية، ثم بلوغ المرام. وكل هذه المتون لا بد أن يلتزم الطالب بحفظها عن ظهر قلب.

ثم بعد أن ينتهي من الدرس، يأتي بعد ذلك دور الخصوم والمتنازعين للفصل بينهم، والحكم بينهم بشرع الله - عز وجل -، فيجلس بينهم حتى يؤذن الظهر وبعد الصلاة - أحياناً - يقرأ عليه شيء في الفقه والتفسير وغيرها، وأحياناً يذهب لحاجة أهله، وأخذ قسطاً من الراحة.

وبعد العصر يبدأ الطلاب في المسجد بقراءة القرآن، وشيء من الفرائض، وبعد صلاة المغرب يقرأ عليه الطلاب شيئاً من سيرة ابن هشام إلى أذان العشاء، وبين الأذان والإقامة يقرأ عليه أحد الطلاب شيئاً من كتاب الله عز وجل، ثم يقوم الشيخ - رحمه الله - بتفسيره وبيانه، وبعد صلاة العشاء يعود إلى بيته، ويأخذ قسطاً من الراحة، ثم يخلو بربه فيصلّي ما كتب الله له أن يصلي من الليل إلى أن يؤذن للفجر، وفي إشراقه كل يوم يعاود الكرة مرة أخرى على نحو المنوال السابق، مستعيناً بالله، طالباً منه الإخلاص والمثوبة، إلى أن توفاه الله عز وجل.

* جهوده في الدعوة إلى الله :

كان للشيخ - رحمه الله - جهد كبير، وتحمل واسع في سبيل الدعوة إلى الله تعالى.

فقد انتدبه الملك عبد العزيز - رحمه الله - مع الشيخ عبد الله بن راشد بن جلعود، والشيخ ابن جار الله - رحمهما الله - إلى تهامة في الحجاز؛ لتوجيه الناس، وتعليمهم أمر دينهم.

وحين ولي القضاء في البلدان التي عين فيها، لم يأل جهداً في الدعوة إلى الله ليل نهار، وقد مر بك - أخي الكريم - كيف كان وقته اليومي في مدينة الجوف، حيث لا يدع شاردة ولا واردة إلا واستغلها: إما في عبادة وصلاة، وإما في قضاء بين الناس، وإما في تعليم الناس أمر دينهم.

وفي عام ١٣٦٢هـ كان للشيخ - رحمه الله - في مدينة الرياض درس يومي في مسجد يقال له: (مسجد محمود)، بين المغرب والعشاء، حيث يقوم القارئ، فيقرأ من كتاب الله ثم يقوم الشيخ - رحمه الله - بشرحها، وبيانها، وتفسيرها.

كما أنه كان يتخول الناس بالموعظة، فيستغل وجود الناس بعد صلاة المغرب - أحياناً - فيعظهم، ويذكرهم ومن ذلك ما حدثني به الشيخ الكريم: حسن بن عبد اللطيف المانع^(١) - حفظه الله - : أن الشيخ ذات مرة، قام بعد صلاة المغرب في مسجد (الجفرة) بالرياض، فقام وقرأ الآية من قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَهْلَ عَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَاهُمْ بِالْأَحْقَافِ﴾ ففسرها بتفسير حسن، وتحدث حولها بكلام بليغ رصين، فجزاه الله عنا خير الجزاء، وغفر له ولوالديه، ولجميع دعاة أهل السنة، إنه سميع قريب مجيب.

* تلاميذه:

ومن طلابه الذين أكثروا من ملازمته والتلقي عنه، هم:

١ - عبد الله بن عبد العزيز آل عبد الوهاب^(٢).

٢ - ناصر بن حمد الراشد.

٣ - سعد بن محمد بن فيصل آل مبارك.

(١) وذلك بيته بالرياض.

(٢) الوهبي التميمي، من أهل بلد حريملاء - حرسها الله - ، وقد استفدت منه كثيراً في إعداد

هذه الترجمة للمؤلف - رحمه الله - إذ هو أكثر طلابه ملازمة له، وأخذاً عنه، فقد لازم الشيخ

منذ الصغر، وكان عمره عند بداية ملازمته ما بين السابعة عشر والسادسة عشر سنة، وكانت

بداية ملازمته له عام ١٣٤٨هـ، فجزاه الله عنا خير الجزاء، وأطال عمره على طاعته.

- ٤ — حمود بن متروك البليهد.
- ٥ — عبد الرحمن بن سعد.
- ٦ — إسماعيل بن بلال الدرعان.
- ٧ — عبد العزيز العقل.
- ٨ — عبد الله بن حمود.
- ٩ — صالح بن متروك البليهد.
- ١٠ — عارف بن مفضي المسعر.
- ١١ — عمر بن مريح الشمري.
- ١٢ — مصلح بن مريح الشمري.
- ١٣ — خليف المسلم.
- ١٤ — إبراهيم بن خليف المسلم.
- ١٥ — عبد الواحد الحموان.
- ١٦ — عثمان بن عطية.
- ١٧ — يوسف الحشاش.
- ١٨ — شفق المرزوق.
- ١٩ — عبد الرحمن بن عطا الشايع.
- ٢٠ — أحمد القايد.
- ٢١ — عيسى العيساوي.
- ٢٢ — عقيل بن عطا الشايع.

* مؤلفاته:

توفي الشيخ — رحمه الله — وقد ترك لنا العديد من المؤلفات في فنون العلم:
في التفسير، والحديث، والفقه، والفرائض، والنحو، والرقائق وغيرها، وإليك
بيانها:

١ - «توفيق الرحمن في دروس القرآن»:

وهو كتابنا هذا الذي نحن بصدد تحقيقه، وسيأتي الكلام عنه مفصلاً إن شاء الله تعالى.

وقد طبع الكتاب على نفقة حسن بن حسين رحمه الله، وذلك عام ١٣٧٦هـ. وتوجد قطعة من الجزء الرابع من هذا الكتاب في مكتبة حريملاء - عمرها الله بكتب أهل السنة - بخط المؤلف رحمه الله تعالى.

٢ - «خلاصة الكلام على عمدة الأحكام»:

وهذا الكتاب يقع في ٤٠٠ صفحة، وهو شرح وجيز، ومختصر على الأحاديث التي جمعها عبد الغني المقدسي - رحمه الله - ، وقد اعتمد في شرح هذا الكتاب على «فتح الباري» لابن حجر، وكتاب «إحكام الأحكام على عمدة الأحكام» لابن دقيق العيد، وللمؤلف - رحمه الله - تعليقات وفوائد على هذه الأحاديث لا يستغني عنها طالب علم.

وقد طبع عدة طبعات، فطبع عام ١٣٧٩هـ في مكتبة النهضة الحديثة بالرياض، وطبع عام ١٣٨٠هـ في مكتبة التوفيق بالرياض، وطبع عام ١٣٨١هـ في مكتبة عيسى البابي الحلبي بمصر، وطبع عام ١٤١٢هـ بمكتبة الرشد بالرياض. ويذكر أن الكتاب يقع في خمسة أجزاء، ثم اختصر في جزئين، وخلاصة الجزئين هو هذا الكتاب المطبوع^(١).

٣ - «المجموعة الجلية»:

وهو كتاب يضم ثلاثة كتب من مؤلفات الشيخ - رحمه الله - : الأول: «كتاب مختصر الكلام على بلوغ المرام»، ويقع في ٣٨٨ صفحة، وهو شرح وجيز لكتاب بلوغ المرام، الذي ألفه ابن حجر العسقلاني، وهو كالكتاب السابق مختصر، ومبسط، لا يستغني عنه طالب علم.

(١) انظر الترجمة الموجودة في مقدمة كتاب: «المجموعة الجلية».

الثاني: «كتاب محاسن الدين على متن الأربعين»، ويقع في ٦٧ صفحة، وهو شرح وجيز، وسهل وميسر، على كتاب الأربعين النووية، ثم زاد عليها الأحاديث التي زادها ابن رجب الحنبلي، ليكون مجموع الأحاديث التي شرحها في هذا الكتاب خمسون حديثاً.

الثالث: «كتاب مقام الرشاد بين التقليد، والاجتهاد» ويقع في ١١ صفحة، وهو رسالة وجيزة في حكم التقليد ومتى يسوغ، وأن الواجب على المسلم اتباع الدليل، وترك التعصب للمذهب وقد طبع الكتاب عدة طبعات، ولدي نسخة مصورة بخط المؤلف - رحمه الله - .

٤ - «أربع المختصرات النافعة»:

وهذا الكتاب يضم أربع مؤلفات من كتب الشيخ - رحمه الله - :
الأول: «تعليم الأحب أحاديث النووي وابن رجب». وعنوانه يدل على مضمونه، ويقع في ٦٣ صفحة.

الثاني: «الدلائل القاطعة في الموارد الواقعة»، ويقع في ١١ صفحة، وهو شرح موجز، وتعليق ميسر حول الآية الواردة في سورة النساء، والتي تتعلق بالمواريث وهذا الكتاب أو بالأحرى هذه الرسالة، أصلها رسالة أرسلها المؤلف هدية إلى الشيخ سليمان الصنيع - رحمه الله - ، وأسماها: «الحجج القاطعة في الموارد الواقعة»، ولدي نسخة خطية مصورة منها.

الثالث: «مفتاح العربية على متن الأجرومية» وهو شرح وجيز ومختصر حول متن الأجرومية في النحو، واسم الكتاب كما في النسخة الخطية التي لدي: «مفاتيح العربية» وهي بخط المؤلف - رحمه الله - .

الرابع: «غذاء القلوب ومفرج الكرب»، وهذا الكتاب جمع فيه مؤلفه الآيات والأحاديث التي بسببها يطمئن القلب، وينشرح الصدر، وهو عبارة عن

أذكار وأوراد، ويقع في ٦٠ صفحة تقريباً. وقد طبع الكتاب عدة طبعات منها في عام ١٣٦٩هـ، وفي عام ١٣٧١هـ، وفي عام ١٤٠٥هـ.

٥ - «كلمات السداد على متن الزاد»:

وهو شرح موجز حول «متن زاد المستقنع» في المذهب الحنبلي ويقع في ٢٧٠ صفحة، وهذا الكتاب عبارة عن حل ما يستشكل من العبارات الفقهية في هذا المتن، وقد طبع عدة طبعات، وكان آخرها طبعة عام ١٤٠٥هـ.

٦ - «المرتع المشبع في مواضع من الروض المربع»^(١):

وهو شرح على متن الزاد وشرحه «الروض المربع»، ويقع في أربعة أجزاء، يبدأ الجزء الأول بكتاب الطهارة وينتهي بانتهاء الكلام عن العقيدة، ويقع في ٥٩٢ صفحة.

ويتبدأ الجزء الثاني بكتاب الجهاد، وينتهي بانتهاء باب أحكام أمهات الأولاد، ويقع في ٥٩٦ صفحة، وفي آخره ملحقات وزوائد على بعض الأبواب.

ويتبدأ الجزء الثالث بكتاب النكاح، وينتهي بانتهاء الكلام على باب الحضانة، ويقع في ٥٩٦ صفحة، وبآخره ملحقات وزيادات على بعض الأبواب السابقة في هذا الجزء.

ويتبدأ الجزء الرابع بكتاب الجنائيات، وينتهي بانتهاء الكلام على باب الحكم على المرتد، ويقع في ٣٩٥ صفحة.

(١) وفي الجزء الرابع سماه مؤلفه: «المرتع المشبع على مواضع من الروض المربع»، وأخطأ صاحب: «مشاهير علماء نجد» حيث سمى الكتاب: «الروض المرتع المشبع من الروض المربع»!!، وكذا صاحب: «علماء نجد خلال ستة قرون» حيث سمى الكتاب: «الروض المشبع من الروض المربع».

وكذا صاحب كتاب: «العلامة المحقق، والسلفي المدقق» حيث سمى الكتاب: «المرتع المشبع من الروض المربع».

— ومصادر المؤلف في هذا الكتاب عديدة منها: المقنع، والحاشية، وبداية المجتهد، والإفصاح، والاختيارات، وصحيح البخاري وشرحه، والشرح الكبير وغيرها من كتب الفقه والحديث.

— قسم المؤلف الكتاب إلى ٣٥٠ موضعاً تكلم فيها على الروض المربع، ويبين لنا المؤلف — رحمه الله — السبب الذي دعاه إلى تأليف هذا الكتاب قائلاً (١/٢/ب): «وقد رأيت مواضع في الزاد وشرحه تشكل على بعض الطلبة فأردت أن أوضحها؛ ليتبين لطالب العلم دليلها، ودليل المخالف فيها فيعمل بما يترجح عنده صوابه والله الموفق».

ولدي نسخة خطية مصورة، بخط المؤلف رحمه الله تعالى.

٧ — «تطريز رياض الصالحين»:

وهو شرح مختصر على كتاب «رياض الصالحين» للنووي، والكتاب لا يزال مخطوطاً، ويقع في ٩٤٥ صفحة والذي يظهر لي — بل أكاد أجزم به — أنه بخط أحد تلامذته، أو أحد النساخ، والله أعلم.

٨ — «القول في الكرة الجسيمة الموافق للفطرة السليمة»:

وفي هذا الكتاب يتحدث فيه مؤلفه عن بعض آيات الله: السموات والأرض والشمس والقمر، والنجوم والرياح والسحاب ويتحدث عن الجنة والنار، والعرش والقلم، والملائكة، والجن والشياطين، وخلق آدم، ويأجوج ومأجوج، وبعض أشرار الساعة.

ويقع الكتاب في ١٩٥ صفحة، والكتاب لا يزال مخطوطاً، ولدي نسخة مصورة، بخط المؤلف رحمه الله.

٩ — السبيكة الذهبية على متن الرحبية:

وهو شرح موجز، ويسير، على بعض أبيات الرحبية في علم الفرائض.

١٠ - «بستان الأخبار مختصر نيل الأوطار»^(١):

وعنوانه يدل على مضمونه، فقد اختصر مؤلفه كتاب «نيل الأوطار» للشوكاني، والذي يقع في أربع مجلدات، وعدد أجزائه ثمانية أجزاء، اختصره المؤلف فجعله في مجلدين، يقع المجلد الأول في ٦٦٢ صفحة، والمجلد الثاني في ٥٥٤ صفحة، وقد طبع عام ١٣٧٤هـ في المطبعة السلفية بالقاهرة.

١١ - «تجارة المؤمنين في المراجعة مع رب العالمين»:

ويقع في ٢٧١ صفحة، وقد طبع سنة ١٣٧٣هـ في مطبعة الاتحاد الشرقي بدمشق، وطبعة مرة أخرى عام ١٤٠٤هـ.

١٢ - «لذة القاري مختصر فتح الباري»:

عزاه له صاحب «المشاهير» وصاحب «الأعلام»، وأيضاً صاحب «روضة الناظرين» (١٤٩/٢) وصاحب «علماء نجد»، ولكن ذكر الأخير أن اسمه هو: «تذكرة القاري مختصر فتح الباري»، فالله أعلم، والكتاب - كما ذكروا - يقع في ثمانية مجلدات.

١٣ - له مؤلف في العقيدة كما ذكر في الترجمة الموجودة في مقدمة كتابه «خلاصة الكلام» (ط/الرشد).

١٤ - شرح موجز حول كتاب «ملحة الإعراب»، كما في الترجمة الموجودة في مقدمة كتابه «المجموعة الجليلة»، ويذكر صاحب هذه المقدمة أنه قد سعى فيه.

١٥ - «القول الصائب في حكم بيع اللحم بالتمر الغائب»:

رسالة وجيزة تقع في أربع صفحات من القطع المتوسط، وهي بخط المؤلف - رحمه الله - ولدي مصورة منها.

(١) ذكر صاحب: «علماء نجد...» وأيضاً صاحب «الأعلام» وصاحب «روضة الناظرين» أن اسم الكتاب هو «بستان الأخبار» بالخاء المعجمة، وفي الترجمة لها كتبت في مقدمة «خلاصة الكلام» (ط/الرشد) ورد فيها اسم الكتاب بـ «بستان الأخبار» بالياء، وكلاهما خطأ، فليصحح كما هو ههنا.

هذه هي مؤلفات الشيخ — رحمه الله — نسأل الله تعالى أن يجعلها في موازين حسناته، وأن يجزيه عنا خير الجزاء.

هذا؛ وإنني أعمل الآن — كما ذكرت ذلك آنفاً — على جمع مؤلفات الشيخ وترتيبها، وتنقيحها، وتحقيقها تحقيقاً علمياً يليق بمقام الشيخ وبمؤلفاته، ومن ثم فهرستها فهرسة علمية، وبيان مواضع الفوائد والكتب والأبواب، حتى تخرج إلى النور مرة أخرى، في حلة جديدة بإذن الله تعالى، وإنني أرجو كل من لديه نسخة خطية من مؤلفات الشيخ أن يتفضل بإطلاعي عليها، أو إرسالها مشكوراً على العنوان السابق، وله مني جزيل الشكر، وخالص الدعاء.

* مراسلاته:

كان بين الشيخ — رحمه الله — وبين علماء نجد مراسلات عديدة، يسألهم فيها عن بعض ما يشكل عليه من العلم، ومن ذلك:

رسالة أرسلها إلى الشيخ سعد بن عتيق — رحمه الله — يسأله فيها عن مسألتين: الأولى: عن معنى قول الطحاوي في عقيدته: «لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات».

والثانية: عن ما يخرج الإنسان من ماله من صدقة في الاستسقاء، وصدقة في بناء المساجد، وصدقة على المساكين الذين يسألون الناس في المساجد، وإعطاء سائل هل تكون من الزكاة أم لا، وهل إذا نواها تصح كونها من الزكاة، أم لا؟ فأجابه الشيخ سعد — رحمه الله — بالجواب السديد المفيد، ولولا خشية الإطالة لأوردتها لك ههنا^(١).

ومن مراسلاته — أيضاً — رسالة أرسلها إلى الشيخ عبد الرحمن بن سعدي — رحمه الله — يسأله فيها عن بعض المسائل، هي:

(١) جواب الرسالة مطبوع ضمن: «المجموع المفيد من رسائل وفتاوى الشيخ سعد بن عتيق» (ص ٧٨).

الأولى: رجل تزوج امرأة، واشترط أبوها أن لا يخرجها من بلدها، وإن خرج بها فهي طالق ثلاثاً، وبعد ذلك رضيت المرأة بالخروج مع زوجها، وخاف الزوج من وقوع الطلاق إن أخرجها.

الثانية: حكم المعاملة بالنوط، وهي العملة الورقية. بالإضافة إلى مسائل أخر^(١).

وهناك رسالة أخرى مستقلة عن هذه الرسالة، مضمونها: السؤال عن حكم السيارة التي تمشي في طريقها المعتاد، فصادف أن نفرت منها إبل تزاحمت، فتلف بسبب نفورها رجل، فهل السائق ضامن في هذه المسألة^(٢)؟

بالإضافة إلى مراسلات كانت بينه وبين الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ - رحمه الله - كما ذكر ذلك لي تلميذ الشيخ: عبد الله آل عبد الوهاب حفظه الله.

ومراسلات الشيخ - رحمه الله - لم تكن مقصورة على سؤال أهل العلم فقط؛ بل تتعداها إلى بيان وتوضيح رأيه في مسألة ما من المسائل الشرعية، التي يراها الشيخ، مبيناً مستنده في ذلك من الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم - رحمهم الله - ، ويظهر لك ذلك من خلال رسالته إلى الشيخ: إبراهيم بن سليمان بن ناصر آل حمد - رحمه الله - ، حينما بين له الشيخ - رحمه الله - رأيه في: أن للحاكم جواز تطليق المرأة من زوجها إذا أبى الزوج ذلك، وكان بينهما شقاق، ولم يتوصل الحكمان - من أهله ومن أهلها - إلى صلح أو حل. وإليك مقتطفات من هذه الرسالة:

«من فيصل بن عبد العزيز إلى حضرة الأخ المكرم الأحشم المحب الناصح الأمين الشيخ إبراهيم بن سليمان بن ناصر آل حمد سلمه الله تعالى وهده ونصره على من عاداه، وأرشده إلى الصراط المستقيم آمين.

(١) جواب الرسالة لا يزال مخطوطاً، وهي عندي مصورة بخط ابن سعدي رحمه الله.

(٢) المرجع السابق.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ومغفرته وطيب صلواته، فنحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو بخير وعافية، عسى الله يعز الإسلام والمسلمين ويثبتنا وإياكم على الدين، وكتابكم الكريم وصل، وسرنا ما ذكرتم فيه، خصوصاً تأنيكم واستفساركم مستندنا في حكمنا، فهذا هو الواجب بين طلبة العلم، وخصوصاً المتجاوزين، وزيادة على ذلك ما تعلم، والحق ضالة المؤمن.

فأقول وبالله التوفيق: ومستندي في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْغَوْا حُكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحُكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾، وقوله ﷺ لثابت بن قيس: «خذ الحديقة وطلقها تطليقة» فإذا لم يفد الحكمان بشيء، وأبى الزوج التطليق جاز للحاكم التفريق بينهما؛ لأن الضرر اللاحق من الشقاق أعظم من الضرر اللاحق من الإيلاء أو الإعسار، ولا تخفأك أقوال العلماء في ذلك» ثم ذكر قول أهل العلم في ذلك، إلى أن قال: «هذا حكمنا في ذلك، فإن كان صواباً فمن الله، وأرجو منه الإثابة، وإن كان خطأ فمني، ومن الشيطان، فأرجو من الله المغفرة، هذا ما لنا، مع إبلاغ السلام، الأمير والعيال وعبد الله بن ناصر والإخوان والأشراف والجماعة، ومن لدينا: الأمير وعبد الله والإخوان والجماعة يسلمون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...»^(١).

ومراسلاته - رحمه الله - لم تكن مع أهل العلم فقط؛ بل كانت أيضاً مع ولاية الأمر - رحمهم الله - ومن ذلك:

رسالة أرسلها إلى الملك الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن - رحمه الله - حيث وضع فيها أن طلبة العلم قد كثروا وزادوا، وهم بحاجة إلى معونة من ولي الأمر، كي تكون دافعاً لهم على الازدياد في طلب العلم، وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

جلالة الملك المعظم عبد العزيز أعزه الله تعالى.

(١) الرسالة لا تزال خطية، وعندي منها صورة بخط المؤلف رحمه الله.

عندنا قراء، وطلبة علم متوجهين، إن رأيتوا تفضلون عليهم بمعاونة تنشطهم لعل الله ينفع بهم، ونظركم أعلى^(١).

وفي هذه الرسالة دلالة صادقة، وعناية فائقة، على تفقد الشيخ - رحمه الله - لأمر طلابه، ومن حوله من الناس، وبذل كل غالٍ ونفيس في سبيل نشر العلم، وبذله للناس على سواء.

ومن مراسلاته لولاة الأمر - أيضاً - رسالة أرسلها إلى الملك سعود - رحمه الله - حيث بشره فيها بكثرة طلاب العلم، وتوجههم إليه، وهذا نصها: «صاحب السمو الملكي ولي العهد المعظم: سعود أسعده الله تعالى، نبشركم أن القراء والطلبة كاثرين، ومتوجهين، وذلك أسبابكم الحسنة، رفع الله ذكركم...»^(١) إلخ.

* وفاته:

اختلف المترجمون في تحديد اليوم والسنة التي توفي فيها الشيخ - رحمه الله - . فذكر الشيخ عبد الله البسام في كتابه: «علماء نجد خلال ستة قرون»^(٢) أن الشيخ توفي في فجر يوم الجمعة عشرة القعدة سنة ١٣٧٧ هـ.

وذكر صاحب: «مشاهير علماء نجد»^(٣) أن الشيخ توفي في ستة عشر ذي القعدة سنة ١٣٧٧ هـ.

وذكر في الترجمة الموجودة في بداية كتاب: «المجموعة الجلييلة»^(٤) أن الشيخ توفي في ليلة الاثنين السابع عشر من ذي القعدة عام ١٣٧٧ هـ.

(١) كتب المؤلف - رحمه الله - تلك الرسالتين على اللهجة الدارجة في نجد - (اللهجة العامية) - وهي لا تزال خطية، وعندني منها صورة بخط المؤلف رحمه الله.

(٢) انظر (٧٥٧/٣).

(٣) انظر (ص ٤٠١ ط / الثانية سنة ١٣٩٤ هـ).

(٤) انظر (ص ٥).

وذكر صاحب: «العلامة المحقق والسلفي المدقق»^(١) أن الشيخ توفي في الثالث الأخير من ليلة الجمعة الموافق ١٦/١١/١٣٧٦ هـ وهو الصواب.

* وصيته^(٢):

أورد لك أخي الكريم ههنا مقتطفات من وصية الشيخ - رحمه الله - لطلاب العلم والدين، من أهل نجد وغيرهم، ولولا خشية الإطالة لسردتها لك بكاملها، وهي موجودة بتمامها في كتاب: «الزبد في تراجم علماء وأعيان آل حمد» يسر تمامه على خير، قال رحمه الله بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أما بعد: فأقول وأنا الفقير إلى الله تعالى وتبارك، فيصل بن عبد العزيز آل مبارك، هذه وصيتي لأولادي، وإخواني طلبة العلم والدين، من أهالي نجد وغيرهم من سائر بلدان المسلمين، قال الله - عز وجل - : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ . وقال النبي ﷺ: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن».

إلى أن قال: «والعلم النافع هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ»، قال النبي ﷺ: «العلم ثلاثة: آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة، وما كان سوى ذلك فهو فضل».

إلى أن قال: «وأخلصوا النية في طلب العلم، وابتغوا به وجه الله تعالى والدار الآخرة».

إلى أن قال: «ولا تجعلوا الدنيا أكبر همكم، ولا مبلغ علمكم، وكونوا بما عند الله أوثق منكم بما في أيديكم».

(١) انظر (ص ٢٩).

(٢) عثرت عليها أثناء بحثي المتواصل عن كتب الشيخ المخطوط منها والمطبوع، وقد وقع الفراغ من كتابتها في شهر جمادى الأولى عام ١٣٥٤ هـ.

إلى أن قال: «ولا تذلوأ أنفسكم وتهينوها بالطمع، قال بعض العلماء:
 «أرى الناس من داناهاُم هان عندهم ومن أكرمته عزة النفس أكرما
 ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
 ولكن أهانوه فهان ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما»
 إلى أن قال: «وأعلم أن أصل العلوم وينبوع الحكم هو كلام الله تعالى».

إلى أن قال: «وطريق العلم لمن وفقه الله تعالى يسيرة على من يسرها الله
 عليه، فأول ذلك تخيره معلماً أديباً كاتباً تقياً، ويحفظ حروف الهجاء من الألف
 إلى الياء، ويردها حفظاً... ثم يبتدىء في القرآن، ويكتبه، أو يكتب له في لوح
 ليكون ذلك أجمع لذهنه، وأقوى لحفظه، ويجتهد في صغره، وفراغه، فالقراءة في
 الصغر كالنقش في الحجر... فإذا ختم القرآن رده في المصحف، وضبط حروفه
 عن اللحن، ودرسه على قارئ معروف بالحفظ، وهو مع ذلك يشهد الجُمع
 والجماعات، ومجالس الذكر، ويحافظ على لزوم الأدب والعفاف والصلة، ثم
 يبتدىء بحفظ القرآن في صدره ويجعل له كل يوم حزباً يحفظه على حسب قدرته،
 فإذا حفظه درسه حتى يتقنه ثم يبتدىء في الحزب الآخر كذلك، ولا يترك الأول
 عن الدرس... وينظر في التفسير، ثم يجلس على مشايخ العلم... ثم يقرأ في
 ثلاثة الأصول، وكتاب التوحيد للإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
 — رحمه الله تعالى — ويحفظها، ويحفظ ما استطاع من سائر مختصراته، مثل:
 أصول الإيمان، وفضل الإسلام، وكتاب الكبائر، ونصيحة المسلمين، وكشف
 الشبهات، وغيرها من مؤلفاته النافعة، ويحفظ العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن
 تيمية — رحمه الله تعالى — فإنه كتاب جامع لأصول الدين.

ويقرأ رياض الصالحين، ويحفظ آخره من كتاب الفضائل إلى آخره، فإنه
 جامع للمأمورات والمنهيات، ومؤدب لقاريه، ومرغب له في الطاعات.

ويحفظ «عمدة الأحكام» للحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور

المقدسي - رحمه الله تعالى - ومن أراد الاطلاع على أدلة المذاهب في الأحكام والراجع والمرجوح من الأقوال فليحفظ «بلوغ المرام».

ويقرأ في النحو، ولا يتوغل فيه، فيشغله عن ما هو أهم منه، فيحفظ الآجرومية، والملحة أو غيرها.

ويقرأ الرحبية في المواريث، ويحفظها، ويحفظ متناً من أصول الفقه، ومختصراً من كتب المذاهب...

ولا ينازع شيخه ولا يتتبع زلاته، ولا يكشف عن عوراته، فمن نازع شيخه حرم العلم، وليكن بحثه معه بأدب، واستعفاء، ولا تحملك محبة شيخك وتعظيمه على تصويبه في خطئه».

إلى أن قال: «ثم يقرأ في المطولات، فيبتدىء بصحيح البخاري... ثم يقرأ في صحيح مسلم والسنن الأربع، وموطأ الإمام مالك، ومسند الإمام أحمد، ومنتقى الأخبار وغيرها من كتب أهل الحديث رحمهم الله...».

إلى أن قال: «وعليك بالنظر في كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وكتب تلميذه ابن القيم، مثل: زاد المعاد، وإغاثة اللهفان، وسائر كتبه النافعة...».

ثم يطالع في كتب الخلاف، وينظر في الشروح، فإذا ترجح له قول، قد قال به أحد من الأئمة قبله، فليأخذ به، ولو كان مخالفاً للمذهب...».

* عقبه:

توفي الشيخ - رحمه الله - عن عامر يناهز ٦٣ سنة، قضاها في الدعوة إلى الله، وتعليم الناس أمور دينهم، ونشر التوحيد ومحاربة الشرك والتنديد، فجزاها الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

والشيخ - رحمه الله - لم يخلف ذكوراً، إنما خلف ستاً من البنات أسأل الله أن يرزقني وإياهن صلاح القلب والعمل، وأن يجعلهن من أنصار دينه، المتبعين لسنة نبيه ﷺ، المعادين لأعداءه من أهل البدع والكفر والضلال.



تنبيهات وتعقيبات

من خلال اطلاعي السريع على المصادر والمراجع التي ترجمت للمؤلف رحمه الله، وقفت على أخطاء يجب التنبيه عليها:

١ - ففي كتاب «علماء نجد خلال ستة قرون» (٣/٧٥٤): «البشري ثم الحسني...» وتبعه على ذلك صاحب كتاب: «العلامة المحقق» (ص ١٠)، وهو خطأ، والصواب: الحسني ثم البشري، إذ الحسنة بطن من السلقا، والسلقا من العمارات، والعمارات من بشر.

٢ - وفي المصدر السابق «وآل بشر من آل حسني الذين هم بطن من وائل»، وهو خطأ، وقد سبق بيانه.

٣ - وفي المصدر السابق (٣/٧٥٥) وكتاب «روضة الناظرين» (١/١٤٧): «ولد في بلد عشيرته - حريملاء - عاصمة بلدان المحمل...»، وتبعهما على ذلك صاحب كتاب: «العلامة المحقق...»، وهو خطأ، والصواب: أن حريملاء هي عاصمة بلدان الشعيب، أما عاصمة بلدان المحمل هي: ثادق.

٤ - وفي المصدر السابق (٣/٧٥٦): «ولي قضاء كل من تثليث، فأبها، فييشه، فترية، فالخرمة، فالقنفذة، فقرية، فضرمة، فالجوف».

وهنا تنبيهان:

الأول: أن الترتيب الذي ذكره الشيخ - وفقه الله - ليس بصحيح، فالصواب هكذا: تثليث، ثم أبها، ثم قرية، ثم تربة، ثم أبها مرة أخرى، ثم القنفذة، ثم الخرمة، ثم رنية - ولم يذكرها الشيخ وفقه الله من ضمن البلدان التي

ولي القضاء بها - ثم ضرماً، ثم الجوف، وهذا الترتيب، هو الذي ذكره لي الشيخ عبد الله آل عبد الوهاب.

الثاني: أن الشيخ - رحمه الله - لم يعين في بيته للقضاء إطلاقاً، كما ذكره لي الشيخ عبد الله آل عبد الوهاب الملازم للشيخ في سفره وإقامته. وإن كنت لا أستبعد ذلك، لأن الترجمة الموجودة في مقدمة كتابه «المجموعة الجليلة» قد قرأها وأقرأها وفيها ذكر توليه القضاء في بيته.

٥ - في المصدر السابق (٧٥٦/٣) و«الأعلام» للزركلي (١٦٨/٥): «بستان الأخبار»، والصواب: «بستان الأخبار» كما سبق بيانه عند ذكر مؤلفات الشيخ رحمه الله.

٦ - في كتاب «علماء نجد خلال ستة قرون» (٧٥٧/٣): «توفي يوم الجمعة عشرة القعدة ١٣٧٧هـ، وفي الترجمة التي أعدها أحدهم عن الشيخ، ذكر فيها أنه توفي عام ١٣٧٧ يوم الاثنين السابع عشر من ذي القعدة، وفي كتاب «مشاهير علماء نجد» (ص ٤٠١): أنه توفي في يوم الجمعة ستة عشر ذي القعدة سنة ١٣٧٧هـ، وهو خطأ، والصواب: أنه توفي في يوم الجمعة السادس عشر من ذي القعدة لعام ١٣٧٦هـ.

٧ - في المصدر السابق (٧٥٦/٣)، والترجمة الموجودة في مقدمة كتاب: «خلاصة الكلام شرح عمدة الأحكام (ط/ الرشد). - عند معرض ذكر شيوخ المؤلف رحمه الله - ما نصه: «والشيخ عبد الرحمن بن داود» والصواب علي بن داود رحمه الله.

٨ - في الترجمة الموجودة في مقدمة «المجموعة الجليلة» ما نصه: «تولى القضاء في البلدان التالية تثليث ثم نقل منها إلى أبها، ومنها نقل إلى بيته ثم نقل إلى تربة، ثم نقل إلى الخرمة، ثم أعيد إلى أبها، ومنها نقل إلى القنفذة،

ومنها نقل إلى قرية، ومنها نقل إلى ضرمى^(١)، ثم نقل إلى الجوف». راجع التنبيه رقم (٤).

٩ - في كتاب: «العلامة المحقق...» (ص ١٤) ما نصه: «كان يرأس قوافل الحجاج بأمر الحكومة...»، وقد قرأت هذا الكلام على الشيخ عبد الله آل عبد الوهاب، وقال: «لم يكن ذلك إلا مرة واحدة فقط» قلت: و (كان) إذا أتى بعدها فعل مضارع، فإنه يدل على الاستمرار!

١٠ - في المصدر السابق ص ١٧ ما نصه: «ثم يقرأ الطالب صالح بن مسعود»، والصواب: «صالح بن مرشود» رحمه الله، كما ذكر ذلك الشيخ عبد الله حفظه الله.

١١ - في المصدر السابق (ص ١٧) ما نصه: «وقبل صلاة العصر يذهب الشيخ وطلبته ليكون بضيافة الأهالي...»، ذكر لي الشيخ عبد الله آل عبد الوهاب - حفظه الله - أن هذا ليس دائماً، بل في النادر، قلت: والنادر لا حكم له.

١٢ - في المصدر السابق (ص ١٨) ما نصه: «ويعود إلى بيته بعد العصر من مسجده ليفتح الباب لطلبته ليقروا عليه القرآن...»، والصواب أن وقت القراءة التي تكون في البيت هو: وقت الضحى، وما بين المغرب والعشاء فقط، وأما ما بعد العصر فهو في المسجد، كما ذكر لي ذلك الشيخ عبد الله آل عبد الوهاب حفظه الله.

١٣ - في المصدر السابق ص ١٨ ما نصه: «ويعد صلاة العشاء يقرأ عليه الطلبة النحو (ملحة الإعراب)^(٢) - الأجرورية^(٣)».

(١) هكذا في المصدر المنقول منه، والصواب: «ضرماء» بالألف الممدودة.

(٢) هكذا في الكتاب المنقول منه، والصواب: «ملحة الإعراب».

(٣) هكذا في الكتاب المنقول منه، والصواب: «الأجرورية».

١٤ - في المصدر السابق (ص ١٩) ما نصه: «أنه اشترى مرة أرضاً...» والصواب أنه لم يشتريها، بل هي أرض موات قام الشيخ - رحمه الله - بزراعتها وحفر بئر بها، وبناء مسجد فيها كما ذكر لي ذلك الشيخ عبد الله حفظه الله.

١٥ - في المصدر السابق (ص ١٩) ما نصه: «فقام بإهدائها لصاحبها ابن عيشان دون مقابل»، والصواب: أنه دفعها إليه، وشرط عليه المحافظة على المسجد الذي بها، وكذلك المدي^(١).

١٦ - في المصدر السابق (ص ٢١) ما نصه: «ذهب إلى مدينة الطائف...» والصواب أنه ذهب إلى الشرقية كما حدثني به الشيخ عبد الله آل عبد الوهاب حفظه الله.

١٧ - في المصدر السابق (ص ٢٤) ما نصه: «شفيق المرزوق» وفي الترجمة الموجودة في مقدمة كتاب: «خلاصة الكلام» (ط/ الرشد): «شفيق المرزوق»، والصواب: شَفَقَ المرزوق، كما حدثني بذلك الشيخ حفظه الله.

١٨ - في المصدر السابق (ص ٢٤) ما نصه: «عبد الله بن عبد الوهاب رحمه الله!! وهذا الدعاء وإن كان معناه صحيحاً، لكنه يوهم القارئ، أن المترحم عليه قد توفي، وهذا خلاف الحقيقة، فالشيخ - حفظه الله - لا يزال على قيد الحياة، صحيحاً معافى، نسأل الله أن يمدد في عمره على طاعته، وأن يجزيه عنا خير الجزاء، والذي يظهر لي أن هذا وهم من مؤلف الكتاب - عفى الله عنا وعنه - ، وقد كان رسول الله ﷺ يعجبه الفأل ويكره التطير، فافهم.

(١) وهو إناء كبير يوضع فيه الماء، لأجل من يريد الوضوء.

١٩ - في المصدر السابق (ص ٢٩) ما نصه: «وهكذا انتقل بعد أن قضى في الجوف عشرين عاماً»، وأيضاً في كتاب «روضة الناظرين» (١/١٤٩): أن الشيخ ظل قاضياً في الجوف عشرين سنة، وهو خطأ، والصواب: أنه قضى في الجوف قرابة خمسة عشر عاماً، إذ قدوم الشيخ إلى الجوف سنة ١٣٦٢هـ، ووفاته بها عام ١٣٧٦هـ، فكم بينهما؟!

٢٠ - في كتاب: «مشاهير علماء نجد» (ص ٣٩٨)، والترجمة الموجودة في مقدمة كتاب: «المجموعة الجليلة» ما نصه: «واستشهد والده عبد العزيز...»، قلت: والمعلوم من مذهب أهل السنة - رحمهم الله - أنه لا يقطع بالشهادة لأحد بأنه من أهل الجنة ولا من أهل النار، إلا لمن ورد النص على تعيينهم أنهم من أهل الجنة أو من أهل النار؛ لذا قال البخاري - رحمه الله - في صحيحه: «باب لا يقول فلان شهيد».



النسخ المعتمدة

توفّر لدي عند الشروع في تحقيق هذا الكتاب المبارك نسختان:

□ الأولى: خطية، وهي بخط المؤلف — رحمه الله — ، وللأسف الشديد ليس موجود منها سوى قطعة من الجزء الرابع فقط.

وتقع في: ٢٢٥ صفحة. ومسطرتها: ما بين ١٧ — ٢٠ سطراً.

وعدد الكلمات في كل سطر: ما بين ٨ — ١٠ كلمات.

□ الثانية: مطبوعة، وقد طبعت سنة ١٣٧٦هـ بدار التأليف — بمصر، تحت معرفة صاحب المكتبة الأهلية بالرياض، وذلك في أربعة مجلدات:

المجلد الأول: يقع في ٢٩٦ صفحة، يبدأ بتفسير سورة البقرة، وينتهي بنهاية تفسير الآية ١٤٧ من سورة النساء.

المجلد الثاني: يقع في ٣٨٧ صفحة، يبدأ من الآية ١٤٨ من سورة النساء، وينتهي بنهاية تفسير سورة الإسراء.

المجلد الثالث: ويقع في ٤٤٤ صفحة، يبدأ بتفسير سورة الكهف، وينتهي بنهاية تفسير الآية ١٤٦ من سورة فصلت.

المجلد الرابع: ويقع في ٣٨٢ صفحة، يبدأ بتفسير الآية ١٤٧ من سورة فصلت، وينتهي بنهاية تفسير سورة الناس.

وهذه المطبوعة قد طبعت عن النسخة التي كتبها تلميذ الشيخ: عبد العزيز آل عقل — وفقه الله — وهو قد نقلها من خط المؤلف رحمه الله.

وقد رمزت لها بـ «الأصل»، وعليها اعتمدت في تحقيق الكتاب.



عنوان الكتاب ونسبته للمؤلف

جميع المصادر التي ترجمت للشيخ - رحمه الله - ذكرت أن للشيخ كتاباً في التفسير، وأن عنوانه هو: «توفيق الرحمن في دروس القرآن» فالحمد لله على فضله وإحسانه.

* سبب تأليفه هذا الكتاب :

يُن المؤلف - رحمه الله - في مقدمة كتابه السبب الذي دعاه إلى تأليف هذا الكتاب قائلاً:

«فإن تفسير القرآن أشرف علوم الدين، وقد صنف فيه الأئمة ما يشفي ويكفي، وما بين مختصر ومطول، ولكن لا بدّ من تفسيره للناس بلسانهم، وتبيين معانيه على قدر أفهامهم...».

* منهج المؤلف في كتابه :

- قسم المؤلف - رحمه الله - الكتاب إلى أربعة أجزاء.
- كونه من ثلاثمائة وثلاثة عشر درساً.
- كل درس من هذه الدروس يحتوي على عدد من آيات السورة المراد تفسيرها، بحسب طول السورة أو قصرها.
- يعرض المؤلف الآيات المراد تفسيرها في بداية الدرس، ثم يقوم بعد ذلك بتفسيرها، كل موضع بحسبه.

- إيرادَه للآيات والأحاديث، وأقوال الصحابة والتابعين، والمفسرين حول الآية المراد تفسيرها، مع مراعاة الاختصار.
- الابتعاد عن البسط والتطويل في تفسير الآيات، وإيراد المعنى العام لها غالباً.
- إعطاء المعنى العام للآية — في الغالب — وإيراد خلاصة أقوال المفسرين فيها.
- إعراضه عن تفسير الآيات في بعض المواضع، لظهور معناها من خلال سياق الآية.
- أكثر ما في هذا الكتاب قد نقله المؤلف من تفسير ابن جرير، وابن كثير، والبخاري. بالإضافة إلى بعض التفاسير، مثل: جامع البيان للحسيني.
- إذا نقل المؤلف كلام أحد المفسرين بلفظه، فإنه يعزوه، وإذا تصرف فيه لم يعزه.
- محاولته الابتعاد عن الأحاديث الإسرائيلية التي تخالف شرعنا المطهر، وكذا الأحاديث التي فيها ضعف أو وضع.



منهجي في تحقيق الكتاب

- ١ - اعتمدت النسخة المطبوعة (الأصل) أصلاً في تحقيق هذا الكتاب.
- ٢ - اتبعت جميع ما في النسخة المطبوعة (الأصل)، إلا ما رأيته حرياً بالتصحيح، أو بالحذف، أو الإضافة.
- ٣ - كل زيادة على النسخة المطبوعة (الأصل) سواء من النسخة الخطية، أو من كتاب نقل منه المؤلف، أو من عندي، فإني أضعها بين معقوفتين هكذا: [].
- ٤ - حاولت قدر الإمكان أن أوثق النقول بإرجاعها إلى مصادرها.
- ٥ - حرصت على مقابلة النص المنقول، مع مصدره الذي نقل منه، وهذه المقابلة ليست حرفية، وإنما لبيان بعض الكلمات الناقصة، أو الجمل والعبارات الزائدة أحياناً.
- ٦ - عزوت الآيات إلى سورها.
- ٧ - خرجت الأحاديث الواردة في الكتاب، وكذلك بعض الآثار متبعاً في ذلك الآتي:
- (أ) راعيت الاختصار في التخريج، وترك البسط والتطويل، إذ ليس هذا محله، فالكتاب كتاب تفسير، وليس كتاب حديث مسند.
- (ب) إن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بالعزو إليهما، إذ العزو إليهما مشعر بالصحة.

(ج) اكتفيت في الإحالة برقم الحديث أو الأثر، وبجانبه حرف الحاء
- أي: حديث أو أثر رقم - هكذا (ح/...) وقد أذكر رقم الجزء
والصفحة في بعض المواضع.

(ح) بعد تخريج الحديث - إن كان في غير الصحيحين أو أحدهما - أذكر
ما توصلت إليه في بيان درجته، من صحة أو ضعف، إذ القارئ
- في نظري القاصر - همه الوقوف على صحة الحديث من ضعفه
ليس إلا، فإن كان صحيحاً عمل به، وإن كان ضعيفاً تركه، وهذا هو
المطلوب.

٨ - علق على بعض آيات الصفات.

٩ - ختمت الكتاب بفهرس للآيات التي ذكرها المؤلف في غير موضعها،
وفهرس للأحاديث والآثار المخرجة، وفهرس للأشعار.



وجعلنا ذكره في البرية من أشجاره حتى جعلنا جميع أغوايه
لكن سره معايبه ومثالبه وحلوه عن سقطه عن طغيانه
~~فذلك المالح والساكن في البحر والطارء على البحر~~
ولقد مننت على ربك ما نعلم ما لربك شكر (قليل من ذلك)
فذلك المحامد والمدائح كلها بخوارق وجوارحه ولسانه

تَوْفِيقُ الْحَسَنِ

فِي دُرُوسِ الْقُرْآنِ

تَأَلَّفَ

الشيخ فيصل بن عبد العزيز بن فيصل آل مبارك

(١٣١٣ - ١٣٦٦ هـ)

رَحِمَهُ اللَّهُ

مَقَّقَهُ، وَضَرَعَ أُمَامَتَيْهِ، وَعَلَوَ عَلَيْهِ

عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الزَّيْرَالِ حَمْدُ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، وفصله قرآنًا عربياً لقوم يعلمون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ربّ السموات وربّ الأرض ربّ العالمين. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الأكرمين، وسلم تسليماً.

أما بعد:

فإن تفسير القرآن أشرف علوم الدين، وقد صنف فيه الأئمة ما يشفي ويكفي، ما بين مختصر ومطول، ولكن لا بد من تفسيره للناس بلسانهم، وتبيين معانيه على قدر أفهامهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

وأكثر ما في هذا الكتاب نقلته من تفسير ابن جرير، وابن كثير، والبغوي رحمهم الله تعالى، فما كان بلفظه عزوته، وما تصرف فيه لم أعزه.

اللهم اعصمنا من القول عليك بلا علم، واهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤.

قال صاحب «الفوز الكبير في أصول التفسير»^(١) رحمه الله تعالى: «معاني القرآن المنطوقة لا تخرج عن خمسة علوم: علم الأحكام، وعلم المخاصمة والرد على الفرق الضالة، وعلم التذكير بآلاء الله، وعلم التذكير بأيام الله، وعلم التذكير بالموت وما بعده، فوجود العقائد الباطلة سبب لنزول آيات المخاصمة، ووجود الأعمال الفاسدة وجريان المظالم فيما بينهم سبب لنزول آيات الأحكام، وعدم تيقظهم بآلاء الله، وأيام الله، ووقائع الموت وما بعده سبب لنزول آيات التذكير. قال بعض العارفين: إن الناس لما حفظوا قواعد التجويد شغلوا عن الخشوع في التلاوة. ولما ساق المفسرون الوجوه البعيدة في التفسير، صار علم التفسير نادراً كالمعدوم.

ومن المواضع الصعبة في فن التفسير معرفة الناسخ والمنسوخ، فمعنى النسخ عند المتقدمين: إزالة بعض الأوصاف من الآية بآية أخرى، إما بانتهاء مدة العمل، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر، أو بيان كون قيد من القيود اتفاقاً، أو تخصيص عام، أو بيان الفارق بين المنصوص، وما قيس عليه ظاهراً، أو إزالة عادة الجاهلية أو الشريعة السابقة، فاتسع باب النسخ عندهم، وكثر جولان العقل هنالك، واتسعت دائرة الاختلاف.

والمنسوخ باصطلاح المتأخرين عدد قليل قريباً من عشرين آية، وفي أكثرها نظر، ولا يتعين النسخ إلا في خمس آيات: الأولى، قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٢) منسوخة بقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾^(٣) الآيات. الثانية: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا

(١) انظر (ص ٤ - ١٦).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٠.

(٣) سورة النساء: الآية ١١.

إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴿١﴾ الآية منسوخة عند الجمهور بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَضَّعْنَ أَنْفُسِهِنَّ أَزْوَاجَهُنَّ عَشْرًا﴾ (٢). الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ (٣) الآية منسوخة بالآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤). الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْفِسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ (٥) منسوخة بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي أَتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنِصَابَ عَمَلِكَ وَنِصَابَ خَالِكَ وَنِصَابَ خَلِيلِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ (٦) الآية. الخامسة: قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَزَّجْتُمُ الرُّسُولَ فَتَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَى كُفْرِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ (٧) الآية منسوخة بالآية التي بعدها. ﴿مَا شَفَقْتُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَى كُفْرِكُمْ صَدَقَةٌ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٨). انتهى ملخصاً مع تقديم وتأخير.

قلت: والمتفق عليه من الخمس ثلاث آيات: آية الوصية، وآية القتال (٩)، وآية النجوى (١٠).

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣٤.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٦٥.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٦٦.

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٥٢.

(٦) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

(٧) سورة المجادلة: الآية ١٢.

(٨) سورة المجادلة: الآية ١٣.

(٩) في (الأصل): «التار»، ولعل ما أثبتته أولى.

(١٠) في (الأصل): «النجوء». وهو خطأ.

وقال ابن جرير على قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾^(١): «قال ابن زيد: ونسخ هذا لما أمر بالجهاد. قال ابن جرير: هذا قول لا وجه له؛ لأنه ﷺ لم يزل صابراً على ما يلقي منهم حتى توفاه الله قبل أن يأذن الله بحربهم وبعده»^(٢) انتهى ملخصاً.

وقال صاحب الفوز أيضاً^(٣): «ومن المواضع الصعبة: معرفة أسباب النزول، والذي يظهر من استقراء كلام الصحابة والتابعين، أنهم لا يستعملون نزلت في كذا لمحض قصة في زمنه ﷺ، وهي سبب نزول الآية بل ربما يذكرون بعض ما صدقت عليه الآية مما كان في زمنه ﷺ أو بعده، ويقولون: نزلت في كذا، ولا يلزم هناك انطباق جميع القيود؛ بل يكفي انطباق أصل الحكم فقط، وقد يقررون حادثة تحققت في تلك الأيام المباركة، واستنبط ﷺ حكمها من آية وتلاها في ذلك الباب، ويقولون: نزلت في كذا، وربما يقولون في هذه الصورة: فأنزل الله قوله كذا، فكانه إشارة إلى أن استنباطه ﷺ وإلقاؤها في تلك الساعة بخاطره المبارك أيضاً نوع من الوحي، والمنفث في الروح، فلذلك يمكن أن يقال: فأنزلت. ويمكن أيضاً أن يعبر في هذه الصورة بتكرار النزول».

إلى أن قال: «ومما ينبغي أن يعلم أن قصص الأنبياء السابقين لا تذكر في الحديث، إلا على سبيل القلة، فالقصص الطويلة العريضة التي تكلف المفسرون روايتها كلها منقولة عن علماء أهل الكتاب إلا ما شاء الله تعالى، وقد جاء في صحيح البخاري مرفوعاً: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»^(٤).

(١) سورة المعارج: الآية ٥.

(٢) انظر «جامع البيان» (٧٣/٢٩).

(٣) انظر (ص ١٨ و ١٩ و ٣٤ - ٣٥).

(٤) أخرجه البخاري (ح/ ٤٤٨٥ و ٧٣٦٢ و ٧٥٤٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

إلى أن قال: «وسبب النزول على قسمين:

القسم الأول: أن تقع حادثة يظهر منها إيمان المؤمنين، ونفاق المنافقين، كما وقع في أحد والأحزاب، أنزل الله تعالى مدح هؤلاء وذم أولئك؛ ليكون فيصلاً بين الفريقين، وربما يقع في مثل هذا من التعريض بخصوصيات الحادثة ما يبلغ حد الكثرة، فيجب أن يذكر شرح الحادثة بكلام مختصر ليتضح سوق الكلام على القارئ.

القسم الثاني: أن يتم معنى الآية بعمومها، من غير احتياج إلى العلم بالحادثة التي هي سبب النزول والحكم؛ لعموم اللفظ لا لخصوص السبب، وقد ذكر قدماء المفسرين تلك الحادثة بقصد الإحاطة بالآثار المناسبة للآية، أو بقصد بيان ما صدق عليه العموم، وليس ذكر هذا القسم من الضروريات، وقد تحققت أن الصحابة والتابعين كثيراً ما كانوا يقولون: نزلت الآية في كذا وكذا، وكان غرضهم تصوير ما صدقت عليه الآية، وذكر بعض الحوادث التي تشملها الآية بعمومها، سواء تقدمت القصة أو تأخرت، إسرائيلياً كان ذلك أو جاهلياً أو إسلامياً، استوعبت جميع قيود الآية أو بعضها، والله أعلم. فعلم من هذا التحقيق أن للاجتهاد في هذا القسم مدخلاً، وللقصص المتعددة هنالك سعة، فمن استحضر هذه النكتة يتمكن من حل ما اختلف من سبب النزول بأدنى عناية. انتهى ملخصاً وبالله التوفيق.

وقال ابن كثير^(١) رحمه الله تعالى: (فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أصح طريق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعيانك ذلك فعليك بالسنة؛ فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله، محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم»: (١/٣ - ٥).

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَالِطِينَ حَصِيماً ۝ ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾^(٢)، وقال: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ﴾^(٣)، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إِلَّا إني أوتيت القرآن ومثله معه»^(٤)، يعني: السنة).

إلى أن قال: (والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة؛ كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: اجتهد رأيي. فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله»^(٥)). وهذا الحديث في المسند والسنن بإسناد جيد كما هو مقرر في موضعه.

وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن، ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح، والعمل الصالح؛ لا سيما علماءهم وكبراءهم).

إلى أن قال: (فصل إذا لم تجد التفسير في القرآن، ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين: كمجاهد بن

(١) سورة النساء: الآية ١٠٥.

(٢) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٣) أخرجه أحمد (٤/١٣١)، وأبو داود (ح/٤٦٠٤) عن المقدم بن معديكرب رضي الله عنه مرفوعاً، وهو صحيح.

(٤) أخرجه أحمد (٥/٢٣٠ و ٢٣٦ و ٢٤٠)، وأبو داود (ح/٣٥٩٢ و ٣٥٩٣)، والترمذي (ح/١٣٢٧).

جبر، فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند عند كل آية منه، وأسأله عنها.

وقال ابن جرير: أنبأنا أبو كريب: أنبأنا طلق بن غنام، عن عثمان المكي، عن ابن أبي مليكة، قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه الواحة. قال: فيقول له ابن عباس: أكتب. حتى سأله عن التفسير كله. ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وكسعيد بن جبیر، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين، وتابعيهم، ومن بعدهم فتذكر أقوالهم في الآية، فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك. فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن، فليستفطن اللبيب لذلك، والله الهادي). انتهى.

وقال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: تفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعلمه إلا العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله، من ادعى علمه فهو كاذب.

تنبيه: لم يبين التفسير في بعض المواضع؛ لأنه يظهر للعالم من سياق الآيات وكلام العرب الموجددين، خصوصاً من نشأ في بلادهم، وتداول فيها، فإنه يكاد يفسر القرآن ولو لم يسمع الآثار ﴿يَكَادُزِيْتَاهُ يُضِيُّ وَلَوْ لَرَمَسَسَهُ نَارٌ﴾^(١). وقد كنت في صغري أهاب سؤال العلماء في بعض ما يشكل عليّ من القرآن، فأسمع الكلمة

(١) سورة النور: الآية ٣٥.

من بعض الأعراب، فتزِيل عني ما أشكل، فكنت أسمع قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (١)، فجاءني أعرابي وأنا مع الغلمان، فقال لي: أين عمك؟ قلت له: ما هو في البيت. فقال لي: إذا جاء فقل له يقول حمود القحطاني: إذا ما جاء بين العشاورين جيت. فعرفت معنى الآية.

وسمعت أعرابياً يقول: «طلعت عليّ الخيل تتبع الربيع تترا». فعرفت معنى قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ (٢) أي: يتبع بعضهم بعضاً.

وقد نشأت - والله الحمد - في أصل العرب، وسرت في بلادهم بنجد، والحجاز، وتهامة، واليمن، والبحرين، وسمعت كلام البادية والحاضرة، وكان بعضهم - وهو أبي - إذا سمع القرآن عرف معناه بمجرد التلاوة.

وسمع أعرابي رجلاً يقرأ: ﴿وَالْمَدِينَتِ ضَبْحًا﴾ (١) ﴿وَالْمُورِبَتِ قَدْحًا﴾ (٢) ﴿وَالْمُغِيرَتِ ضَبْحًا﴾ (٣) فَأَنْزَلَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَّطَنَ بِهِ جَمْعًا (٥)﴾ (٣)، فقال الأعرابي: الخيل الخيل.

وسمعت أعرابية رجلاً يقرأ هذه الآية. ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٤) فقالت: ويش الصلاة الوسطى؟ قال: صلاة العصر. فقالت: على شان وقتها ضيق.

وتجادل رجلان فيما يفعله الجهال عند القبور من دعاء الموتى، وطلب الحاجات منهم، فقال أحدهما: هذا شرك؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ

(١) سورة فصلت: الآيتان ١٩ و ٢٠.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٤٤.

(٣) سورة العاديات: الآيات ١ - ٥.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٣٨.

فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١﴾، فقال الآخر: ما يجوز لمثلي ومثلك أن يفسر القرآن. فسكت الرجل، وكان حليماً وهو في بيت الآخر، فخرجت عليهم جارية جميلة فقال: يا فلان من هذه؟ قال: بنتي. فقال: لو تزوجتها. فضحك به وقال: أتزوج بنتي! فقال الرجل: هل في ذلك بأس. فقال: ما تسمع قول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ (٢) فقال: إنك تقول ما يجوز لمثلي ومثلك أن يفسر القرآن.

والمقصود: أن من كان لسانه عربياً، وفطرته مستقيمة، يعرف معنى القرآن بمجرد، سماعه وكثيراً ما يسألني الأعراب، وغيرهم عن مسائل غامضة في الآيتام، فأتلوا عليهم قول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَلِخَوْنِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ (٣)، فيعرفون الجواب بمجرد التلاوة، ويقنعون، فإذا انضم إلى العربية والفطرة السليمة معرفة سيرة النبي ﷺ كان ذلك نوراً على نور، والله الهادي والموفق للصواب.

• • •

(١) سورة الجن: الآية ١٨.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٠.

فصل في فضائل القرآن

قال الله تعالى: ﴿الرَّيَّةُ مَأْتَتْ أَكْثَبَ الْمِثْمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) مَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٧)﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا نَذِيرَةً لِّمَن يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)﴾ (٣)، وقال عز وجل: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَضْبًا مُّتَصِدًّا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ (٤). وقال جل وعلا: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَا

(١) سورة يوسف: الآيات ١ - ٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

(٣) سورة طه: الآيات ١ - ٨.

(٤) سورة الحشر: الآية ٢١.

يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٧﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴿١﴾

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَنْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ﴾ ﴿٢﴾.

وقال تعالى: ﴿حَدَّثَ ﴿١﴾ نَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ ﴿٣﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ ﴿٤﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكَبٍّ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ ﴿٥﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴿٩١﴾﴾ ﴿٦﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ﴿٧﴾.

وقال تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٩٣﴾﴾ ﴿٨﴾.

(١) سورة الواقعة: الآيات ٧٧ - ٨٠.

(٢) سورة الزمر: الآية ٢٣.

(٣) سورة فصلت: الآيات ١ - ٤.

(٤) سورة الإسراء: الآيتان ٨٨ و ٨٩.

(٥) سورة الإسراء: الآية ١٠٦.

(٦) سورة الأنعام: الآية ١٩.

(٧) سورة الحجر: الآية ٩.

(٨) سورة إبراهيم: الآية ١.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُخَكِّمُ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٥).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمَّ وَحْدٌ وَمَعْنٌ لَّكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٦) وكذلك أَنْزَلَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٧) وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَزَّتَابِ الْمُبْطِلُونَ (٨) لَمْ هُوَ آيَاتٌ يَتَنَبَّئُ فِي صُورِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٩).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ (١٠).

(١) سورة الشورى: الآية ٥٢.

(٢) سورة يونس: الآية ٥٨.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٠٤.

(٤) سورة التوبة: الآية ٦.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٦) سورة العنكبوت: الآيات ٤٦ - ٤٩.

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴿١﴾

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذَرِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿٢﴾

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١١٧﴾﴾ ﴿٣﴾

وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿٤﴾

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ ﴿٥﴾

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَنَّهُ كَانَ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢١﴾﴾ ﴿٦﴾

وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿٧﴾

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ ﴿٨﴾

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ هَٰذَا الَّذِي يَصُّوُّ النَّجْمَ وَيُفَصِّلُ الْوُجُوهَ لَنُفِصِّلَنَّ عَنْهُ سَبِيلَ اللَّهِ يَبْغِي الْعِلْمَ وَيُؤْتِي السَّبِيلَ سِرًّا وَهَاتِفًا ﴿٢١﴾﴾ ﴿٩﴾

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

(١) سورة الجن: الآيتان ١ و ٢.

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٢٩.

(٣) سورة الإسراء: الآية ١٠٧.

(٤) سورة الانشقاق: الآية ٢٠ و ٢١.

(٥) سورة محمد: الآية ١٦.

(٦) سورة محمد: الآية ٢٤.

(٧) سورة المطففين: الآية ١٤.

(٨) سورة النساء: الآية ٨٧.

(٩) سورة النجم: الآيات ٥٩ — ٦١.

وَتَخِذْهَا هُزُوعًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِ أَيْتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرْفًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴿١﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَكْثُرَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ (٢)، والآيات في الباب كثيرة.

وعن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» (٣). رواه البخاري.

وعن عتبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة، فقال: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق، فيأتي بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطع رحم؟ فقلنا: يا رسول الله، كلنا نحب ذلك. قال: أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد، فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل» (٤). رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خَلِيفَاتٍ عظام سمان؟ قلنا: نعم. قال: فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاته، خير له من ثلاث خَلِيفَاتٍ عظام سمان» (٥). رواه مسلم.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع

(١) سورة لقمان: الآيتان ٦ و ٧.

(٢) سورة فاطر: الآيتان ٢٩ و ٣٠.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٥٠٢٧).

(٤) أخرجه مسلم (ح/٨٠٣).

(٥) أخرجه مسلم (ح/٨٠٢).

السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتنفع فيه، وهو عليه شاق له أجران»^(١) متفق عليه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا على اثنين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار»^(٢) متفق عليه.

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة»^(٣) لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر»^(٤). متفق عليه.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»^(٥) رواه مسلم.

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: «ثلاثة تحت العرش يوم القيامة: القرآن يحاج العباد له ظهر وبطن، والأمانة، والرحم تنادي: ألا من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله»^(٦) رواه [البغوي] في شرح السنة.

(١) أخرجه أحمد (٩٨/٦ و ١٧٠ و ٢٣٩ و ٢٦٦)، والبخاري (ح/٤٩٣٧)، ومسلم (ح/٧٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (٨/٢)، والبخاري (ح/٥٠٢٦ و ٧٢٣٢ و ٧٥٢٨)، ومسلم (ح/٨١٥).

(٣) في (الأصل): «الثمرة»، والصواب كما أثبتته.

(٤) أخرجه أحمد (٤/٤٠٤ و ٤٠٨)، والبخاري (ح/٥٠٥٩)، ومسلم (١/٥٤٩ ح/٧٩٧).

(٥) أحمد (١/٣٥)، ومسلم (ح/٨١٧).

(٦) أخرجه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٥/٥)، والبغوي في «شرح السنة» (ح/٣٤٣٣)،

وفي سنده كثير بن عبد الله الشكري، قال العقيلي: «كثير بن عبد الله الشكري عن الحسن بن عبد الرحمن بن عوف لا يصح إسناده».

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»^(١) رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب»^(٢) رواه الترمذي والدارمي، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الربُّ تبارك وتعالى من شغله القرآن عن ذكرى أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»^(٣) رواه الترمذي، والدارمي، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿الم﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»^(٤) رواه الترمذي، والدارمي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب إسناداً.

(١) أخرجه أحمد (١٩٢/٢)، وأبو داود (ح/١٤٦٤)، والترمذي (١٦٣/٥ ح/٢٩١٤) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٢٢/٥) وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٣/١)، والترمذي (ح/٢٩١٣) وقال: «حسن صحيح»، والدارمي (٣٠٨/٢)، والحاكم (٥٥٤/١) وصححه، وهو حديث حسن.

(٣) أخرجه الترمذي (١٦٩/٥ ح/٢٩٢٦) وقال: «حديث حسن غريب»، والدارمي (٣١٧/٢)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٤٩/٤)، بسند ضعيف.

(٤) أخرجه الترمذي (ح/٢٩١٠)، وقال: «يروى هذا الحديث من غير وجه عن ابن مسعود، ورواه أبو الأحوص عن ابن مسعود رفعه بعضهم ووقفه بعضهم عن ابن مسعود»، وأخرجه الدارمي (٣٠٨/٢)، والطبراني في الكبير (١٤٠/٩) موقوفاً عن ابن مسعود، وهو صحيح.

وعن الحارث الأعور قال: «مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على علي رضي الله عنه فأخبرته فقال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنها ستكون فتنة. قلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»^(١). رواه الدارمي.

وعن معاذ الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن وعمل بما فيه، ألبس والداه تاجاً يوم القيامة، ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا، لو كانت فيكم. فما ظنكم بالذي عمل بهذا؟»^(٢) رواه أحمد وأبو داود.

(١) أخرجه الترمذي (ح/٢٩٠٦)، والدارمي (٢/٣١٢)، والبغوي في «شرح السنة» (ح/١١٨١)، وفي سننه الحارث بن عبد الله الأعور، وهو ضعيف. قال ابن كثير في «فضائل القرآن» (ص ١٥): «والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه... وقصاري هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روي له شاهد عن عبد الله ابن مسعود...».

(٢) أخرجه أبو داود (ح/١٤٥٣)، وأحمد (٣/٤٤٠)، والحاكم (١/٥٦٧ - ٥٦٨)، وصححه، وتعبه الذهبي بقوله: «قلت: فيه زيان بن فائد وهو ضعيف، ويحيى بن أيوب وليس بالقوي». اهـ. قلت: وهو كما قال.

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فاستظهره، فأحل حلاله وحرّم حرامه، أدخله الله الجنة وشقّعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت له النار»^(١) رواه أحمد وابن ماجه والدارمي. قوله: فاستظهره، أي حفظه عن ظهر قلبه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن واقرؤوه، فإن مثل القرآن لمن تعلم فقرأ وقام به، كمثّل جراب محشو مسكاً تفوح ريحه في كل مكان. ومثّل من تعلمه فرقد وهو في جوفه، كمثّل جراب أوكى على مسك»^(٢) رواه الترمذي والنسائي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعربوا القرآن وابتغوا غرائب، وغرائب فرائضه وحدوده»^(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «قراءة القرآن في الصلاة أفضل من قراءة القرآن في غير الصلاة، وقراءة القرآن في غير الصلاة أفضل من التسبيح

(١) أخرجه أحمد (١٤٨/١)، والترمذي (ح/٢٩٠٥)، وابن ماجه (ح/٢١٦)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بصحيح، وحفص بن سليمان يضعف في الحديث». اهـ. وهو كما قال: ولم أقف عليه عند الدارمي.

(٢) أخرجه الترمذي (ح/٢٨٧٦)، والنسائي في الكبرى (٥/٢٢٧)، وابن ماجه (ح/٢١٧)، قال الترمذي: «هذا حديث حسن وقد رواه الليث بن سعد عن سعيد المقبري عن عطاء، موالى أبي أحمد عن النبي ﷺ مرسلًا ولم يذكر فيه عن أبي هريرة» وقال النسائي: «والمشهور مرسل». قلت: وسنده ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/٤٥٦)، وأبو يعلى (٦/٩٠)، والحاكم (٢/٤٣٩) وفي سنده عبد الله بن سعيد المقبري وقال الحاكم: «صحيح عند جماعة» وتعقبه الذهبي بقوله: «مجمع على ضعفه»، ووافقه العراقي وقال: «سنده ضعيف». وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/١٦٣): «فيه عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري، وهو متروك».

والتكبير، والتسبيح أفضل من الصدقة، والصدقة أفضل من الصوم، والصوم جُنة من النار»^(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء. قيل يا رسول الله، وما جلاؤها؟ قال: كثرة ذكر الموت، وتلاوة القرآن»^(٢). روى البيهقي الأحاديث الثلاثة في شعب الإيمان.

وعن الحسن مرسلًا أن النبي ﷺ قال: «من قرأ في ليلة مائة آية لم يحاجه القرآن تلك الليلة، ومن قرأ في ليلة مائتي آية كتب له قنوت ليلة، ومن قرأ في ليلة خمسمائة إلى الألف أصبح وله قنطار من الأجر. قالوا: وما القنطار؟ قال: اثنا عشر ألفاً»^(٣). رواه الدارمي.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصيًّا من الإبل في عقلها»^(٤) متفق عليه.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بش ما لأحدهم أن يقول نسيت آية كيت وكيت، بل نُسِّي. واستذكروا القرآن فإنه أشد تفصيًّا من صدور الرجال من النعم»^(٥) متفق عليه.

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢/٤١٣)، وفي سنده ضعف.

(٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١/٢٥٩)، ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/٨٣٢) بسند موضوع. وبنحوه عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «إن للقلوب صدأ كصدأ الحديد، وجلاؤها الاستغفار»، أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧/٢٩ و ٧٨) بسند ضعيف جداً.

(٣) أخرجه الدارمي (٢/٣٣٤ - ٣٣٥).

(٤) أخرجه البخاري (ح/٥٠٣٣)، ومسلم (ح/٧٩١).

(٥) أخرجه البخاري (ح/٥٠٣٢)، ومسلم (ح/٥٤٥).

وعن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت»^(١) متفق عليه.

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه»^(٢) متفق عليه.

وعن قتادة قال: سئل أنس كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ؟ فقال: كانت مداً مداً. ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿١﴾ يمد ببسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم»^(٣). رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنّى بالقرآن»^(٤) متفق عليه.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به»^(٥). متفق عليه.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»^(٦) رواه البخاري.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «اقرأ عليّ. قلت: اقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: إني أحب أن أسمعه من غيري. فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ

(١) أخرجه البخاري (ح/٥٠٣١)، ومسلم (ح/٧٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٥٠٦٠)، ومسلم (ح/٢٦٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٥٠٤٦).

(٤) أخرجه البخاري (ح/٥٠٢٣ و ٥٠٢٤)، ومسلم (١/٥٤٥).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه البخاري (ح/٧٥٢٧).

وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿١١﴾ ، قال: حسبك الآن. فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان»^(١) متفق عليه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن. قال: الله سماني لك؟ قال: نعم. قال: وقد ذكرت عند رب العالمين؟ قال: نعم فذرفت عيناه»^(٢) وفي رواية: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، قال: وسماني؟ قال: نعم. فبكى»^(٣). متفق عليه.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين، وإن بعضهم ليستر ببعض من العرى، وقارئ يقرأ علينا إذ جاء رسول الله ﷺ، فقام علينا، فلما قام رسول الله ﷺ سكت القارئ، فسلم، ثم قال: «ما كنتم تصنعون؟» قلنا: كنا نستمع إلى كتاب الله. فقال: «الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم. قال: فجلس وسطنا ليعدل بنفسه فينا، ثم قال: بيده هكذا، فتحلقوا وبرزت وجوههم له، فقال: أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم، وذلك خمسمائة عام»^(٤). رواه أبو داود.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»^(٥) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والدارمي.

(١) أخرجه البخاري (ح/٥٠٥٠)، ومسلم (ح/٨٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٩٦١)، ومسلم (ح/١٩١٥).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٤٩٥٩)، ومسلم (ح/٧٩٩).

(٤) أخرجه أحمد (٣/٦٣ و ٩٦)، أبو داود (ح/٣٦٦٦)، وفي سننه العلاء بن بشير: مجهول،

وله شاهد من حديث أبي هريرة عند الترمذي وابن ماجه.

(٥) أخرجه أحمد (٤/٢٨٣ و ٢٨٥ و ٣٠٤)، وأبو داود (ح/١٤٦٨)، والنسائي (٢/١٧٩)

وابن ماجه (ح/١٣٤٢)، والدارمي (٢/٣٤٠)، والحاكم (١/٥٧٥)، وهو حديث صحيح.

وعن سعد^(١) بن عباد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرء يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله يوم القيامة أجزم»^(٢) رواه أبو داود، والدارمي.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث»^(٣) رواه الترمذي، وأبو داود، والدارمي.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة»^(٤) رواه الترمذي، وأبو داود، والنسائي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما آمن بالقرآن من استحل محارمه»^(٥) رواه الترمذي، وقال: هذا حديث ليس إسناده بالقوي.

وعن الليث بن سعد عن ابن أبي مليكة عن يعلى بن مملك: «أنه سأل أم سلمة عن قراءة النبي ﷺ، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً»^(٦) رواه الترمذي، وأبو داود، والنسائي.

وعن جابر رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن،

(١) في (الأصل): «مسعود» وهو خطأ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٨٤/٥)، أبو داود (ح/١٤٧٤)، والدارمي (٣١٥/٢) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد (٢/١٦٤ و ١٦٥ و ١٨٩ و ١٩٣ و ١٩٥)، وأبو داود (ح/١٣٩٠)، والترمذي (ح/٢٩٤٩)، وابن ماجه (ح/١٣٤٧)، والدارمي (٢٨٩/١) قال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه أحمد (٤/١٥١ و ١٥٨)، وأبو داود (ح/١٣٣٣)، والترمذي (ح/٢٩١٩)، والنسائي (٥/٨٠)، وهو حديث صحيح.

(٥) أخرجه الترمذي (ح/٢٩١٨)، وقد ضعفه كما ترى.

(٦) أخرجه أحمد (٦/٢٩٤ و ٣٠٠)، وأبو داود (ح/١٤٦٦)، والترمذي (ح/٢٩٢٣)، والنسائي (٢/١٨١).

وفينا الأعرابي والعجمي، فقال: اقرؤوا فكل حسن، وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه^(١). رواه أبو داود، والبيهقي في شعب الإيمان.

يتعجلونه: أي يطلبون ثوابه في الدنيا، ولا يتأجلونه بطلب الأجر في الآخرة؛ بل يؤثرون العاجلة على الآجلة.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل العشق، ولحون أهل الكتاب، وسيجيء بعدي قوم يرجعون بالقرآن ترجع الغناء والنوح، لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذي يعجبهم شأنهم»^(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، ورزين في كتابه.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً»^(٣) رواه الدارمي.

وعن طاووس مرسلًا قال: «سئل رسول الله ﷺ، أي الناس أحسن صوتاً للقرآن وأحسن قراءة؟ قال: من إذا سمعته يقرأ أريت أنه يخشى الله»^(٤). قال طاووس: وكان طلق كذلك. رواه الدارمي.

(١) أخرجه أحمد (١٤٦/٣)، وأبو داود (ح/٨٣٠)، والبيهقي في «الشعب» (٢/٥٣٨) — (٥٣٩)، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط كما في «مجمع البحرين» (٦/١٢٢)، والبيهقي في «الشعب» (٢/٥٤٠) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه الدارمي (٢/٣٤٠)، والحاكم (١/٥٧٥)، وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه الدارمي (٢/٣٣٨)، وبنحوه عن جابر أخرجه ابن ماجه (ح/١٣٣٩) بسند ضعيف.

وعن عبيدة المليكي، وكانت له صحبة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أهل القرآن لا تتوسدوا القرآن، واتلوه حق تلاوته، وأفشوه وتغنوه وتدبروا ما فيه لعلمكم تفلحون، ولا تعجلوا ثوابه فإن له ثواباً»^(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

وعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه»^(٢). متفق عليه^(٣).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ قال له: يا أباي، أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هوّن على أمتي. فرد إليّ الثانية اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هوّن على أمتي، فرد إليّ الثالثة اقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردة رددتها مسألة تسألينها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليّ الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام»^(٤) رواه مسلم.

وعنه قال: «لقي رسول الله ﷺ جبرائيل فقال: يا جبرائيل إني بعثت إلى أمة أميين، منهم العجوز، والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط. قال: يا محمد، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف»^(٥) رواه الترمذي، وفي رواية لأحمد، وأبي داود قال: ليس منها إلّا شاف كاف»^(٦).

(١) أخرجه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/٢٦٠)، والبيهقي في «الشعب» (٢/٣٥٠ - ٣٥١) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٨/٦٤٠ ح/٤٩٩٢)، ومسلم (١/٥٦٠ ح/٨١٨).

(٣) في (الأصل): «من حديث»، بعد قوله: «متفق عليه»، وهي زيادة لا معنى فحذفتها.

(٤) أخرجه مسلم (ح/٨٢٠).

(٥) أخرجه أحمد (٥/١٣٢)، والترمذي (ح/٢٩٤٤)، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٦) أخرجه أحمد (٥/١٢٤)، وأبو داود (ح/١٤٧٧)، وهو حديث صحيح.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه مرّ على قاص يقرأ ثم يسأل، فاسترجع ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ القرآن فليسأل الله به، فإنه سيجيء أقوام يقرؤون القرآن يسألون به الناس»^(١) رواه أحمد والترمذي.

وعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن يتأكل به الناس، جاء يوم القيامة ووجهه عظيم ليس عليه لحم»^(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله لديه طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلاّ نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»^(٣). رواه مسلم.

وما أحسن ما قاله الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني رحمه الله تعالى:
فللعمل الإخلاص شرط إذا أتى وقد وافقته سنة وكتاب
وقد صين عن كل ابتداع وكيف ذا وقد طبق الآفاق منه عباب

(١) أخرجه أحمد (٤/٤٣٢ و ٤٣٣ و ٤٣٩)، والترمذي (ح/٢٩١٧)، وقال: «هذا حديث حسن ليس إسناده بذلك»، وللحديث شاهد من حديث أبي سعيد الخدري وجابر، وعبد الرحمن بن شبل الأنصاري رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (١/١٤٨)، والبيهقي في «الشعب» (٢/٥٣٢) — (٥٣٣)، قال ابن حبان: «لا أصل له من حديث رسول الله ﷺ...». اهـ.

(٣) أخرجه مسلم (ح/٢٦٩٩).

إلى أن قال :

سوى عزلة فيها الجليس كتاب
حواه من العلم الشريف صواب
تري آدماء إذ كان وهو تراب
يواريه لما أن أراه غراب
على الأرض من ماء السحاب عباب
وما قال كل منهم وأجابوا
وأكثرهم قد كذبوه وخابوا
وناد^(١) بها للمسرفين عذاب
لكل شقي قد حواه عقاب
فإن دموع العين عنه جواب
فللروح منه مطعم وشراب
تريد فما تدعو إليه تجاب
بها قطعت للملحدين رقاب
فوالله ما عنه ينوب كتاب
وليس عليه للذكي حجاب

فلم يبقى للراجي سلامة دينه
كتاب حوى كل العلوم وكل ما
فإن رمت تاريخاً رأيت عجائبها
ولاقيت هايبلاً قتيلاً شقيقه
وتنظر نوحاً وهو في الفلك إذ طغى
وإن شئت كل الأنبياء وقومهم
تري كل من تهوى من القوم مؤمن
وجنات عدن حورها ونعيمها
فتلك لأصحاب التقى ثم هذه
وإن ترد الوعظ الذي إن عقلته
تجده وما تهواه من كل مشرب
وإن رمت إبراز الأدلة في الذي
تدل على التوحيد فيه قواطع
وفيه الدوا من كل داء فثق به
وما مطلب إلا وفيه دليله

إلى أن قال :

تدر عليكم بالعلوم سحاب
ألوفاً تجد ما ضاق عنه حساب
يطيب بها نشر ويفتح باب
أصولاً إليها للذكي إياب

أطيلوا على السبع الطوال وقوفكم
وكم من ألوف في المثين فكن بها
وفي طي أثناء المثاني نفائس
وكم من فصول في الفصل قد حوت



(١) هكذا في (الأصل)، ولعل الصواب: «ونار» بالراء المهملة.

فصل

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف فأقرؤوا ولا حرج، ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب ولا ذكر عذاب برحمة»^(١)، وفي رواية: «أنزل القرآن على سبعة أحرف عليم، حكيم، غفور، رحيم»^(٢). رواه ابن جرير وغيره.

وعن الأعمش قال: قرأ أنس هذه الآية: ﴿إِنْ نَاشِئَةُ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَصْوَبُ قِيلًا﴾، فقال له بعض القوم: يا أبا حمزة، إنما هي ﴿أقوم﴾ فقال: أقوم وأصوب واحد.

وعن ابن سيرين قال: «نبئت أن جبرائيل وميكائيل أتيا النبي ﷺ فقال له جبرائيل: اقرأ القرآن على حرفين. فقال: له ميكائيل استزده. فقال: اقرأ القرآن على ثلاثة أحرف. فقال له ميكائيل: استزده. قال: حتى بلغ سبعة أحرف». قال محمد: لا تختلف في حلال ولا حرام، هو كقولك: تعال، وهلم، وأقبل.

قال ابن جرير^(٣): (معنى قول النبي ﷺ: «نزل القرآن على سبعة أحرف» أي سبع لغات، كقول القائل: هلم، وأقبل، وتعال، وإليّ، وقصدي، ونحوي، وقربي، ونحو ذلك مما تختلف فيه الألفاظ، وتتفق فيه المعاني). انتهى ملخصاً.

وعن أبي قلابة قال: لما كان في خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل والمعلم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفر بعضهم بقراءة بعض، فبلغ ذلك عثمان فقام خطيباً، فقال: أنتم عندي تختلفون فيه وتلحنون، فمن نأى عني من أهل الأمصار أشد فيه اختلافاً وأشد لحناً، اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماماً. قال ابن

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٩/١).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١١/١ - ١٢).

(٣) المصدر السابق (٢٥/١).

جرير^(١): (فاستوثقت له الأمة بالطاعة فتركت القراءة بالأحرف الستة، فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها لدثورها وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها من غير جحود صحتها. فأما اختلاف القراءة في رفع حرف وجره ونصبه وتسكين حرف وتحريكه ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصور فبمعزل من معنى قول النبي ﷺ: «أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف»). انتهى ملخصاً.

وقال بعض المفسرين: ذكر الحروف التي كتب بعضها على خلاف بعض في المصحف وهي في الأصل واحدة: فأول ﴿بسم الله﴾ كتب بحذف الألف التي قبل السين، وكتب ﴿اقرأ باسم ربك﴾، و ﴿سبح اسم ربك﴾، و ﴿بش الاسم الفسوق﴾ بالألف. والأصل في ذلك كله واحد، وهو أن يكتب الألف، وإنما حذفت من ﴿بسم الله﴾ فقط لأنها ألف وصل ساقطة من اللفظ كثيراً. قد كثر استعمال الناس إياها فأمّنوا أن يجهل القارئ معناها. وكتب ﴿فيما﴾ موصولاً في كل القرآن إلا في البقرة ﴿في ما فعلن﴾، وفيها ﴿في ما فعلن في أنفسهن من معروف﴾، وفي الأنعام ﴿في ما أوحى إلي محرماً﴾، وفيها ﴿ليلوكم فيما آتاكم﴾، وفي الأنفال: ﴿في ما أخذتم﴾ وفي الأنعام ﴿في ما اشتهدت أنفسهم﴾، وفي النور ﴿في ما أفضتم﴾، وفي الشعراء ﴿في ما ههنا﴾، وفي الروم ﴿في ما رزقناكم﴾، وفي الزمر ﴿في ما هم فيه﴾، وفيها ﴿في ما كانوا فيه يختلفون﴾، وفي الواقعة ﴿في ما لا تعلمون﴾، فذلكن اثنا عشر حرفاً وما سوى ذلك موصول).

إلى أن قال: (وكتب ﴿لكي لا﴾ مقطوعة في كل القرآن إلا ثلاثة مواضع: في الحج ﴿لكيلا يعلم﴾ وفي الأحزاب ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾، وفي الحديد ﴿لكيلا تأسوا﴾، وكتب في هود ﴿فإلم يستجيبوا لكم﴾، موصولاً مدغماً، وفي القصص ﴿فإن لم يستجيبوا لك﴾ مقطوعاً. وكتب ﴿كلما﴾ موصولاً. إلا خمسة مواضع، وكتبت ﴿الرحمة﴾ بالهاء، إلا سبعة مواضع، ﴿والنعمة﴾ بالهاء إلا أحد

(١) المصدر السابق (٢٨/١).

عشر موضعاً ﴿وامرأة﴾ بالهاء إلا سبعة مواضع. و﴿سنه﴾ بالهاء، إلا خمسة مواضع، و﴿معصية﴾ بالهاء إلا موضعين. وكتب ﴿الملائ﴾ بالألف إلا أربعة مواضع، فإنها كتبت بالواو. وكتب في الذاريات ﴿ساحر أو مجنون﴾ بالألف، وما سواه بغير ألف. وكتب جميع ما في القرآن من ذكر الأيدي بياء واحدة إلا في الذاريات ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ فإنها كتبت بياءين والأصل كتبه بياء واحدة، وكتب في حم السجدة ﴿سماوات﴾ بالألف وما سواه كتبت ﴿سموات﴾ بغير ألف وكتب ﴿ويمح الله الباطل﴾ بغير واو، ﴿ويمحو الله ما يشاء﴾ بالواو والألف. وكتب ﴿الربوا﴾ بواو بعدها ألف في كل القرآن إلا قوله ﴿وما آتيتم من رباً﴾، فإنه بغير واو، وكتب ﴿إن امروا هلك﴾ و﴿يتفؤا ظلاله﴾ و﴿تفتؤا تذكر﴾ و﴿ويدروا عنها﴾ وما أشبهها بواو وألف، ولو كتب بالواو وحدها أو بالألف وحدها لجاز).

إلى أن قال: (وإنما كتبت هذه الحروف بعضها على خلاف بعض، وفي الأصل واحدة؛ لأن الكتابة بالوجهين كانت جائزة عندهم، فكتبوا بعضها على وجه، وبعضها على وجه آخر جمعاً بين المذهبين، على أنهم كتبوا أكثرها على الأصل، وكل ما كتب في المصحف على أصل لا يقاس عليه غيره من الكلام؛ لأن القرآن يلزمه لكثرة الاستعمال ما لا يلزم غيره، واتباع المصحف في هجائه واجب).

وقال جماعة من الأئمة: إن الواجب على القراء والعلماء، وأهل الكتاب أن يتبعوا هذا الرسم في خط المصحف، فإنه رسم زيد بن ثابت، وكان أمين رسول الله ﷺ، وكتب وحيه، وعلم من هذا العلم بدعوة النبي ﷺ ما لم يعلم غيره، فما كتب شيئاً من ذلك إلا لعله لطيفة وحكمة بليغة، وإن قصر عنه رأينا، ألا ترى أنه لو كتب على ﴿صلوتهم﴾ و﴿أن صلوتك﴾ بالألف بعد الواو، وبالألف من غير واو لما دل ذلك إلا على وجه واحد، وقراءة واحدة، والله تعالى أعلم). انتهى ملخصاً.

وقال بعض العلماء:

والخط فيه معجز للناس وحائد عن مقتضى القياس

لا تهتدي لسره الفحول ولا تحوم حوله العقول
 قد خصه الله بتلك المنزلة دون جميع الكتب المنزلة
 ليظهر الإعجاز في المرسوم منه كما في لفظه المنظوم

اللهم لك الحمد على ما أنعمت به علينا من نعمك العظيمة، والآثك
 الجسيمة، حيث أنزلت علينا خير كتبك، وأرسلت إلينا أفضل رسلك، وشرعت لنا
 أفضل شرائع دينك، وجعلتنا من خير أمة أخرجت للناس، وهديتنا لمعالم دينك
 الذي ارتضيته لنفسك، وبنيت على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً
 رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام،
 ولك الحمد على ما يسرته من تفسير كتابك العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه
 ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد،
 كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد
 وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد،
 اللهم إنا عبيدك، بنو عبيدك، بنو إمامك، نواصينا بيدك، ماض فينا حكمك، عدل
 فينا قضاؤك، نسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في
 كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل
 القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا، وشفاء صدورنا، وجلاء أحزاننا،
 وذهاب همومنا وغمومنا، اللهم ذكرنا منه ما نسينا، وعلمنا منه ما جهلنا، وارزقنا
 تلاوته آناء الليل والنهار على الوجه الذي يرضيك عنا، اللهم اجعلنا ممن يحل
 حلاله، ويحرم حرامه، ويعمل بمحكمه، ويؤمن بمتشابهه، ويتلوه حق تلاوته،
 اللهم اجعلنا ممن يقيم حدوده، ولا تجعلنا ممن يقيم حروفه، ويضيع حدوده،
 اللهم اجعلنا ممن اتبع القرآن فقاد به إلى رضوانك والجنة، ولا تجعلنا ممن اتبعه
 القرآن فزخ في قفاه إلى النار، واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك
 يا رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد فصلته ثلاثمائة وثلاثة عشر درساً، والله الموفق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الدرس الأول

﴿سورة الفاتحة﴾

مكية، وهي سبع آيات

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم،

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ
الدِّينِ﴾ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

* * *

سورة الفاتحة لها ثلاثة أسماء: فاتحة الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثاني.

وروى البخاري وغيره عن سعيد بن المعلى رضي الله عنه، قال: «كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صليت، قال: فأتيته، فقال: ما منعك أن تأتيني؟ قال: قلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، قال: ألم يقل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟ ثم قال: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد. قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن، قال: «نعم، الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج — ثلاثاً — غير تمام». فقيل لأبي هريرة: إنا نكون خلف الإمام؟ فقال: اقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ؛ فَإِذَا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قال الله: أثنى عليَّ عبدي؛ فإذا قال: ﴿مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال الله: مَجَّدني عبدي — وقال مرة: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي — فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٤٧٤).

ولا الضالين»، قال الله: «هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»^(١) رواه مسلم وغيره.

قوله عز وجل: ﴿يَسْمُرُ اللَّهُ الْخَيْزَ الرَّحْمَ﴾.

روى أبو داود وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم»^(٢).

وروى ابن جرير^(٣) وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إن أول ما نزل به جبريل على محمد ﷺ قال: يا محمد قل: أستعِذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم، قال: قال له جبريل: «بسم الله يا محمد، يقول: اقرأ بذكر الله ربك، وقم واقعد بذكر الله تعالى».

واختلف العلماء في مشروعية قراءة البسملة في الصلاة.

فقال بعضهم: لا يقرأ بها سرّاً ولا جهراً.

وقال بعضهم: يقرأ بها جهراً في الجهرية، وسراً في السرية.

وقال بعضهم: يقرأ بها سرّاً في الجهرية. هذا القول هو الراجح وعليه تدل الأحاديث الصحيحة؛ ويشرع الجهر بها في بعض الأحيان، وتستحب البسملة في ابتداء كل عمل، تبركاً باسم الله تعالى واستعانة به، وفي الحديث: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم»^(٤)، قال ابن عباس: الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين.

(١) أخرجه مسلم (ح/٣٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود (ح/٧٨٨)، وهو صحيح.

(٣) انظر «جامع البيان» (١/٥٢). وسنده ضعيف.

(٤) أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٢/٦٩)، والسبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (١/٦). بسند ضعيف جداً، وفيه: «أقطع بدل أجذم».

قوله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال ابن جرير^(١) رحمه الله تعالى: (الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يشنوا عليه). انتهى، قال أبو نصر الجوهري: (والحمد أعم من الشكر، وأما المدح فهو أعم من الحمد، وقال ابن عباس: الحمد لله كلمة الشكر، وإذا قال العبد: الحمد لله، قال: شكرني عبدي).

قال البغوي^(٢) رحمه الله تعالى: (والحمد يكون بمعنى الشكر على النعمة، ويكون بمعنى الثناء عليه بما فيه من الخصال الحميدة، والشكر لا يكون إلا على النعمة).

وقوله تعالى ﴿الله﴾، اللام للاستحقاق، والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وأنواعه لله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿رب العالمين﴾، الرب: هو المالك المتصرف، والعالمين: جمع عالم بفتح اللام، وهو كل موجود سوى الله عز وجل؛ والعوالم أصناف المخلوقات، وعن ابن عباس: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ الحمد لله الذي له الخلق كله، السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، مما نعلم ومما لا نعلم. وعن سعيد بن المسيب قال: لله ألف عالم: ستمائة في البحر، وأربعمائة في البر. وقال كعب الأحبار: لا يحصي عدد العالمين أحد إلا الله، قال الله تعالى: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾^(٣)، وقال الزجاج: العالم كل ما خلق الله في الدنيا والآخرة.

قال القرطبي: والعالم مشتق من العلامة.

قال ابن كثير^(٤): لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته، كما

قال ابن المعتز:

(١) انظر «جامع البيان» (١/٦٠ - ٦١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/١٣).

(٣) سورة المدثر: الآية ٧.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٢).

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

تنبيه: المعروف عند بعض القراء أنه لا يقف على ﴿العالمين﴾، ولا على ﴿الرحيم﴾، لاتصال الصفة بالموصوف، ولا مانع من ذلك لأن المعنى ظاهر، والأصل هو الوقوف على رؤوس الآي، ويشهد لذلك ما رواه الترمذي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته يقول: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، ثم يقف، ثم يقول: ﴿الرحمن الرحيم﴾، ثم يقف»^(١)، فالفصل والوصل جائزان: ويحسن الفصل مع الترتيل والوصل مع الهذ وفي الحديث: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ واصعد في درج الجنة، وترتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»^(٢)، فهو في صعود ما دام يقرأ، هذا كان أو ترتيلاً.

قوله عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

قال ابن كثير^(٣): اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وفي الأثر عن عيسى عليه السلام أنه قال: «الرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة»، وقال ابن عباس: «هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر».

وقال ابن جرير^(٤): (حدثنا السري بن يحيى التميمي، حدثنا عثمان بن زفر،

(١) أخرجه الترمذي (ح/٢٩٢٧) وقال: «حديث غريب»، وأبو داود (٤/٤٠٠١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٠ و ٢٣).

(٤) انظر «جامع البيان» (١/٥٥).

سمعت العزرمي^(١) يقول: ﴿الرحمن الرحيم﴾، قال: الرحمن لجميع الخلق، الرحيم، قال: بالمؤمنين.

قال القرطبي^(٢): إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله ﴿العالمين﴾، ليكون من باب قرب الترغيب بعد الترهيب، كما قال تعالى: ﴿نبيء عبادي أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾^(٣).

قوله عز وجل: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

قال ابن كثير^(٤): وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة؛ وإنما أضيف إلى يوم الدين، لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال تعالى: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه، فمنهم شقي وسعيد﴾^(٧)، وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿مالك يوم الدين﴾، يقول: لا يملك أحد معه في ذلك اليوم حكماً كملكهم في الدنيا، قال: و﴿يوم الدين﴾، يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة، يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إلا من عفا عنه.

(١) في (الأصل): «العزري» وهو خطأ.

(٢) انظر «الجامع لأحكام القرآن» له (١/١٣٩).

(٣) سورة الحجر: الآيتان ٤٩ و ٥٠.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٤).

(٥) سورة النبأ: الآية ٣٨.

(٦) سورة طه: الآية ١٠٨.

(٧) سورة هود: الآية ١٠٥.

قوله عز وجل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فالأول: تبرؤ من الشرك، والثاني: تبرؤ من الحول والقوة، وتفويض إلى الله عز وجل، وهذا كثير في القرآن، قال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾^(٣)، قال ابن عباس: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، يعني إياك نوحده ونخاف، ونرجوك يا ربنا لا غيرك. ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، على طاعتك وعلى أمورنا كلها. قال البغوي^(٤): «والعبادة الطاعة مع التذلل والخضوع، وسمي العبد عبداً لذته وانقياده».

قوله عز وجل: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

قال ابن كثير^(٥): لما تقدم الثناء على المسؤول، تبارك وتعالى، ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال: «فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبي ما سألت»، وهذا أكمل أحوال السؤال، أن يمدح مسؤوله، ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين، والهداية هاهنا: الإرشاد والتوفيق.

وقال البغوي^(٦): وهذا الدعاء من المؤمنين، مع كونهم على الهداية، بمعنى التثبيت، وبمعنى طلب مزيد الهداية، لأن الألفاظ والهدايات من الله لا تنتهى.

(١) سورة هود: الآية ١٢٣.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣.

(٣) سورة المزمل: الآية ٩.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (١٤/١).

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٦/١ و ٢٧).

(٦) انظر «معالم التنزيل» (١٤/١).

وقال ابن جرير^(١): أجمعت الأمة من أهل التأويل، على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح، الذي لا اعوجاج فيه، وقال مجاهد: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، قال: الحق.

وروى الإمام أحمد وغيره عن النواس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جانبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا؛ وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن فتحتَه تلجِه. فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: مننت عليهم بالهداية والتوفيق للإيمان، والاستقامة عليه من النبيين والمؤمنين، قال الضحاك عن ابن عباس: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾، بطاعتك، وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك، والصديقين، والشهداء، والصالحين؛ وذلك نظير ما قال ربنا تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾^(٣).

(١) انظر «جامع البيان» (١/٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/١٨٢)، والترمذي (ح/٢٨٥١)، وابن جرير (١/٥٨)، والحاكم (١/٧٣) وصححه ووافقه الذهبي؛ وهو كما قال.

(٣) سورة النساء: الآية ٦٩.

قوله عز وجل: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

قال ابن كثير^(١): «والمعنى اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة، والطاعة لله ورسوله، وامثال أوامره، وترك نواهيه وزواجره؛ غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين، وهم الذين فقدوا العلم، فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق» انتهى.

وروى الإمام أحمد وغيره عن عدي بن حاتم قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ، فأخذوا عمتي وناساً، فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صفوا له، فقالت: يا رسول الله نأى الوافد، وانقطع الوالد، وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة، فَمَنْ عَلَيَّ مَنَّ الله عليك، قال: «من وافدك؟» قالت: عدي بن حاتم، قال: «الذي فرّ من الله ورسوله؟» قالت: فَمَنْ عَلَيَّ: فلما رجع ورجل إلى جنبه ترى أنه عليّ، قال: سليه حملاناً، فسألته فأمر له، قال: فأتتني فقالت: إنك فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه، وأناه فلان فأصاب منه، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان - وذكر قريبهم من النبي ﷺ - قال: فعرفت إنه ليس بملك كسرى ولا قيصر، فقال: «يا عدي ما أفرك؟ أن يقال لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟ ما أفرك؟ أن يقال الله أكبر؟ فهل شيء أكبر من الله عز وجل؟» قال: فأسلمت، فرأيت وجهه استبشر، وقال: «إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصاري»^(٢)، وذكر الحديث.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٩/١).

(٢) أخرجه أحمد (٣٧٨/٤)، والترمذي (١٨٧، ٢٩٥٣)، وابن جرير (٧٩/١) مختصراً، قال

الترمذي: «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب».

قال ابن كثير^(١): «مسألة، والصحيح من مذاهب العلماء، أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والطاء لقرب مخرجيهما لمن لا يميز ذلك؛ وأما حديث: «أنا أفصح من نطق بالضاد» فلا أصل له، والله أعلم» انتهى ملخصاً، قال ابن مفلح في الفروع^(٢): «وإن قرأ: غير المغضوب عليهم ولا الضالين بطاء، فالوجه الثالث يصح مع الجهل». قال في تصحيح الفروع: أحدها لا تبطل الصلاة، اختاره القاضي والشيخ تقي الدين، وقدمه في المغني والشرح وهو الصواب. انتهى؛ يعني: تصح الصلاة ولو كان يميز الضاد والطاء، والأحوط للإمام القراءة بالضاد إذا كان يميز ذلك.

وقال ابن كثير^(٣): «اشتملت هذه السورة الكريمة وهي سبع آيات على حمد الله، وتمجيده، والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبده إلى سؤاله والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له، وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يقضى^(٤) لهم بذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة، المفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبين والصديقين والشهداء والصالحين، واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون». انتهى.

(١) المصدر السابق (١/٣٠).

(٢) (١/٤٩١).

(٣) المصدر السابق (١/٣٠).

(٤) هكذا في (الأصل)، وتفسير ابن كثير، ولعل الصواب: «يفضي بهم ذلك» بدليل قوله:

«المفضي بهم إلى...».

ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها: «آمين» في الصلاة وغيرها. ومعناها: اللهم استجب لنا. لما رواه الإمام أحمد وغيره عن وائل بن حجر رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ قرأ: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾، فقال: آمين، مد بها صوته». ولأبي داود: «رفع بها صوته»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا تلا: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾، قال: «آمين؛ حتى يسمع من يليه من الصف الأول». رواه أبو داود وابن ماجه وزاد فيه: «فيرتج بها المسجد»^(٢).

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمّن الإمام فأمتنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على قول: آمين، فأكثرُوا من قول: آمين»^(٤). رواه ابن ماجه.

وعنه قال: «بينا رسول الله ﷺ وعنده جبرائيل، إذ سمع نقيلاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ فقال: ابشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته»^(٥). رواه مسلم والنسائي وهذا لفظه.

(١) أخرجه أحمد (٣١٨/٤)، وأبو داود (٩٣٢/ح)، والترمذي (ح/٢٤٨)، وابن ماجه (ح/٨٥٥) وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (ح/٩٣٤)، وابن ماجه (ح/٨٥٣). بسند ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٧٨٠)، ومسلم (ح/٤١٠).

(٤) أخرجه ابن ماجه (ح/٨٥٧)، وابن خزيمة (ح/٥٧٤)، وهو صحيح.

(٥) أخرجه مسلم (ح/٨٠٦).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كنا في مسير لنا فنزلنا فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحي سليم، وإن نَفَرْنَا غُيِّبٌ، فهل منكم راقٍ؟ فقام معها رجل ما كنا نأبئه برقية، فرقاه فبريء فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع قلنا له أكنت تحسن رقية، أو كنت ترقى؟ قال: لا، ما رقيت إلا بأَمِ الكتاب، قلنا: لا تحدثوا شيئاً حتى نأتي ونسأل رسول الله ﷺ، فلما قدمنا المدينة، ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «وما كان يدرى أنها رقية؟ اقسموها واضربوا لي بسهم»^(١). رواه البخاري ومسلم، والله أعلم.



(١) أخرجه البخاري (ح/٥٠٠٧)، ومسلم (٤/١٧٢٧ و ١٧٢٨).

الدرس الثاني

﴿سورة البقرة﴾

مدنية، وهي مائتان وثمانون وست أو سبع آيات

عن معقل بن يسار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت الله لا إله إلا هو الحي القيوم من تحت العرش، فوصلت بها، أو فوصلت بسورة البقرة. ويس قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له، وقرؤها على موتاكم»^(١). رواه أحمد.

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان»^(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة، لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة؛ أربع من أولها، وآية الكرسي، وآيتان بعدها، وثلاث آيات من آخرها». وفي رواية: «لم يقربه ولا أهله يومئذ

(١) أحمد (٢٦/٥)، وسنده ضعيف، ولكن صح الحديث بلفظ: «إن لكل شيء سناماً، وسنام القرآن سورة البقرة، وإن الشيطان إذا سمع سورة البقرة تقرأ خرج من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة»، أخرجه الحاكم (٥٦١/١) من حديث ابن مسعود، وموقوفاً عنه أيضاً.

(٢) أخرجه مسلم (ح/٧٨٠).

شيطان، ولا شيء يكرهه، ولا يقرآن على مجنون إلا أفاق»^(١). رواه الدارمي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بعث رسول الله ﷺ بعثاً، وهم ذوو عدد، فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سناً، فقال: «ما معك يا فلان؟» فقال: معي كذا وكذا وسورة البقرة فقال: «أمعك سورة البقرة؟» قال: نعم، قال: «اذهب فأنت أميرهم». فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة، إلا أنني خشيت ألا أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن واقراءوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه، فقرأ وقام به، كمثل جراب محشو مسكاً، يفوح ريحه في كل مكان ومثل من تعلمه فتركه وهو في جوفه، كمثل جراب أوكى على مسك»^(٢). رواه الترمذي وغيره.

قال البخاري: وقال الليث: حدثني يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال: «بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده، إذ جالت الفرس فسكت، فسكنت. فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت. ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف. وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: اقرأ أيا ابن حضير. قال: قد أشفقت يا رسول الله على يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي وانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها. قال: وتدرى ما ذاك؟ قال: لا. قال: تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم». ولمسلم: «عرجت في الجو»^(٣).

(١) أخرجه الدارمي (٣٢٢/٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠١٨/٤) معلقاً مجزوماً به، ومسلم (ح/٧٩٦).

وذكر الحافظ ابن حجر^(١) أن في الحديث اختصاراً، أصله كما رواه أبو عبيد: «رفع رأسه إلى السماء، فإذا هو بمثل الظلة، فيها أمثال المصابيح عرجت إلى السماء حتى ما يراها».

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعتة يقول: «تعلموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة». قال: ثم سكت ساعة ثم قال: «تعلموا سورة البقرة وآل عمران، فإنهما الزهراوان، يظلان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان أو غيابتان، أو فرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك. فيقول: أنا صاحبك القرآن، الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة. فيعطى الملك يمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتان لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بم كُسيْنَا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن. ثم يقال: «اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ، هذا كان أو ترتيلاً»^(٢). رواه الإمام أحمد.

قال ابن العربي في «أحكام القرآن»^(٣): «اعلموا وفقكم الله أن علماءنا قالوا: إن هذه السورة من أعظم سور القرآن. سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألف أمر، وألف نهى، وألف حكم، وألف خبر ولعظيم فقهها أقام عبد الله بن عمر ثمان سنين في تعلمها».

(١) انظر «فتح الباري» (٦٨٢/٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣٤٨/٥)، والدارمي (٣٢٤/٢)، بسند ضعيف، وبعض ألفاظ هذا الحديث عند مسلم.

(٣) انظر (١٥/١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا آخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُقْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾
خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمَنْ
النَّاسُ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّومَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَذِّعُونَ اللَّهَ
ءَامِنُوا وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ
مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ
وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لُقُوا بِالَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا
إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾
أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَّحَتْ بِحَنَرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾
مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي
ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ضُمُّ بِكُمْ عَنِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ
ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْدِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصُّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ
بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ
هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾.

قال الشعبي وغيره: ﴿الْم﴾. وسائر حروف الهجاء في أوائل القرآن، من
المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وهي سر القرآن، فنحن نؤمن بظاهرها ونكل
العلم فيها إلى الله تعالى. قال أبو بكر الصديق: في كل كتاب سر، وسر الله في
القرآن وأوائل السور. وعن ابن عباس أنه قال: معنى ﴿الْم﴾ أنا الله أعلم،
ومعنى ﴿الْمص﴾ أنا الله أعلم وأفصل. ومعنى ﴿الر﴾ أنا الله أرى. ومعنى
﴿المر﴾ أنا الله أعلم وأرى. وقال مجاهد: هذه الحروف أسماء السور.
وقال آخرون: إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور، بيانا لإعجاز القرآن،
وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله؛ وإليه ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية.

قال الزمخشري: «ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن، وإنما كررت
ليكون أبلغ في التحدي والتبكي، كما كررت قصص كثيرة، وكرر التحدي
بالصرح في أماكن». انتهى والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾، يقول تعالى: هذا
الكتاب وهو القرآن، لا شك فيه أنه من عند الله تعالى، وأنه الحق والصدق، كما
قال تعالى: ﴿الْم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾^(١).

(١) سورة السجدة: الآيتان ١ و ٢.

وقوله تعالى: ﴿وهدى للمتقين﴾، أي: رشد وبيان لأهل التقوى خاصة، كما قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمي أولئك ينادون من مكان بعيد﴾^(١). وقال تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾^(٢). قال ابن عباس: التقى من يتقى الشرك والكبائر والفواحش. وأنشد أبو الدرداء:

يريد المرء أن يؤتى مناه ويأبى الله إلا ما أراد
يقول المرء: فائدتى ومالي وتقوى الله أفضل ما استفاد

والتقوى: هي طاعة الله بامتنال أمره واجتناب نهيهِ.

وقوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾، أي: الذين يصدقون بما غاب عنهم، مما أخبر الله به من أمور الآخرة والقدر وغير ذلك. قال أبو العالية: يؤمنون بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وجنته وناره، ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيبٌ كله. وعن أبي جمعة رضي الله عنه قال: /تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال: يا رسول الله هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك قال: نعم قومٌ من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني^(٣).

(١) سورة فصلت: الآية ٤٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

(٣) أخرجه أحمد (١٠٦/٤)، والطبراني (٢٢/٤ - ٢٣)، وأبو يعلى (٢٢٢/٢)، والحاكم

(٨٥/٤)، وصححه ووافقه الذهبي - هو كما قال.

وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، أي: يديمونها ويحافظون عليها في مواقيتها، بحدودها وأركانها وهيأتها، والمراد بها الصلوات الخمس. قال ابن عباس: إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود، والتلاوة والخشوع والإقبال عليه فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، أي: في جميع ما يلزمهم من الزكاة وغيرها. قال قتادة: هذه الأموال عَوَارٍ وودائع عندك يا ابن آدم، يوشك أن تفارقها.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ قال ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، أي: يصدقون بما جئت به من الله، وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم ولا يجحدون ما جاءوهم به من ربهم ﴿وبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، أي: بالبعث والقيامة، والجنة والنار، والحساب والميزان. قال البيهقي: قوله: ﴿وبِالْآخِرَةِ﴾، أي: بالدار الآخرة. سميت الدنيا دنيا لدنوها من الآخرة، وسميت الآخرة آخرة لتأخرها وكونها بعد الدنيا ﴿هم يوقنون﴾، أي: يستيقنون أنها كائنة.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾، أي: المتصفون بالإيمان وإقام الصلاة والإنفاق مما أعطاهم الله ﴿على هدى من ربهم﴾، أي: على نور وبيان وبصيرة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، أي: الناجون الفائزون، فازوا بالجنة ونجوا من النار.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ

نُذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ .

يقول تعالى: إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، سواء عليهم إنذارك وعدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به، كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾^(١). قال البغوي^(٢): «والكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، وكفر جحود، وكفر عناد، وكفر نفاق».

وقوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾، أي: طبع الله على قلوبهم، فلا تعي خيراً ولا تفهمه، وعلى سمعهم فلا يسمعون الحق ولا ينتفعون به، كما قال تعالى: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون. ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾. يقول تعالى: وعلى أبصارهم غطاء، فلا يرون الحق، ولهم عذاب عظيم في الآخرة، فالتختم على القلب والسمع، والغشاوة على البصر، كما قال تعالى: ﴿أفأريت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فممن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان

(١) سورة يونس: الآية ٩٦.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٢١/١).

(٣) سورة الأنفال: الآيتان ٢٢ و ٢٣.

(٤) سورة الجاثية: الآية ٢٣.

لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون^(١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستعجب صقل قلبه، وإن زادت زاد حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢)». رواه ابن جرير وغيره. وقال الترمذي: «حسن صحيح». قال مجاهد: الران أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك كله.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَلَذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ^(٤) فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ^(٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ^(٦) إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ^(٧)﴾.

هذه الآيات نزلت في المنافقين: عبد الله بن أبي وأصحابه وغيرهم ممن أظهر كلمة الإسلام واعتقد خلافها. قال ابن كثير^(٣): النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

(٢) سورة المطففين: الآية ١٤، والحديث أخرجه أحمد (٢/٢٩٧)، والترمذي (ح/٣٣٣٤)، والنسائي في «اليوم والليلة» (ح/٤١٨)، وابن ماجه (ح/٢٤٢٤)، وابن جرير (١/٨٧) و (٣٠/٦٢)، والحاكم (٢/٥١٧)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، قلت: وفي سنده محمد بن عجلان وهو صدوق، اختلطت عليه أحاديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٧).

وهو من أكبر الذنوب. قال ابن جريج: المنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه.

وقوله تعالى: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ كذبهم الله تعالى في قولهم: آمنا بالله وباليوم الآخر، لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾، يقول تعالى: يخادعون الله والذين آمنوا بإظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كنفعهم عند بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾، أي: لأن وبال خداعهم راجع عليهم، بفضيحتهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة. ﴿وما يشعرون﴾، أي: لا يدرون أنهم يخدعون أنفسهم، وإن وبال خداعهم يعود عليهم.

وقوله تعالى: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾، يقول تعالى: ﴿في قلوبهم مرض﴾، أي: شك ونفاق. ﴿فزادهم الله مرضاً﴾، أي: شكاً ونفاقاً، كما قال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وأما الذين في قلوبهم مرض

(١) سورة المنافقون: الآيات ١ — ٣.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٦.

فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴿١١﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾، أي: ولهم عذاب مؤلم، موجع، يخلص حده إلى قلوبهم. ﴿بما كانوا يكذبون﴾، أي: بكذبهم في دعواهم بالإيمان بالله وباليوم الآخر.

وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾، يقول تعالى: وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض بالكفر وتعويق الناس عن الإيمان. ﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾، أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ بكونه فساداً. قال أبو العالية: وكان فسادهم ذلك معصية الله، لأنه من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمُ كَمَا ءَامَنَ السَّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وإذا قيل﴾ للمنافقين: آمنوا بمحمد ﷺ وبما جاء به كما آمن الناس، قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون أصحاب محمد ﷺ. ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ الجهال في الدين الضعفاء الرأي. ﴿ولكن لا يعلمون﴾ ذلك.

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٤ و ١٢٥.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾. يقول تعالى: وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: آمنا كإيمانكم مصانعة وتقية، وإذا خلوا انصرفوا ﴿إلى شياطينهم﴾ رؤسائهم، قالوا: ﴿إنا معكم﴾ أي: على دينكم ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ بمحمد وأصحابه نلعب بهم.

قوله تعالى: ﴿يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الله يستهزئ بهم﴾. قال: يسخر بهم للنقمة منهم. وقوله تعالى: ﴿ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾، أي: يملئ لهم في ضلالتهم يترددون متحيرين.

وقوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾. قال ابن عباس: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أخذوا الضلالة وتركوا الهدى. وقوله تعالى: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ أي: ما ربحوا في تجارتهم لأنهم استبدلوا الكفر بالإيمان. ﴿وما كانوا مهتدين﴾. قال قتادة: قد والله رأيتهم، من خرجوا من الهدى إلى الضلال، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة.

قوله عز وجل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ بُعِثَ عَنْهُمْ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌّ يُصْعِقُهُمْ فِي عَذَابِهِمْ مِنَ الصَّوَغِ حَذَرِ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

قال ابن عباس: نزلت في المنافقين؛ يقول: مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة، فاستدفاً ورأى ما حوله، فاتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره، فبقي في ظلمة خائفاً متحيراً، فكذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان أمنوا على أموالهم وأولادهم، وناكحوا المؤمنين، ووارثوهم وقاسموهم الغنائم، فذلك نورهم، فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف.

وقوله تعالى: ﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾، أي: هم صم عن الحق لا يقبلونه، بكم خرس عن الحق لا يقولونه، عمي لا بصائر لهم، فهم لا يرجعون عن الضلالة إلى الحق.

وقوله تعالى: ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾ هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لصنف آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون أخرى. والصيب: المطر، من صاب يصوب، أي نزل من السماء، أي من السحاب. ﴿فيه ظلمات ورعد وبرق﴾. قال ابن عباس: الرعد اسم ملك يسوق السحاب، والبرق: لمعان سوط من نور يزجر به الملك السحاب. وعن أبي كثير قال: كنت عند أبي الخلد إذ جاء رسول ابن عباس بكتاب إليه، فكتب إليه: كثيراً تسألني عن الرعد، فالرعد: الريح، والبرق من الماء. قال السخاوي: إن سبب الرعد اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها إذا ساقها الريح من الارتعاد. قال بعض المفسرين: وإن أطلق الرعد على الملك أيضاً فهو مشترك بين الصوت المذكور والملك الثابت في الأحاديث.

وقوله تعالى: ﴿ويجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾ مخافة الهلاك؛ فهذا المثل ضربه الله للقرآن وصنيع المنافقين معه، فإن من شأنهم

الخوف الشديد والفرح، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، أي: عالم بهم. قال مجاهد: يجمعهم فيعذبهم.

وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾، أي: وقفوا. قال ابن عباس: أي يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا، أي متحيرين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾، أي: لذهب بأسماعهم وأبصارهم الظاهرة، كما ذهب بأسماعهم وأبصارهم الباطنة، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فصار الناس ثلاثة أقسام: مؤمنون وكفار ومنافقون، وكل سيجازى بعمله. قال الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيضاعفه له وله أَجرٌ كَرِيمٌ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَسْعَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرركم الأمانتي حتى جاء أمر الله وعرّكم بالله الغرور فالיום لا يُوْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

(١) سورة المنافقون: الآية ٤.

(٢) سورة الحديد: الآيات ١١ — ١٥.

نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير^(١).

قال ابن مسعود: نورهم يسعى بين أيديهم على قدر أعمالهم، يمرون على الصراط، منهم مَنْ نورُه مثل الجبل، ومنهم مَنْ نورُه مثل النخلة، وأدناهم نوراً مَنْ نورُه في إبهامه يتقد مرة ويُطفأ أخرى. قال ابن عباس: ليس أحد من أهل التوحيد إلّا يعطى نوراً يوم القيامة، فأما المنافق فيطفأ نوره، فالمؤمن مشفق مما يرى من إطفاء نور المنافقين، فهم يقولون: ﴿ربنا أتمم لنا نورنا﴾، والله أعلم.



(١) سورة التحريم: الآية ٨.

الدرس الثالث

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْفُسُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ آمَنَاتًا فَأَخِيذْكُمْ ثُمَّ يُعَيِّتْكُمْ ثُمَّ يُخَيِّكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾.

يقول تعالى: يا أيها الناس وحدوا ربكم الذي خلقكم، وخلق الذين من قبلكم، لعلكم تتقون: لكي تنجوا من العذاب.

وقال بعض المفسرين: لعلكم تتقون، حال من الضمير في اعبدوا؛ كأنه قال: اعبدوا ربكم راجين أن تدخلوا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح، المسترجين لجوار الله تعالى، ولعل في الأصل للترجي، وهي في كلام الله تعالى للتحقيق، وقيل: لعل هنا للأطماع كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾^(١).

وقال ابن جرير^(٢): معنى ذلك، اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم؛ لتتقوه بطاعته، وتوحيده، وإفراده بالربوبية والعبادة. وقال ابن عباس: كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(١) سورة التحريم: الآية ٨.

(٢) انظر «جامع البيان» (١/١٦١).

يقول تعالى: اعبدوا ربكم خالقكم، وخالق من قبلكم، «الذي جعل لكم الأرض» فراشاً، أي: بساطاً، «والسماء بناءً» ﴿سقفاً مرفوعاً﴾، «وأنزل من السماء»، أي: من السحاب، «ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم» طعاماً لكم وعلفاً لدوابكم، «فلا تجعلوا لله أنداداً»، أي: أمثالاً تعبدونها كعبادة الله، وأنتم تعلمون أنه واحد لا خالق معه. قال ابن عباس: فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون، أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه رسول الله ﷺ من التوحيد، هو الحق الذي لا شك فيه.

قال ابن كثير^(١): الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

يقول تعالى: وإن كنتم في ريب، أي: شك مما نزلنا على عبدنا محمد ﷺ فأتوا بسورة من مثله، أي: مثل القرآن، وأدعوا شهداءكم واستعينوا بالهتكم التي تعبدونها من دون الله إن كنتم صادقين، أن محمداً تقوله من تلقاء نفسه. كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افتراه

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٥٧).

(٢) سورة الطور: الآية ٣٤.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين^(١) ثم تحدّاهم بسورة واحدة فعجزوا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ وَأَعَدْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ يقول تعالى: ﴿فَإِنْ لَنْ تَفْعَلُوا﴾، أي: فيما مضى، ولن تفعلوا أبداً، وهذه معجزة أخرى، ﴿فاتقوا النار﴾، أي: فآمنوا واتركوا المعاصي لتنجوا من النار، ﴿التي وقودها الناس والحجارة﴾. قال ابن عباس يعني حجارة الكبريت؛ لأنها أكثر التهاباً، «أعدت» هيئت، للكافرين الذين هم أهلها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾^(٣) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «سمعنا وجبة فقلنا: ما هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: هذا حجر ألقي به من شفير جهنم منذ سبعين سنة، الآن وصل إلى قعرها»^(٤) رواه مسلم.

قوله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

لما ذكر تعالى ما أعدّه لأعدائه الكافرين عطف بذكر حال أوليائه المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله ﴿وعملوا الصالحات﴾ من الأفعال والأقوال. قال معاذ: العمل الصالح الذي فيه أربعة

(١) سورة هود: الآية ١٣.

(٢) سورة الجن: الآية ١٥.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٩٨.

(٤) أخرجه مسلم (ح/٢٨٤٤).

أشياء: العلم، والنية، والصبر والإخلاص، ﴿أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ جمع جنة والجنة البستان الذي فيه أشجار مثمرة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: من تحت أشجارها، ومساكنها. وفي الحديث: «إِنَّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَجْرِي فِي غَيْرِ أَحْدُودٍ»^(١) ﴿كُلَّمَا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ قال ابن عباس وغيره: إنهم أتوا بالثمرة في الجنة فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل الدنيا. وقال عكرمة: معناه، مثل الذي كان بالأمس. وقال مجاهد: يقولون: ما أشبهه به، وأتوا به متشابهاً. قال ابن عباس وغيره: متشابهاً في الألوان مختلفاً في الطعوم. وقال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الجنة إلاّ الأسماء. وقال يحيى بن أبي كثير: عشب الجنة الزعفران، وكثبانها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفواكه فيأكلونها، ثم يؤتون بمثلها فيقول لهم أهل الجنة: هذا الذي آتيتونا آنفاً؟ فتقول لهم الولدان: كلوا، فاللون واحد والطعم مختلف. وهو قول الله تعالى: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾، أي: من الحور والآدميات ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾، أي: من الغائط والبول، والحيض والنفاس، والبصاق والمخاط، والمنى والولد، وكل قدر. قال الحسن: هن عجائزكم الغمص العمش، طهرن من قدرات الدنيا. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تدخل الجنة يوم القيامة صورة وجوههم مثل صورة القمر ليلة البدر، والزمرة الثانية على لون أحسن الكواكب في السماء لكل رجل منهم زوجتان، على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ سوقهن دون لحومها ودمائها وحللها»^(٢).

(١) ليس بحديث، إنما هو من قول مسروق: أخرجه ابن أبي شيبة (٩٧/١٣)، وابن قتيبة في «غريب الحديث» (٥٢٢/٢)، والطبري (١٧٠/١)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٦٧/٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٦/٣) الترمذي (ح/٢٥٢٢ و ٢٥٣٥)، وقال: «صحيح»، وابن =

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، أي: دائمون لا يموتون فيها ولا يخرجون منها. وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل من مشمر^(١) للجنة؟ وأن الجنة لا خطر لها، وهي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمره نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة في محلة عالية بهية. قالوا: نعم يا رسول الله، نحن المشمرون^(٢) لها. قال: قولوا إن شاء الله. قال القوم: إن شاء الله»^(٣).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قال قتادة: إن الله لا يستحي أن يذكر شيئاً ما قل أو كثر، وإن الله

= أبي شيبة (١٢٠/١٣)، والبيهقي من «شرح السنّة» (ج/٤٣٧٣) كلهم عن طريق عطية - ما عدا أحمد فعنده «عطاء» - به. وعطية: هو العوفي ضعيف؛ لكنه لم يتفرّد به، وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة، وابن مسعود رضي الله عنهم، فهو صحيح.

- (١) في (الأصل): «مشمر» بالثاء وهو خطأ، والتصويب من كتب الحديث.
- (٢) في (الأصل): «المشمرون»، وهو خطأ، والتصويب من كتب الحديث.
- (٣) أخرجه البخاري في «الكبير» (٢/٢٣٦) وابن ماجه (ح/٤٣٣٢)، والطبراني (٤/٣٨٨)، وابن حبان - كما في الإحسان - (٧٣٣٧)، وسنده ضعيف.

حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت، قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فُوقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد والقرآن ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ يعني المثل هو ﴿الْحَقُّ﴾ الصدق ﴿مَنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا﴾، أي: شيء ﴿أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا﴾ المثل ﴿مَثَلًا﴾ وعن ابن عباس وغيره: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين، يعني قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ وقوله ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال. فأنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى ﴿هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يَضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أجابهم الله في قولهم: ماذا أراد الله بهذا مثلاً، فقال: يضل به كثيراً من الكفار، وذلك أنهم يكذبونه فيزدادون ضلالاً، ويهدي به كثيراً من المؤمنين، فيصدقونه فيزيدهم هدى إلى هداهم، وإيماناً إلى إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾^(١) وكذلك قال ههنا ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يَضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ قال ابن عباس: يعني المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ هذا وصف من الله تعالى للفاستين المذكورين ههنا بأنهم الذين ينقضون، أي: يخالفون ويتركون عهد الله،

(١) سورة المدثر: الآية ٣١.

أمر الله، الذي عهد إليهم في كتبه وعلى السنة رسله من بعد ميثاقه توكيده، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل من الأرحام وغيرها، ويفسدون في الأرض بالكفر والظلم والمعاصي أولئك هم الخاسرون بأعياضهم الفساد عن الصلاح والعقاب عن الثواب. كما قال تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

يقول تعالى: كيف تكفرون بالله وتعبدون معه غيره! وكنتم أمواتاً في أصلاب آبائكم، فأحياكم، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم، ثم يحييكم للبعث، ثم إليه ترجعون، فيجازيكم بأعمالكم. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾^(٢). وكقوله تعالى: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم﴾ يقول تعالى: هو الله ربكم الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً؛ لكي تتفعدوا، فاعبدوه وحده لا شريك له. كما قال تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾^(٤).

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٥.

(٢) سورة غافر: الآية ١١.

(٣) سورة الجاثية: الآية ٢٦.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس وغيره: أي ارتفع. ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾: خلقهن مستويات لا فطور فيها، ولا صدوع، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. فإن بالعلم يصح الخلق، ويحكم الفعل.

قال البغوي^(١): قرأ ابن جعفر، وأبو عمرو، والكسائي، وقالون، «وهو، وهي» بسكون الهاء: إذا كان قبل الهاء: واو، أو فاء، أو لام. زاد الكسائي وقالون: «ثم هو». وقالون: أن يملأ هو.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ دِينُ﴾ لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم^(٢)، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ قال: خلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان، فذلك حين يقول ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ قال: بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين، يعني بعضها تحت بعض. والله أعلم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (٣٠/١).

(٢) سورة فصلت: الآيات ٩ - ١٢.

الدرس الرابع

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هٰٓؤُلَآءِ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا ۖ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَتَّخِذُمْ أَتَيْنَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ۖ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ۝٣٤ وَقُلْنَا يَتَّخِذُمْ أَسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّٰلِمِينَ ۝٣٥ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦ فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝٣٧ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَابُ النَّآرِ هُمْ فِيهَا خٰلِدُونَ ۝٣٩ ﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

يقول تعالى: واذكر يا محمد: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾. ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، كما فعل الجن؟ ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نشني عليك ونترهك عما لا يليق بعظمتك وجلالك.

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. قال قتادة: فكان في علم الله، أنه سيكون في تلك الخليفة أنبياء ورسول وقوم صالحون وساكنو الجنة. وقال ابن عباس: إن أول من سكن الأرض الجن، فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء، وقتل بعضهم بعضاً، قال: فبعث الله إليهم إبليس، فقتلهم إبليس ومن معه، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، ثم خلق آدم فأسكنه إياها، فلذلك قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. وقال عبد الله بن عمر: وكان الجن بنو الجان في الأرض قبل أن يخلق آدم بألفي سنة، فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء فيها، فبعث الله جنداً من الملائكة، فضربوهم حتى ألحقوا بجزائر البحور، فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وقال ابن عباس: يقول: إني قد أطلعت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كبره واغتراره.

قوله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْني أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ .

قال ابن عباس: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾، قال: علمه أسماء ولده إنساناً إنساناً والدواب، فقيل: هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس.

وقال أيضاً: هي هذه الأسماء التي يتعارف الناس بها: إنسان، ودواب، وسماء، وأرض، وسهل، وبحر، وخيل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم، وغيرها. وقوله تعالى: ﴿ثم عرضهم﴾، أي: المسميات ﴿على الملائكة﴾ فقال أنبئوني ﴿بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ أني لا أخلق خلقاً إلا وكنتم أفضل وأعلم منه. ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم﴾ بخلقك ﴿الحكيم﴾ في أمرك. ﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ فسمى آدم كل شيء ﴿فلما أنبأهم﴾، قال الله تعالى: ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض﴾ الظاهر والخفي ما كان وما يكون، كما قال تعالى: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾^(١).

﴿وأعلم ما تبذرون وما كنتم تكتمون﴾. قال ابن عباس: مرَّ إبليس على جسد آدم وهو ملقى بين مكة والطائف لا روح فيه، فقال: لأمر ما خلق هذا! ثم دخل في فيه وخرج من دبره، وقال: إنه خلق لا يتماسك؛ لأنه أجوف. ثم قال للملائكة الذين معه: رأيتم إن فضل هذا عليكم، وأمرتم بطاعته، ماذا تصنعون؟ قالوا: نطيع أمر ربنا. فقال إبليس في نفسه: والله لئن سلطت عليه

(١) سورة طه: الآية ٧.

لأهلكته، ولئن سلط عليّ لأعينه، فقال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمَ مَا تَبْدُونَ﴾، يعني ما يديه الملائكة من الطاعة ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، يعني ما يكتمه إبليس من المعصية.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

هذه كرامة عظيمة أيضاً لآدم وذريته، حيث أمر الله الملائكة أن يسجدوا له، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، أي: سجود تعظيم وتحية، كما سجد إخوة يوسف له، لا سجود عبادة، وقد كانت الأمم السالفة تفعل ذلك بدل التسليم، وحرّم ذلك في شريعتنا فسجدوا طاعة لله، وتعظيماً لآدم، إلّا إبليس أبى واستكبر عن السجود لآدم، وكان من الكافرين في سابق علم الله. قال قتادة: حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا ناري وهذا طيني. وكان بدء الذنوب الكبّر. استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام.

قوله عز وجل: ﴿وَقُلْنَا يَتَّخِذُ مَكَانَهُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

قال ابن إسحاق^(١): لما فرغ الله من معاتبة إبليس أقبل على آدم، وعلمه الأسماء كلها، فقال: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. قال: ثم أُلْقِيَتِ السُّنَّةُ عَلَى آدَمَ - فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة، وغيرهم من أهل العلم، عن ابن عباس وغيره - ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر، ولأم مكانه لحماً، وآدم نائم لم يهتّب من نومه، حتى خلق الله

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٧٩).

من ضلعه تلك زوجته حواء، فسواها امرأة ليسكن إليها، فلما كُشف عنه السُّنة، وهب من نومه رآها امرأة إلى جنبه، فقال - فيما يزعمون، والله أعلم - : لحمي ودمي وزوجتي. فسكن إليها، فلما زوجه الله وجعل له سكناً من نفسه، قال له قبلاً: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ (١). انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وكلا منها رغداً﴾، أي: واسعاً كثيراً ﴿حيث شتما﴾ كيف شتما، ومتى شتما، وأين شتما ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ أنفسكما بالمعصية.

قوله عز وجل: ﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٣٦).

قال البغوي^(١): ﴿فَازْلَهُمَا﴾ استزل الشيطان آدم وحواء أي دعاهما إلى الزلة. وقوله تعالى: ﴿عنها﴾: أي عن الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، أي: من اللباس، والمتمزل الرحب، والرزق الهني، والراحة، وعن أبي بن كعب مرفوعاً: «إن الله خلق آدم رجلاً طويلاً كثير شعر الرأس، كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فأخذت شعره شجرة فنازعها، فناداه الرحمن: يا آدم مني تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب لا، ولكن استحياء».

وفي رواية: «لما ذاق آدم من الشجرة فرّ هارباً، فتعلقت شجرة بشعره، فنودي: يا آدم أفراراً مني؟ قال: بل حياء منك. قال: يا آدم اخرج من جواربي، فبعزتي لا يساكنني فيها من عصاني، ولو خلقت مثلك ملء الأرض خلقاً، ثم

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٤).

عصوني لأسكنتهم دار العاصين»^(١) رواه ابن أبي حاتم.

﴿وقلنا اهبطوا﴾ انزلوا إلى الأرض^(٢) ﴿بعضكم لبعض عدو﴾.

قال البغوي^(٣): أراد العداوة التي بين ذرية آدم والحية، وبين المؤمنين من ذرية آدم وبين إبليس، قال الله تعالى: ﴿إن الشيطان لكما عدو مبين﴾^(٤)، وقال السدي: قال الله تعالى: ﴿اهبطوا منها جميعاً﴾ فهبطوا ونزل آدم بالهند، ونزل معه الحجر الأسود، وقبضة من ورق الجنة، فبث بالهند فنبت شجرة الطيب، فإنما أصل ما يجاء به من الطيب من الهند من قبضة الورق التي هبط بها آدم، وإنما قبضها أسفاً على الجنة حين أخرج منها. وعن الحسن البصري قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدستميان^(٥) من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان، وعن أبي موسى قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض، علمه صنعة كل شيء، وزوده من أثمار الجنة، فشاركه هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير، وتلك لا تتغير. وروى مسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة. فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها»^(٦).

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ص ٤٨ وابن جرير (١/١٦٠) و (٨/١٤٣)، وابن أبي حاتم كما عزاه له ابن كثير عن أبي بن كعب مرفوعاً، وفيه انقطاع، وأخرجه ابن جرير (٨/١٤٣) موقوفاً على أبي، قال ابن كثير (٢/٢٠٦): «والموقوف أصح إسناداً» قلت: وهو منقطع أيضاً.

(٢) في «هامش الأصل» كتب ما نصه: (والخطاب لآدم وحواء وإبليس، وقوله تعالى في «طه»: ﴿قال اهبطا منها﴾ خطاب لآدم وإبليس وحواء تبع لآدم، والحية إذا صح فيها الخبر تبع لإبليس).

(٣) المصدر السابق (١/٣٤).

(٤) سورة الأعراف: الآية ٢٢.

(٥) في (الأصل): «دستميان»، وهو خطأ، المثبت من تفسير ابن كثير، وانظر «معجم البلدان» (٢/٥١٨).

(٦) أخرجه مسلم (ح/٨٥٤).

قال بعض العارفين: كنا قوماً من أهل الجنة، فسابنا إبليس إلى الدنيا، فليس لنا إلاّ الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التي أخرجنا منها، وقال الشاعر:

يا ناظراً يرنو بعيني راقداً ومشاهداً للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي درج الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت ربك حين أخرج آدمأً منها إلى الدنيا بذنب واحد
وقال بعضهم:

ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم
وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَسْقَرٌ﴾: موضع قرار، ومتاع بلغة مستمتع
﴿إلى حين﴾ إلى انقضاء آجالكم.

قوله عز وجل: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

قال سعيد بن جبير وغيره: الكلمات هي قوله: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾، وقال مجاهد عن عبيد بن عمير أنه قال: قال آدم: يا رب، خطيئتي التي أخطأت شيء كتبت علي قبل أن تخلقني؟ أو شيء ابتدئته من قبل نفسي؟ قال: بل شيء كتبت عليك قبل أن أخلقك. قال: فكما كتبت علي فاغفر لي. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾، وعن ابن عباس ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾. قال: قال آدم عليه السلام: يا رب، ألم تخلقني بيدك؟ قال له: بلى، ونفخت في من روحك؟ قيل له: بلى. قال: أرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم.

وقوله تعالى: ﴿فتاب عليه﴾ تجاوز عنه ﴿إنه هو التواب﴾ على عباده
﴿الرحيم﴾ بخلقه. كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن

السيئات ﴿١﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٢﴾.

قوله عز وجل: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

قال ابن كثير^(٣): يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس، حين أهبطهم من الجنة، والمراد: الذرية، أنه سينزل الكتب، ويبعث الأنبياء والرسل، كما قال أبو العالية: الهدى، الأنبياء، والرسل، والبينات، والبيان ﴿فمن تبع هداي﴾ من أقبل على ما أنزلت به الكتب، وأرسلت به الرسل، ﴿فلا خوف عليهم﴾، أي: فيما يستقبلونه من أمر الآخرة، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يوم القيامة ﴿هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها، ولا يموتون، فيها فتعوذ بالله من حالهم.



(١) سورة الشورى: الآية ٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٠.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٨٢).

الدرس الخامس

﴿يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ يَهْدِكُمْ
وَأِيَّتِي فَأَرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ
وَلَا تَشْتَرُوا بِعَابَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّتِي فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا
الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾
﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَسْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾
وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ
مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَارْهَبُونِ﴾ (٤٠) ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِثْمِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونِ﴾ (٤١) ﴿وَلَا تَلْسُتُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُونُوا الْكَافِرِينَ﴾ (٤٢) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣).

يقول تعالى أمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام ومتابعة محمد ﷺ: يا بني إسرائيل، يا أولاد يعقوب، اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم على أجدادكم وأسلافكم، وقال الحسن: ذكر النعمة شكرها، وقال قتادة: هي النعم التي خصت بها بنو إسرائيل: فلق البحر، وإنجاؤهم من فرعون بإغراقه، وتظليل الغمام عليهم، في التيه، وإنزال المن والسلوى وإنزال التوراة في نعم كثيرة لا تحصى: ﴿وأوفوا بعهدي﴾ بامثال أمري ﴿أوف بعهدكم﴾ بالقبول والثواب^(١)، وقال أبو العالية ﴿وأوفوا بعهدي﴾ قال: عهده إلى عباده دين الإسلام، وأن يتبعوه، وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أوف بعهدكم﴾، قال: أرضى عنكم، وأدخلكم الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وإياي فارهبون﴾، أي: خافون، قال ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿وإياي فارهبون﴾، أي: أن أنزل بكم ما أنزل بمن كان قبلكم من آبائكم

(١) في هامش الأصل كتب ما نصه: (قال الكلبي: عهد الله إلى بني إسرائيل على لسان موسى، إني باعث في بني إسماعيل نبياً آمياً، فمن اتبعه وصدق به بالنور الذي يأتي به غفرت له ذنبه، وأدخلته الجنة، وجعلت له أجرين اثنين، وهو قوله: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس﴾ يعني أمر محمد ﷺ).

من النقمات التي قد عرفتم من المسخ وغيره، وقوله تعالى: ﴿وَأَمْنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاي فَاتَّقُونَ﴾، يقول تعالى: ﴿وَأَمْنُوا بِمَا أَنزَلْتُ﴾، يعني القرآن. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾، أي: موافقًا لِمَا مَعَكُمْ من التوراة في التوحيد، والنبوة والأخبار، ونعت النبي ﷺ، وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ، أي: القرآن فتتابعكم اليهود على ذلك، قال أبو العالية: يقول: وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ مَنْ كَفَرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ يعني من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعكم بمبعثه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، يقول: وَلَا تَعْتَاذُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِآيَاتِي وَتَصْدِيقِ رَسُولِي بِالدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا؛ فَإِنَّهَا قَلِيلَةٌ فَانِيَةٌ، قَالَ الْبَغَوِيُّ^(١): وَذَلِكَ أَنَّ رُؤَسَاءَ الْيَهُودِ وَعُلَمَاءَهُمْ كَانَتْ لَهُمْ مَأْكَلَةٌ يَصْنَعُونَهَا مِنْ سَفَلَتِهِمْ وَجَهَالَتِهِمْ، يَأْخُذُونَ كُلَّ عَامٍ مِنْهُمْ شَيْئًا مَعْلُومًا مِنْ ذُرُوعِهِمْ وَضُرُوعِهِمْ وَنَقُودِهِمْ، فَخَافُوا إِنْ هُمْ بَيَّنُّوا صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَابَعُوهُ أَنَّ تَفَوُّتَهُمْ تِلْكَ الْمَأْكَلَةَ، فَغَيَّرُوا نَعْتَهُ وَكَتَمُوا اسْمَهُ فَاخْتَارُوا الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاي فَاتَّقُونَ﴾، أي: فاخشون، لا فوات الرياسة، قال طلق بن حبيب: التقوى أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ، رَجَاءَ رَحْمَةِ اللَّهِ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، وَأَنْ تَتْرَكَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، تَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾، أي: لَا تَخْلُطُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَالصَّدَقَ بِالْكَذِبِ، وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ، قَالَ مِقَاتِلٌ: إِنَّ الْيَهُودَ أَقْرَأُ بَعْضُ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَكَتَمُوا بَعْضَهَا لِيَصْدُقُوا فِي ذَلِكَ.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، قال

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٦).

البغوي^(١): ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، يعني الصلوات الخمس بمواقيتها، وحدودها: ﴿وَاتُوا الزَّكَاةَ﴾، وأدوا زكاة أموالكم المفروضة ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، أي: صلوا مع المصلين محمد ﷺ وأصحابه، وذكرها بلفظ الركوع لأن الركوع ركن من أركان الصلاة، قال ابن كثير^(٢): وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة.

قوله عز وجل: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝۴۴﴾ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝۴۵﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَأَنْتُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝۴۶﴾.

قال قتادة: كان بنو إسرائيل يأمرُونَ الناس بطاعة الله، ويتقواه وبالبر، ويخالفون، فعيرهم الله عز وجل، وقال ابن عباس: يقول: أتأمرُونَ الناس بالدخول في دين محمد ﷺ، وغير ذلك مما أمرتم به وتنسون أنفسكم؟ أي تتركون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب؟ ﴿أفلا تعقلون﴾، وهذا كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾^(٣)، وفي الحديث: «مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به، كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه»^(٤).

وفي الحديث الآخر: «مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاهم بمقاريض من نار، قال: قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء أمتك من أهل الدنيا،

(١) المصدر السابق (١/٣٧).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/٨٥).

(٣) سورة هود: الآية ٨٨.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٦/٢ و ١٦٧)، والخطيب في «اقتضاء العلم العمل»

(ص ١٨٢)، وله شاهد من حديث أبي برزة: أخرجه الخطيب في المصدر السابق

(ص ١٨٣)، والحديث صحيح.

ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟^(١). رواه أحمد وغيره، وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أفتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية»^(٢). رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وقوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾، يقول تعالى: واستعينوا على أمور دينكم ودنياكم بالصبر والصلاة. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله.

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى»^(٣). رواه أبو داود، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه نعي إليه أخوه قثم، وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحى عن الطريق، فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما السجود، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾، وقال ابن جريج: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾، قال: إنهما معيتتان على رحمة الله، وقوله تعالى: ﴿وإنها لكبيرة﴾، أي: ثقيلة، ﴿إلا على الخاشعين﴾، أي: المتواضعين، قال مجاهد: المؤمنين حقاً.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٠ و ٢٣١ و ٢٣٩) وفي سنده علي بن زيد بن جدعان: ضعيف، وأخرجه ابن حبان (١/ ١٣٥) وفي سنده المغيرة بن حبيب: منكر الحديث.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٣٢٦٧)، ومسلم (ح/ ١٩٨٩).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨)، وأبو داود (ح/ ١٣١٩)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٢٣١)، وهو صحيح.

وقوله تعالى: ﴿الذين يظنون﴾ يستيقنون ﴿أنهم ملاقوا ربهم﴾: محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه، ﴿وأنهم إليه راجعون﴾ فيجزئهم بأعمالهم؛ والظن من الأضداد، يكون شكاً، ويكون يقيناً، كما قال تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾، قال مجاهد: كل ظن في القرآن يقين، أي: ظننت وظنوا، يعني قوله تعالى: ﴿إني ظننت أني ملاق حسابه﴾^(١)، ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾^(٢) ونحو ذلك، وفي الصحيح: «أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذكرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. فيقول الله تعالى: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: اليوم أنساك كما نسيتني»^(٣). والله أعلم.



(١) سورة الحاقة: الآية ٢٠.

(٢) سورة الكهف: الآية ٥٣.

(٣) أخرجه مسلم (ح/٢٩٦٨).

الدرس السادس

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾
وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٨﴾ وَإِذْ بَخَّيْنَاكُمْ مِن ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ
أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ
الْبَحْرَ فَأَبْجَيْتَكُمُ وَأَغْرَقْنَا ءَالِ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظَّارُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ
لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِذْ
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِلَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ
بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴿٢٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ
وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِثْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَظَلَّلْنَا
عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢٧﴾﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

يذكر تعالى بني إسرائيل بنعمه على آبائهم، وما كان فضلهم به على سائر الأمم من أهل زمانهم، من إرسال الرسل منهم، وإنزال الكتب عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَأَنَّا كُنتُمْ عَلَيْهِمْ ظَالِمِينَ﴾ (١). والمراد بقوله تعالى: ﴿وَأَنِي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، أي: عالمي زمانهم، فإن هذه الأمة أفضل منهم، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (٢)، وقال النبي ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله» (٣). رواه أهل السنن. وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾، أي: اخشوا عقاب يوم. ﴿لَا تَجْزِي﴾ لا تقضي نفس عن نفس شيئاً، حقاً لزمها، ولا

(١) سورة المائدة: الآية ٢٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

(٣) أخرجه أحمد (٤/٤٤٧)، والترمذي (ح/٣٠٠١)، وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه (ح/٤٢٨٨) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وسنده حسن.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

ينفع فيه أحدٌ أحدًا، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةً﴾، يعني: من الكافرين، فلا يقبل من كافر شفاعته، ولا تقبل فيه شفاعته، قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُوْخِذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾، أي: فداء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَن لَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤). وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾، أي: لا ناصر لهم ولا مانع يمنعهم من عذاب الله.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْنِبْنَكَمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(٥).

يقول تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم ﴿إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾، أي: أسلافكم وأجدادكم، لأنهم نجوا بنجاتهم من آل فرعون أتباعه وأهل دينه. ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يكلفونكم ويذيقونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أشد العذاب وأسوأه. ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾. قال ابن إسحاق: كان فرعون يعذب بني إسرائيل فيجعلهم خدماً وخولاً، وصنفهم في أعماله: فصنف بينون، وصنف يزرعون له، فهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة من عمله فعليه الجزية،

(١) سورة لقمان: الآية ٣٣.

(٢) سورة فاطر: الآية ١٨.

(٣) سورة المدثر: الآية ٤٨.

(٤) سورة المائدة: الآية ٣٦.

فسامهم، كما قال الله عز وجل: ﴿سوء العذاب﴾. وقال: الذي جعلهم في الأعمال القذرة، وجعل يقتل أبناءهم، ويستحي نساءهم.

وقال ابن عباس: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم خليله، أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، واثتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجلاً معهم الشفار، يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكر إلا ذبحوه، ففعلوا، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، وأن الصغار يذبحون، قال: توشكون أن تفنوا بني إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة ما كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر، فتقتل أبناءهم، ودعوا عاماً، فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية، حتى إذا كان القابل حملت بموسى.

وقوله تعالى: ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾، أي: نعمة عظيمة، حيث أنجاكم منهم. وأصل البلاء الاختبار، وقد يكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وبلوكم بالشر والخير فتنة﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾^(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم يا بني إسرائيل ﴿إِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ من آل فرعون ومن الغرق، وأغرقنا آل فرعون ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ليكون ذلك أشقى لصدوركم، وأبلغ في إهانة عدوكم. قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِرُونَ﴾.

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٦٨.

إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً^(١). قال عمرو بن ميمون: فلما أتى موسى البحر، قال له رجل من أصحابه، يقال له يوشع بن نون: أين أمر ربك؟ قال: أمامك، يشير إلى البحر، فأقحم يوشع فرسه في البحر حتى بلغ الغمر، فذهب به الغمر، ثم رجع، فقال: أين أمر ربك يا موسى؟ فوالله ما كذبت ولا كذبت، فعل ذلك ثلاث مرات. ثم أوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم يقول: مثل الجبل ثم سار موسى ومن معه، وأتبعهم فرعون في طريقهم، حتى إذا تناموا فيه، أطبقه الله عليهم، فلذلك قال: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾^(٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^(٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ^(٥٣).

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم، في عفوي عنكم، لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه، عند انقضاء أمد المواعدة، وكان ذلك بعد إنجائهم من البحر.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: لكي تشكروا عفوي عنكم وصنيعي إليكم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، الكتاب: هو التوراة، والفرقان: ما يفرق بين الحق والباطل. قال أبو العالية قوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، قال: يعني ذا القعدة وعشرًا من ذي الحجة، وذلك حين خلف موسى أصحابه، واستخلف عليهم هارون، فمكث على الطور أربعين ليلة، وأنزل عليه التوراة في الألواح، وكانت الألواح من برد، فقرّبه الرب

(١) سورة يونس: الآية ٩.

إليه نجياً، وكلمه وسمع صرير القلم. وبلغنا أنه لم يحدث حدثاً في الأربعين ليلة، حتى هبط من الطور.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَمُ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ٥٤﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾: الذين عبدوا العجل ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾: خالقكم. قالوا: كيف نتوب؟ قال: ﴿فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. قال ابن عباس: أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل، أن يقتلوا أنفسهم، قال: وأخبر الذين عبدوا العجل، فجلسوا وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فانجلت الظلمة عنهم، وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة. وقال قتادة: أمر القوم بتشديد من الأمر، فقاموا يتناحرون بالشفار، يقتل بعضهم بعضاً، حتى بلغ الله فيهم نعمته، فسقطت الشفار من أيديهم، فأمسك الله عنهم القتل، فجعل لحيتهم توبة، وللمقتول شهادة.

وقوله تعالى: ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ تجاوز عنكم ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ﴾: القابل للتوبة ﴿الرَّحِيمُ﴾: بعبادة المؤمنين.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَمَلَكُكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٦﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾: لن نقرُّ لك ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾: عياناً. قال ابن عباس: علانية. وقال الربيع بن أنس: هم السبعون الذين

اختارهم موسى، فساروا معه، قال: فسمعوا كلاماً، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، قال: فسمعوا صوتاً، فصعقوا، يقول: ماتوا. قال السدي: فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: ربي ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم، وقد أهلكت خيارهم؟ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا، فأوحى الله إلى موسى: أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل، ثم إنه أحياهم فقاموا وعاشوا رجلاً رجلاً، ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوىَ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم، فقال: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي: السحاب، في التيه يقيكم حر الشمس. ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوىَ﴾، قال ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون^(١) إليه فيأكلون منه ما شاءوا. وقال الشعبي^(٢): غسلكم هذا جزء من سبعين جزءاً من المن. وفي الحديث الصحيح: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين». وقال ابن عباس: السلوى طائر يشبه السمّان. وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ واشكروا ولا تكفروا، فخالفوا فحل بهم عقابه. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾^(٣).

• • •

(١) في (الأصل): «يفدون»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن كثير.

(٢) في (الأصل): «الشعيب»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن كثير.

(٣) سورة طه: الآيتان ٨١ و ٨٢.

الدرس السابع

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ
سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ قَبَدَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ
فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ
رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦١﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَبْنَؤُا لَنَا نَصِيرٌ عَلَى
طَعَامٍ وَاجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا
وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا
مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ
مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ
بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى
وَالصَّبِيَّةَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ
خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ ذَلِكَ
فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ
اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِرِينَ ﴿٦٦﴾ فَعَمَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَآبَيْنَ
يَدِيهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْبَلَدَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ .

قال ابن كثير^(١): يقول تعالى لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد، ودخولهم الأرض المقدسة، لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام، فأمرُوا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل، وقاتل من فيها من العمالق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا، واستحسروا، فرماهم الله في التيه عقوبة لهم، كما ذكره تعالى في سورة المائدة. ولهذا كان أصح القولين: أن هذه البلدة هي بيت المقدس^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، أي: هنيئاً واسعاً. ﴿وادخلوا الباب سجداً﴾: شكراً لله تعالى. قال ابن عباس في قوله: ﴿وادخلوا الباب سجداً﴾ قال: ركعاً من باب صغير. وقال مجاهد: هو باب الحطة، من باب إيلياء بيت المقدس.

﴿وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم﴾ قال ابن عباس: مغفرة، استغفروا. وقال

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٩٨).

(٢) في هامش الأصل كتب ما نصه: (المراد قال: وهذا كاف لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة، مع يوشع بن نون عليه السلام، وفتح الله عليهم عشية جمعة وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً، حتى أمكن الفتح، ولما فتحوها أمرُوا أن يدخلوا الباب — باب البلد — ﴿سجداً﴾، أي: شكراً لله على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، ورد بلدهم عليهم، وإنقاذهم من التيه والضلال).

قتادة: حطّ عنا خطايانا، أمروا بالاستغفار. ﴿وستزيد المحسنين﴾ ثواباً من فضلنا.

وقوله تعالى: ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾ روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً، وقولوا: حطة، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعيرة»^(١). أخرجه البخاري وغيره، وفي حديث البراء: «قيل لهم: ادخلوا الباب سجداً، قال: ركعاً وقولوا: حطة، أي: مغفرة فدخلوا على أستاههم، وجعلوا يقولون: حنطة حمراء وفيها شعيرة. فأنزل الله: ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾»^(٢).

وقال البغوي^(٣): وذلك أنهم بدلوا قول: الحطة بالحنطة، فقالوا بلسانهم: حطناً سمقناً^(٤)، أي: حنطة حمراء، استخفافاً بأمر الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾، أي: يعصون ويخرجون عن أمر الله. قال ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرجز، يعني به العذاب. وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم، ﴿إذ استسقى موسى﴾، أي: طلب

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٤٧٩).

(٢) هو موقوف عن البراء - رضي الله عنه - وليس بمرفوع.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (١/٤٤).

(٤) في تفسير البغوي: «سمقناً»، وفي تفسير ابن كثير: «هطاً سمعناً أذبة مزباً»، وفي «فتح الباري» (٨/١٥٥): «هطي سمقاً»، ولعله هو الصواب.

السقيا لقومه حين عطشوا في التيه ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾، قال ابن عباس: وجعل بين ظهرائهم حجر مربع، وأمر موسى عليه السلام، فضربه بعصاه، ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾، في كل ناحية منه ثلاث عيون، وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها، لا يرتحلون من منقله إلاّ وجدوا ذلك معهم.

وقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾، أي: كلوا من المن والسلوى، واشربوا من الماء، فهذا كله من رزق الله الذي يأتيكم بلا مشقة.

﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾، العثي: أشد الفساد. قال السدي: لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى عليه السلام: كيف لنا بما ههنا، أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن، فكان ينزل على شجر الزنجبيل. والسلوى وهو طائر يشبه السمّان أكبر منه، فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سميناً ذبحه وإلاّ أرسله، فإذا سمن أتاها، فقالوا هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر ﴿فانفجرت منه اثنتا عشر عينا﴾ فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب فأين الظل؟ فظلل عليهم الغمام، فقالوا: هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان، ولا يتخرق لهم ثوب، فذلك قوله تعالى: ﴿وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى﴾، وقوله: ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْشِي عَلَى طَعَامٍ وَجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا﴾ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَاطُوا مَضَرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ

كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى: واذكروا إذ قلتم ﴿يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾، أي: مأكّل واحد لا يتبدل: ﴿فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾.

اختلف المفسرون في قوله تعالى ﴿وفومها﴾ ف قيل: الثوم، وقيل: الحنطة، وقيل: كل حب يختبز، وقيل: الحبوب التي تؤكل كلها فوم، والله أعلم.

قال لهم موسى عليه السلام: ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى: أحسن، وأراد بالذي هو خير﴾: أشرف وأفضل ﴿اهبطوا مصرًا﴾ من الأمصار، ﴿فإن لكم ما سألتهم﴾: فأي بلد دخلتموها وجدتم ذلك فيها.

وقوله تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ يقول تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾، أي: وضعت عليهم وألزموها شرعاً وقدرًا، أي: لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الجزية.

وقوله تعالى: ﴿وباءوا بغضب من الله﴾، قال أبو عبيدة: واحتملوا وأقروا به. وقال الضحاك: استحقوا الغضب من الله.

﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾، أي: فيجاوزون أمر الله ويرتكبون محارمه، فغضب الله عليهم.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مِنْ ءَامَنَ

يَا اللَّهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ .

يخبر تعالى أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع، فإن الله لا يضيع عمله، كما في حديث سلمان. سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم، فذكرت في صلاتهم وعبادتهم، فتزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم. قال مجاهد: ﴿الصَّابِئُونَ﴾ قوم بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دين. وسئل وهب بن منبه عن الصابئين فقال: الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها، ولم يحدث كفراً.

وقال السدي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، الآية، نزلت في أصحاب سلمان الفارسي: «بينما هو يحدث النبي ﷺ، إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصلّون ويصومون، ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستبعث نبياً، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له نبي الله ﷺ: يا سلمان هم من أهل النار. فاشتد ذلك على سلمان، فأنزل الله هذه الآية».

فكان إيمان اليهود، أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى عليه السلام حتى جاء عيسى، فلما جاء عيسى، كان من تمسك بالتوراة، وأخذ بسنة موسى فلم يدعها، ولم يتبع عيسى، كان هالكاً وإيمان النصارى، أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى عليه السلام، كان مؤمناً مقبولاً منه، حتى جاء محمد ﷺ، فمن لم يتبع محمداً ﷺ منهم، ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكاً، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، الآية، قال: فأنزل الله بعد ذلك: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أي: لا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يتركونه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ^(١٤).

يقول تعالى: واذكروا يا معشر يهود، ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾: عهدكم، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾: الجبل، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾: بجدة ومواظبة، ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾: ادرسوه واعملوا به، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: لكي تنجوا من الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢). قال السدي: فلما أبوا أن يسجدوا، أمر الله الجبل أن يقع عليهم، فنظروا إليه وقد غشيهم، فسقطوا سجداً، فسجدوا على شق، ونظروا بالشق الآخر، فرحمهم الله، فكشف عنهم، فقالوا: والله ما سجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم، فهم يسجدون كذلك، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.

وقال ابن عباس: ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعدما سكنت عنه الغضب، وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم وأبوا أن يقرّوا بها، حتى نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة،

(١) سورة فصلت: الآيتان ٣٠ و ٣١.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧١.

قال: رفعت الملائكة فوق رؤوسهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: أعرضتم من بعد ما قبلتم التوراة، ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾: بتأخير العذاب عنكم، وإرسال النبيين إليكم، ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بتعجيل عقوبتكم على نقضكم الميثاق.

قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ فجعلناهم نكلاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين ﴿٦٦﴾.

يقول تعالى: ﴿ولقد علمتم﴾ يا معشر اليهود ﴿الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ حين عصوا أمر الله، فمسخهم وأخزاهم.

قال البغوي^(١): كانوا في زمن داود عليه السلام بأرض يقال لها أيلة.

قال ابن كثير^(٢): يقول تعالى: ﴿ولقد علمتم﴾ يا معشر اليهود ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله، وخالفوا عهده وميثاقه، فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت، والقيام بأمره، إذ كان مشروعاً لهم، فتحيلوا على اصطیاد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوا لها من الحبال والبرك، قبل يوم السبت، على عاداتها في الكثرة، فنشبت بتلك الحبال والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه شيء بالإناسي، في الشكل الظاهر، وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم، لما كانت مشابهة للحق في الظاهر، ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم. وهذه القصة مبسطة في سورة الأعراف، حيث يقول تعالى: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤٨/١).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٠٤/١).

شُرْعاً ويوم لا يسبّتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون^(١). القصة بكمالها.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾. قال ابن عباس: يعني ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ بما أحلّلنا بها من العقوبة، عبرة لما حولها من القرى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِ لَّعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: الذين من بعدهم إلى يوم القيامة. والله المستعان.



(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٣.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٧.

الدرس الثامن

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَحِدُّنَا هَذَا هُزُواً
 قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ
 يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٦٨﴾
 قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ
 لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا
 وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا
 تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيبَةَ فِيهَا قَالُوا أَلَتْنَا جَنَّتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا
 يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا
 أَصْرَبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ
 قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
 مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةٍ
 اللَّهُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُؤًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

يقول تعالى: واذكروا ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾. قال أبو العالية: كان رجل من بني إسرائيل، وكان غنياً، ولم يكن له ولد، وكان له قريب، وكان وارثه، فقتله ليرثه، ثم ألقاه على مجمع الطريق، وأتى موسى عليه السلام، فقال له: إنه قريبي قتل، وإني إلى أمر عظيم، وإني لا أجد أحداً يبين لي من قتله غيرك يا نبي الله. قال: فنادى موسى في الناس، فقال: أنشد الله، من كان عنده من هذا علم إلا يبيته لنا. فلم يكن عندهم علم، فأقبل القاتل على موسى عليه السلام، فقال له: أنت نبي الله، فسل لنا ربك أن يبين لنا. فسأل ربه، فأوحى الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فعجبوا من ذلك، فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذْنَا هُزُؤًا؟﴾ قال أعود بالله أن أكون من الجاهلين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض، يعني: لا هرمة ولا بكر، يعني: ولا صغيرة ﴿عوان بين ذلك﴾، أي: نصف بين البكر والهرمة. ﴿فافعلوا ما تؤمرون قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾، أي: صاف لونها، ﴿تسر الناظرين﴾، أي: تعجب الناظرين. ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض﴾، أي: لم يذلها العمل. ﴿ولا تسقي الحرت﴾، يعني وليست بذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرت، يعني ولا تعمل في الحرت. ﴿مسلمة﴾، يعني مسلمة من العيوب. ﴿لا شية فيها﴾ يقول: لا بياض فيها.

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾. قال: ولو أن القوم حين أمروا بذبح بقرة، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها، لكانت إياها، ولكن شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، ولولا أن القوم استثنوا فقالوا: ﴿وإنا إن شاء الله لَمُهتدون﴾، لما هُتدوا إليها أبداً، فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التي نعت لهم، إلاً عند عجوز، وعندها يتامى وهي القيمة عليهم، فلما علمت أنه لا يزكو لهم غيرها، أضعفت عليهم الثمن، فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلاً عند فلانة، وأنها سألت أضعاف ثمنها، فقال موسى: إن الله قد خفف عليكم فشددتم على أنفسكم فأعطوها رضاها وحكمها، ففعلوا، واشتروها، فذبحوها، فأمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظماً منها فيضربوا به القاتل، ففعلوا، فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله، ثم عاد ميتاً كما كان، فأخذ قاتله، وهو الذي كان أتى موسى عليه السلام فشكا إليه، فقتله الله على أسوأ عمله.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا آذِغْ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

يسأله عن سننها فأخبرهم أنها نصف بين الصغيرة والهرمة.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا آذِغْ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾.

قال ابن عباس: ﴿فاقع لونها﴾ شديد الصفرة تكاد من صفرتها تبيض.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا آذِغْ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهتدون﴾ ﴿٧١﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا الْفَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

قال مجاهد: لا شية فيها: لا يياض ولا سواد. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾. قال ابن عباس: كادوا ألا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا ألا يذبحوها.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٧٦) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُعَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦).

قال مجاهد: ﴿فادارأتم فيها﴾ اختلفتم. وقال ابن جريج: قال بعضهم: أنتم قتلتموه. وقال آخرون: بل أنتم قتلتموه. وقوله تعالى: ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾، عن المسيب بن رافع، قال: ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك في كلام الله ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾، أي: فضرِبوه فحيى، وقال: قتلني فلان، ثم مات. وفي ذلك دليل على كمال قدرته، قال الله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَلْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُوقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٦).

يقول تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾ كله ﴿فهى كالحجارة﴾ التي لما تلين أبداً ﴿أو أشد قسوة﴾، أي: بل هي أشد قسوة من الحجارة. ﴿وإن من

(١) سورة لقمان: الآية ٢٨.

الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ﴿ وإن لم يكن جارياً، ﴿ وإن منها لما يهبط ﴾ ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله ﴿ من خشية الله ﴾ وقلوبكم لا تلين ولا تخشع.

وقوله تعالى: ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾: وعيد وتهديد، وقد قال الله تعالى: ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾^(١). وروى البزار عن أنس مرفوعاً: «أربع من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا»^(٢)، والله المستعان.



(١) سورة الحديد: الآية ١٦.

(٢) أخرجه البزار — كما في مختصر زوائد البزار — (٤٥٦/٢)، وابن عدي في الكامل (١٩٣/٢)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢٤٦/١) وأيضاً في الحلية (١٧٥/٦)، بسند ضعيف.

الدرس التاسع

﴿ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٧٨) قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُبُونَ ﴾ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتُحَدِّثُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٨١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٨٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءَ تَقْسِلُونَ أَنْفُسَكُمْ

وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِبْرِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْآثِمِ وَالْمُذْنِبِ وَإِن يَأْتُواكُم بِخَبَرٍ تُقَدِّمُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْقُقُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥).

يقول تعالى: ﴿أفنتعمون﴾ أيها المؤمنون، ﴿أن يؤمنوا لكم﴾ يصدقوكم ويطيعوكم، ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ أنهم كاذبون، ومع هذا يخالفونه عمداً، كما قال تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه﴾^(١). قال ابن عباس: ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله﴾ هم الذين سألوا موسى رؤية ربهم، فأخذتهم الصاعقة. وقال السدي: هي التوراة حرفوها.

قال ابن كثير^(٢): وهذا الذي ذكره السدي أعم^(٣) مما ذكره ابن عباس.

وقال ابن زيد: ﴿يسمعون كلام الله ثم يحرفونه﴾. قال: التوراة التي أنزلها الله عليهم، يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حراماً، والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقاً؛ إذا جاءهم المحق برشوة، أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة، أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محق، وإذا جاءهم أحد يسألهم شيئاً، ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء، أمروه بالحق، فقال الله لهم: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾^(٤).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَنُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُم لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا

(١) سورة المائدة: الآية ١٣.

(٢) انظر تفسيره (١١٥/١).

(٣) في (الأصل): «أهم» والمثبت من «تفسير ابن كثير»، وهو الصواب.

(٤) سورة البقرة: الآية ٤٤.

تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّوكم وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ .

قال ابن عباس: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾، أي: أن صاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة. ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا﴾: لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم، فأنزل الله: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم﴾، أي: تقرّون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا، اجحدوه ولا تقرّوا به.

يقول الله تعالى: ﴿أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾. وقال السدي: هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا. وقال أبو العالية: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾، يعني بما أنزل عليكم في كتابكم من بعث محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون﴾، يقول تعالى: ﴿ومنهم أميون﴾، أي: من اليهود أميون، لا يحسنون القراءة والكتابة. قال مجاهد: الأمي: الذي لا يحسن الكتابة.

وقوله تعالى: ﴿ولا يعلمون الكتاب إلا أمانى﴾، قال ابن عباس: يعني غير عارفين بمعاني الكتاب. ﴿وإن هم إلا يظنون﴾، أي: ولا يدرون ما فيه. وقال مجاهد: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى﴾. قال: أناس من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئا، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله.

قوله عز وجل: ﴿قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْتُمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ .

قال الزجاج: ﴿وويل﴾ كلمة تقولها العرب لكل واقع في هلكة. قال ابن كثير^(١): هؤلاء صنف آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل. قال ابن عباس: ﴿فويل لهم﴾، يقول: فالعذاب عليهم من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكتاب، ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ يقول: مما يأكلون به أموال الناس.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وقالوا﴾، أي: اليهود، ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾، قال ابن عباس: اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة، وهي مدة عبادتهم العجل. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: أجمعوا إليّ من كان من اليهود ههنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: فلان. قال: كذبتُم، بل أبوكم فلان. فقالوا: صدقت وبررت. ثم قال لهم: هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبتك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم نخلفونا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسئوا، والله لا نخلفكم فيها أبداً. ثم قال لهم رسول الله ﷺ: هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً؟ فقالوا: نعم. قال: فما حملكم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/١١٧).

على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك^(١). رواه البخاري بنحوه وغيره.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُخَذَتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾، أي: أن لا يعذبكم إلا هذه المدة، فلن يخلف الله عهده؟ قال ابن مسعود: عهداً بالتوحيد. ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: بل تكذبون على الله وتفترون؟ ثم قال: ﴿بَلَى﴾: إثبات لما ذكر من خلود النار. ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، أي: ليس الأمر كما تمنيتم، بل الأمر أنه ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾، يعني: الشرك. ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ مات ولم يتب، ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا. وَمَنْ يَعْمَلْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾^(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه. وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلاً، كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنع القوم، فجعل الرجل ينطلق، فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً، فأنضجوا ما قذفوا فيها»^(٣) رواه الإمام أحمد.

(١) أخرجه أحمد (٤٥١/٢)، البخاري (ح/٣١٦٩).

(٢) سورة النساء: الآيتان ١٢٣ و ١٢٤.

(٣) أخرجه أحمد (٤٠٢/١ - ٤٠٣)، والطيالسي (ص ٥٣)، والشاشي (٢/٢٣٥)، والطبراني في الكبير (١٠/٢٦١)، بسند ضعيف، لكن له شاهد من حديث سهل الساعدي - رضي الله عنه - أخرجه أحمد (٣٣١/٥)، والطبراني في الكبير (٦/٢٠٤)، وهو صحيح.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ
وَيَآلِئَ الَّذِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ
مُعْرِضُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، أي:
أخلصوا له العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾،
﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، أي: وصيناهم ببر الوالدين، والإحسان إليهما. ﴿وَذِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، قال ابن عباس: أمرهم أيضاً
بعد هذا الخلق، أن يقولوا: ﴿لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾: أن يأمرؤا بلا إله إلا الله، من لم
يقلها ورغب عنها، حتى يقولوها كما قالوها، فإن ذلك قرينة من الله جل ثناؤه.
وقال الحسن البصري: فالحسنى من القول: أن يأمر بالمعروف، وينهى عن
المنكر، ويصلح ويعفو ويصفح، وقال الحسن أيضاً: لين القول من الأدب الحسن
الجميل، والخلق الكريم، وهو مما ارتضاه الله وأحبه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ
مُعْرِضُونَ﴾.

قال ابن جرير^(١): وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن يهود بني إسرائيل، أنهم
نكثوا عهده، ونقضوا ميثاقه، بعد ما أخذ الله ميثاقهم على الوفاء له، ألا يعبدوا
غيره، وأن يحسنوا إلى الآباء والأمهات، ويصلوا الأرحام، ويتعطفوا على الأيتام،
ويؤدوا حقوق أهل المسكنة إليهم، ويأمرؤا عباد الله بما أمرهم الله به، ويحثوهم على
طاعته، ويقيموا الصلاة بحدودها وفرائضها، ويؤتوا زكاة أموالهم، فخالفوا أمره في
ذلك كله، وتولوا عنه معرضين، إلا من عصمه الله منهم، فوفى الله بعهده وميثاقه.

(١) انظر «جامع البيان» (١/٣٩٣).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسْرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهُمْ مَحْرُومٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوْمُنُونَنِ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾، أي: لا يسفك بعضكم دم بعض، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾: لا يخرج بعضكم بعضاً من داره، ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾: بهذا العهد، ﴿وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ﴾: على ذلك يا معشر اليهود. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾، يعني: يا هؤلاء، ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ بالمعصية والظلم.

﴿وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسْرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهُمْ مَحْرُومٌ﴾ يعني: لا يسفك بعضكم دم بعض، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾: لا يخرج بعضكم بعضاً من داره، ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾: بهذا العهد، ﴿وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ﴾: على ذلك يا معشر اليهود. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾، يعني: يا هؤلاء، ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ بالمعصية والظلم.

﴿وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسْرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهُمْ مَحْرُومٌ﴾ يعني: لا يسفك بعضكم دم بعض، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾: لا يخرج بعضكم بعضاً من داره، ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾: بهذا العهد، ﴿وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ﴾: على ذلك يا معشر اليهود. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾، يعني: يا هؤلاء، ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ بالمعصية والظلم.

﴿وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسْرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهُمْ مَحْرُومٌ﴾ يعني: لا يسفك بعضكم دم بعض، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾: لا يخرج بعضكم بعضاً من داره، ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾: بهذا العهد، ﴿وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ﴾: على ذلك يا معشر اليهود. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾، يعني: يا هؤلاء، ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ بالمعصية والظلم.

عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنّة ولا ناراً، ولا بعثاً ولا قيامة، ولا كتاباً ولا حلالاً ولا حراماً، فإذا وضعت الحرب أوزارها، افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة، وأخذاً به بعضهم من بعض، يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، ويفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويطلبون ما أصابوا من دمائهم، وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم، مظاهرة لأهل الشرك عليهم. يقول الله تعالى ذكره، حيث أنبأهم بذلك: ﴿أَفْتُمْنُونَ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بَعْضُ﴾ أي: تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم؟ وفي حكم التوراة: ألا يقتل، ولا يخرج من داره، ولا يظهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه، ابتغاء عرض الدنيا، ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج، فيما بلغني، نزلت هذه القصة^(١).

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَفْتُمْنُونَ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بَعْضُ﴾ يقول: إن وجدته في يد غيرك فديته، وأنت تقتله بيدك. ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، فكان خزي بني قريظة القتل والسبي، وخزي بني النضير الجلاء والنفي من منازلهم.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَرْدُونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ في النار. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ السرمدي ﴿وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ نعوذ بالله من ذلك.



(١) أخرجه ابن جرير (٣٩٧/١) من طريق ابن إسحاق بسند ضعيف.

الدرس العاشر

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٨٨) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوهُ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْحَدُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ۚ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩١) ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۚ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَيْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٣) قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٩٥)

وَلَنَجْذِبَهُمْ إِلَىٰ أَعْرَاصِ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ
أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَجَةٍ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ
بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ
رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِّقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧).

يقول تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أعطيناه التوراة، ﴿وقفينا﴾
أتبعنا، ﴿من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات﴾ وهي المعجزات،
﴿وأيدناه﴾ قويناه، ﴿بروح القدس﴾ وهو جبريل عليه السلام، كما قال تعالى:
﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتَكَ
بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذَا عَلِمْتَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِذَا تَخَلَّقَ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْنِي فَتَنفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا
بِأَذْنِي وَتَبْرَىٰ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِأَذْنِي وَإِذَا تَخْرُجُ الْمَوْتَىٰ بِأَذْنِي وَإِذَا كُنْفَتُ بَنِي
إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُبِينٌ﴾ (١).

قال البغوي^(٢): وتأيد عيسى بجبريل عليه السلام، أنه أمر أن يسير معه
حيث سار، حتى صعد به إلى السماء. ﴿أفكلما جاءكم﴾ يا معشر اليهود،
﴿رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم﴾ عن الإيمان به، ﴿ففريقاً كذبتم﴾
مثل عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ﴿وفريقاً تقتلون﴾ مثل زكريا
ويحيى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام؟ وقد حاولوا قتل النبي
محمد ﷺ.

(١) سورة المائدة: الآية ١١٠.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/٥٧).

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾، أي: في أكنة، فلا تعي ولا تفقه ما جئت به يا محمد. ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾، أي: طردهم وأبعدهم من كل خير، ﴿فقليلًا ما يؤمنون﴾، قال قتادة: معناه لا يؤمن منهم إلا قليل. وقد قال تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

يقول: ﴿ولما جاءهم﴾، يعني اليهود، ﴿كتاب من عند الله﴾ وهو القرآن، ﴿مصدق﴾ موافق، ﴿لما معهم﴾، يعني: التوراة. ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾، أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب، يستنصرون بمجيئه على أعدائهم.

قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري، عن أشياء منهم، قال: فينا والله وفيهم — يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم — نزلت هذه القصة، يعني. ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾، قالوا: كنا قد علوناهم قهراً، دهرًا في الجاهلية، ونحن أهل شرك، وهم أهل كتاب، وهم يقولون: إن نبياً سيعت الآن نتبعه، قد ظل زمانه، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم،

(١) سورة النساء: الآية ١٥٥.

فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه، كفروا به. يقول الله تعالى: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَقِيًّا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قَبَاءً وَغَضَبٌ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

قال مجاهد: ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ يهود شروا الحق بالباطل، وكتمان ما جاء به محمد ﷺ بأن يبينوه. وقال السدي: ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ يقول: باعوا به أنفسهم. يقول: بئسما اعتاضوا لأنفسهم، فرضوا به، وعدلوا إليه، من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ، عن تصديقه ومؤازرته ونصرته، وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكرهية، ﴿أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ ولا حسد أعظم من هذا. وقال ابن عباس في قوله: ﴿قَبَاءً وَغَضَبٌ عَلَى غَضَبٍ﴾ فغضب الله عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم، وغضب عليهم بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، قال ابن كثير^(٢): لما كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٣) أي صاغرين ذليلين.

قوله عز وجل: ﴿وَلِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوَمَّنْ يُمَّا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءُ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أُنْيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

(١) أخرجه ابن جرير (٤١١/١) بسند ضعيف.

(٢) انظر تفسيره (١٢٥/١).

(٣) سورة غافر: الآية ٦٠.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، يعني القرآن، ﴿قَالُوا نؤمن بما أنزل علينا﴾ يعني التوراة، ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ أي بما سواه من الكتب، ﴿وهو الحق﴾ يعني القرآن، ﴿مصدقاً لما معهم﴾ من التوراة. ﴿قل﴾ لهم يا محمد: ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ بالتوراة، وقد نهيتم فيها عن قتل الأنبياء عليهم السلام؟.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٩٢).

يقول تعالى: ﴿ولقد جاءكم﴾ يا معشر اليهود، ﴿موسى بالبينات﴾ أي بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات، ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ معبوداً من دون الله. ﴿من بعده﴾، أي من بعد ذهابه إلى الطور لمناجاة الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ولما سقط في أيديهم وراؤا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ (٩١).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَتُوبُ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَ يَكُونُ لَكُمُ الْمِثْقَالُ الْمُنِيرُ﴾ (٩٣).

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾ الجبل، ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾، أي: استجبوا وأطيعوا، ﴿قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾، قال قتادة: أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم.

﴿قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ أن تعبدوا العجل من دون الله، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بزعمكم، وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة، من نقضكم المواثيق، وكفركم بآيات الله، وقتلكم الأنبياء، وعبادتكم العجل. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «حبك الشيء يعمي ويصم»^(١) رواه أحمد.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ^(٩٥) وَلَتَجِدَنَّ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوْتِهِ وَمَنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَزَّزٍ مِّنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ^(٩٦).

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء اليهود: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدار الآخرة﴾ يعني الجنة، ﴿عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ أي خاصة، ﴿مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم. قال ابن عباس: لو تمنوا الموت لغص كل إنسان منهم بريقه: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، أي من الأعمال السيئة. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وقد نجران من النصراري إلى المباهلة، فقال علماؤهم: والله لئن باهلتهم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف. فعند ذلك جنحوا للسلم، وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، أي: وأحرص من الذين أشركوا. ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال الحسن البصري: المنافق أحرص الناس، وأحرص من المشرك على حياة. ﴿وَمَا هُوَ

(١) أخرجه أحمد (٥/١٩٤ و ٦/٦٥٠)، أبو داود (ح/٥١٣٠)، والبخاري في تاريخه (١٥٧/١/٢)، من حديث أبي الدرداء، بسند ضعيف.

بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴿٩٤﴾ قال ابن عباس: أي وما هو بمنجيه من العذاب، وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي. وقال ابن زيد: يهود أحرص على الحياة من هؤلاء، وقد ودّ هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة، وليس ذلك بمزحزحه من العذاب لو عُمِّر، كما عُمِّر إبليس لم ينفعه إذ كان كافراً.

قوله تعالى: ﴿والله بصير بما يعملون﴾، أي: وسيجازي كل عامل بعمله، وقد قال تعالى: ﴿أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾^(١) وبالله التوفيق.



(١) سورة الشعراء: الآية ٢٠٥.

الدرس الحادي عشر

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سَلِيمٍ ﴿١٠٢﴾ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَعَثِبُوا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾

قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ .

قال ابن عباس: «حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي؟ فقال رسول الله ﷺ: سلوا ما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة، وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم عن شيء فعرفتموه لتتابعنني على الإسلام؟ فقالوا: لك ذلك. فقال رسول الله ﷺ: سلوا عما شئتم. قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟؟ وأخبرنا بهذا النبي الأُمي في التوراة ومن وليه من الملائكة؟ فقال النبي ﷺ: عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعنني؟ فأعطوه ما شاء الله من عهد وميثاق. فقال: نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً، فطال سقمه، فنذر الله نذراً، لئن عافاه الله من مرضه ليحرّم أحب الطعام والشراب إليه، فكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟ فقالوا: اللهم نعم!! فقال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد عليهم، وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على

موسى، هل تعلمون أما ماء الرجل غليظ أبيض، وأن ماء المرأة رقيق أصفر، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله عز وجل؟ وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله؟ وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله عز وجل؟ قالوا: اللهم نعم!! قال: اللهم اشهد. وأنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه، ولا ينام قلبه؟ قالوا: اللهم نعم!! قال: اللهم اشهد. قالوا: أنت الآن، فحدثنا من وليك من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك؟؟ قال: فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه. قالوا: فعندها نفارقك، ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك، وصدفناك. قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله عز وجل: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدق لما بين يديه﴾ إلى قوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ فعندها باءوا بغضب على غضب^(١). رواه ابن جرير.

زاد ابن إسحاق: «قالوا: فأخبرنا عن الروح؟ قال فأنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل، وهو الذي يأتيني؟ قالوا: اللهم نعم، ولكنه عدو لنا، وهو ملك إنما يأتي بالشدة وسفك الدماء، فلو لا ذلك اتبعناك. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾ إلى قوله: ﴿لا يعلمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾. يقول تعالى: ولقد أنزلنا إليك يا محمد آيات بينات واضحات، وما يكفر بها إلا الفاسقون الخارجون عن أمر الله، ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾.

قال البغوي^(٢): أو كلما واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام. وقال ابن

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٤٣١/١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٦٢/١).

عباس: قال ابن صوريا لرسول الله ﷺ: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك، فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾، وقال أيضاً: «قال مالك بن الصيف»^(١) حين بعث رسول الله ﷺ وذكر لهم^(٢) ما أخذ الله عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمد ﷺ: والله ما عهد إلينا في محمد، وما أخذ علينا ميثاقاً. فأنزل الله تعالى ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾.

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ قال: نعم ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه، ونبذوه. يعاهدون اليوم وينقضون غداً. وقال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ يقول تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله﴾، يعني محمداً ﷺ، ﴿مصدق لما معهم﴾ من التوراة، ﴿نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم، كأنهم لا يعلمون﴾ ما فيها من صفة محمد ﷺ، كما قال تعالى في المؤمنين منهم: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾^(٣).

قال قتادة في قوله: ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ قال: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم، وكتموه وجحدوا به. وقال الشعبي: كانوا يقرأون التوراة

(١) في (الأصل): «الصلة» وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير وابن كثير.

(٢) في (الأصل): «وذكرهم»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

ولا يعملون بها، وقال سفيان بن عيينة: أدرجوها في الحرير، والديباج، وحلوها بالذهب والفضة، ولم يعملوا بها، فذلك نبذهم.

قوله عز وجل: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَئِنَّ سَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين﴾ الآية: وكان حين ذهب ملك سليمان ارتد فنام من الجن والإنس، واتبعوا الشهوات، فلما أرجع الله إلى سليمان ملكه، وقام الناس على الدين كما كان، وأن سليمان ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه، وتوفي سليمان عليه السلام حدثان ذلك، فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان، وقالوا: هذا كتاب من الله نزل على سليمان فأخفاه عنا، فأخذوا به فجعلوه ديناً، فقال تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم﴾ الآية، واتبعوا الشهوات التي كانت تتلو الشياطين، وهي المعازف واللعب، وكل شيء يصد عن ذكر الله.

وقال أيضاً: كان آصف كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجه الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها. قال: وكفره جهال الناس وسبوه، ووقف علماء الناس، فلم يزل جهال الناس

يسبونه حتى أنزل الله على محمد ﷺ ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾، أي: ويعلمون الذي أنزل على الملكين أي إلهاماً وعلماً، فالإنزال هنا بمعنى الإلهام والتعليم.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما وقع الناس من بعد آدم عليه السلام فيما وقعوا فيه من المعاصي والكفر بالله، قالت الملائكة في السماء: يا رب هذا العالم الذي إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك، قد وقعوا فيما وقعوا فيه، وركبوا الكفر وقتل النفس، وأكل المال الحرام والزنا والسرقة وشرب الخمر، فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم، فقليل: إنهم في غيب فلم يعذروهم، فقليل لهم: اختاروا من أفضلكم ملكين أمرهما وأنهاهما، فاختاروا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض وجعل لهما شهوات بني آدم، وأمرهما الله أن يعبداه ولا يشركا به شيئاً، ونهيا عن قتل النفس الحرام، وأكل المال الحرام، وعن الزنا والسرقة وشرب الخمر، فلبثا في الأرض زماناً يحكمان بين الناس بالحق، وذلك في زمان إدريس عليه السلام، وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب، وأنهما أتيا لها، فخضعا لها في القول، وأرادها على نفسها، فأبت إلا أن يكونا على أمرها وعلى دينها، فسألاها عن دينها، فأخرجت لها صنماً، فقالت: هذا أعبد، فقالا: لا حاجة لنا في عبادة هذا، فذهبا فعبدا ما شاء الله، ثم أتيا عليها فأرادها على نفسها، ففعلت مثل ذلك، فذهبا ثم أتيا عليها، فأرادها على نفسها، فلما رأت أنهما قد أبيا أن يعبدا الصنم، قالت لهما: اختارا أحد الخلال الثلاث: إما أن تعبدا هذا الصنم، وإما أن تقتلا هذه النفس، وإما أن تشربا هذه الخمر، فقالا: كل هذا لا ينبغي، وأهون هذا شرب الخمر، فشربا الخمر فأخذت فيهما، فواقعا المرأة، فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما، فقتلاه فلما

ذهب عنهما السكر، وعلمنا ما وقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السماء، فلم يستطيعا، وحيل بينهما وبين ذلك، وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه، فعجبوا كل العجب، وعرفوا أنه من كان في غيب فهو أقل خشية، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض، فتزل في ذلك ﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾^(١)، فقيل لهما: اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، فقالا: أما عذاب الدنيا فإنه ينقطع ويذهب، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له. فاختارا عذاب الدنيا، فجعلنا ببابل فهما يعذبان^(٢).

قال ابن كثير^(٣): فهذا أقرب ما روي في شأن الزهرة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولاً إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ قال ابن عباس: فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشد النهي، وقالوا له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وذلك أنهما علما الخير والشر، والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر. قال: فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتي مكان كذا وكذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فعلمه فإذا تعلمه خرج منه النور.

وقوله تعالى: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾. قال سفيان الثوري: معناه إلا بقضائه وقدرته ومشيبته. وقال الحسن: من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط. وقوله تعالى: ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾، أي: يضرهم في دينهم، وليس له نفع يوازي ضرره.

(١) سورة الشورى: الآية ٥.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/٧٠ ب - ١/٧١)، وفي سنده ضعف، وروي مثله عن

الربيع: أخرجه ابن جرير (١/٤٥٧ - ٤٥٨).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/١٤٠).

وقوله تعالى: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق﴾. قال ابن عباس: من نصيب. وقال قتادة: ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾، قال ابن كثير^(١): يقول تعالى: ولبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول، لو كان لهم علم بما وعظوا به ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير﴾، أي: ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم لكانت مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما اختاروا لأنفسهم، ورضوا به، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون﴾، وروى أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله، يحيي الموتى. ورآه رجل من صالحى المهاجرين، فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه وذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر، فقال: إن كان صادقاً فليحيي نفسه، وتلا قوله تعالى: ﴿أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾^(٢)، فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك، فسجنه ثم أطلقه. وروى البزار عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «من أتى كاهناً أو ساحراً فصدق بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»^(٣).

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/١٤٤).

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣.

(٣) أخرجه الطيالسي (ص ٥٠)، والشاشي (ح/٨٩١) والبزار (٥/٢٥٦) والطبراني (١٠/٩٣).

والبيهقي (٨/١٣٦)، وهو موقوف صحيح في حكم المرفوع.

الدرس الثاني عشر

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا
 وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
 وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ
 مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ
 بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ
 تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ
 بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ
 يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ
 الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ
 اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ
 نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾
 بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
 يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ
 عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ
 بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا

أَنْظَرْنَا وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠٤).

خاطب الله تعالى المؤمنين في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن، وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين أن يتشبهوا باليهود في قولهم: «راعنا» وذلك أن المسلمين كانوا يقولون: راعنا يا رسول الله، من المراعاة، أي: أرعنا سمعك، وكانت هذه اللفظة من الرعونة بلغة اليهود، يسبون بها النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَارْعِنَا لِيَا بِالسُّتْهُمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١) وفي الحديث: «من تشبه بقوم فهو منهم» (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَاسْمِعُوا﴾، أي: ما تؤمرون به، وأطيعوا ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله عز وجل: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (١٠٥).

يبين تعالى عداوة الكافرين وحسدهم للمؤمنين؛ ليقطع المودة بينه وبينهم.

(١) سورة النساء: الآية ٤٦.

(٢) أخرجه أحمد (٥٠/٢)، وأبو داود (٤٠٣١/ح) عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال ابن تيمية في «الافتضاء» (٢٣٦/١): «وهذا إسناد جيد».

وقوله تعالى: ﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾، أي: ممن علم فيهم خيراً.
﴿والله ذو الفضل العظيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾.

قال ابن عباس: ﴿ما ننسخ من آية﴾ ما نبدل من آية. وقال قتادة: كان الله عز وجل يُنسي نبيه ﷺ ما يشاء، وينسخ ما يشاء.

وقوله تعالى: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ قال ابن عباس: يقول: خير لكم في المنفعة وأرفق بكم. وقال قتادة: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهى.

وقوله تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾، أي: من النسخ وغيره، لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه. قال البغوي^(١): (والنسخ على وجوه: أحدها: أن يثبت الخط وينسخ الحكم، مثل آية الوصية للأقارب، وآية عدة الوفاة بالحول، وآية التخفيف في القتل، وآية الممتحنة، ونحوها).

ومنها: أن يرفع أصلاً عن المصحف وعن القلوب، ثم من نسخ الحكم ما يرفع ويقام غيره مقامه، كما أن القبلة نسخت من بيت المقدس إلى الكعبة، والوصية للأقارب نسخت بالميراث.

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٦٧).

ومنها: ما يرفع ولا يقام غيره مقامه كامتحان النساء. والنسخ إنما يعترض على الأوامر والنواهي، دون الأخبار) انتهى ملخصاً.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يخبر تعالى أن ملك السموات والأرض ومن فيهما بيده، يفعل ما يشاء في ملكه، ويحكم ما يريد، ألا له الخلق والأمر لا يسئل عما يفعل، وهم يسألون، والله يحكم لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسُ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

قال ابن كثير^(٢): نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوِكُمْ وَإِنْ سَأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ تَبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾^(٣) وعن ابن عباس قال: «قال رافع بن حريملة، ووهب بن زيد: يا محمد، اتتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجّر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك، فأنزل الله من قولهم ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾»^(٤).

(١) سورة النحل: الآيتان ١٠١ و ١٠٢.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/١٥٢).

(٣) سورة المائدة: الآيتان ١٠١ و ١٠٢.

(٤) أخرجه ابن جرير (١/٤٨٣) بسند ضعيف.

قوله عز وجل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم﴾ يا معشر المؤمنين ﴿من بعد إيمانكم كفاراً حسداً﴾، أي: يحسدونكم حسداً، ﴿من عند أنفسهم﴾، أي: من تلقاء أنفسهم، ﴿من بعدما تبين لهم الحق﴾ في التوراة، أن قول محمد صدق، ودينه حق، ﴿فاعفوا واصفحوا﴾، اتركوا وتجاوزوا ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾، بعذابه، أي: القتل والسبي لبني قريظة، والجلاء والنفي لبني النضير. قال ابن عباس: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾، فإن شاء هداهم، وإن شاء انتقم منهم.

وقوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير﴾ يحث تعالى عباده المؤمنين على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ويرغبهم في الأعمال الصالحة، ويخبرهم أنها مدخرة لهم عند ربهم، كما قال تعالى: ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾ وقال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٢﴾ بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

(١) سورة الزلزلة: الآية ٧.

يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾، أي: أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ ادعت كل طائفة أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها ﴿تِلْكَ أُمَانِيهِمْ﴾ قال أبو العالية: أمني تمنوها على الله بغير حق، وهذا المقام كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأُمَانِيكُمْ وَلَا أُمَانِي﴾ أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به^(١) وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾^(٢).

قال تعالى: قل يا محمد «هاتوا برهانكم»: حججتكم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تدعون، ثم قال ردأ عليهم: ﴿بَلَىٰ مِنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾، أي: ليس كما قالوا، بل الحكم للإسلام، وإنما يدخل الجنة من أسلم وجهه لله، أي: أخلص دينه لله، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله، ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، قال سعيد بن جبير: فلا خوف عليهم، يعني في الآخرة، ولا هم يحزنون، يعني لا يحزنون للموت.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۖ﴾.

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيء. وكفر بعيسى وبالإنجيل. وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما

(١) سورة النساء: الآية ١٢٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ١٨.

أنتم على شيء. وجحد بنبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾^(١) قال: إن كلا يتلو في كتابه تصديق من كفر به، أن يكفر اليهود بعيسى؛ وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يد صاحبه.

وقوله تعالى: ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون﴾، أي: الجاهل من الأمم ﴿مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة﴾ يقضي بين المحق والمبطل ﴿فيما كانوا فيه يختلفون﴾ كما قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم﴾^(٣) وبالله التوفيق.



(١) أخرجه ابن جرير (٤٩٥/١) بسند ضعيف.

(٢) سورة الحج: الآية ١٧.

(٣) سورة سبأ: الآية ٢٦.

الدرس الثالث عشر

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٦﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَكُمْ قَلِيلٌ ﴿١١٨﴾ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا اقْتَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْتَلَّ عَنْ أَهْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٢١﴾ وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٢﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَتَّى تَلَوتِهِمْ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢٣﴾ يَبْقَى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٥﴾ ۞

قوله عز وجل ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْمَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قال قتادة: أولئك أعداء الله النصارى، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس. وقال ابن زيد: هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ وأصحابه يوم الحديبية، وبين أن يدخلوا مكة حتى نحر هديه بذى طوى وهادنهم، وقال لهم ما كان أحد يصد عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقي قاتل أبيه وأخيه فلا يصد، فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آبائنا يوم بدر وفينا باق.

وفي قوله: ﴿وسعى في خرابها﴾. قال: إذ قطعوا من يعمرها بذكره، ويأتيها للحج والعمرة. والآية عامة في كل من سعى في خراب المساجد بمنع العبادة فيها، أو بهدمها.

وقوله تعالى: ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ خبر معناه الطلب، أي لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة، أو الجزية ﴿لهم في الدنيا خزي﴾، قال قتادة: هي القتل للحربي، والجزية للذمي. ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ وهو النار، وفي الدعاء المأثور عن النبي ﷺ: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة»^(١). رواه أحمد.

(١) أخرجه أحمد (٤/١٨١)، والطبراني في الدعاء (ح/١٤٣٦)، وابن حبان - كما في الإحسان - (٢/١٥٠) عن بُسر بن أرطاة، وفي سنده ضعف والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٥).

قال ابن عباس: أول ما نسخ من القرآن - فيما ذكر لنا، والله أعلم -، شأن القبلة. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ، فاستقبل رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس، وترك البيت العتيق، ثم صرفه إلى بيته العتيق، ونسخها. فقال: ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾، وعن ابن عمر: «أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك» ويتأول هذه الآية: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾^(١). رواه مسلم وغيره، وهذا في التطوع. وعن ابن عباس قال: «خرج نفر من أصحاب رسول الله ﷺ قبل تحويل القبلة إلى الكعبة، فأصابهم الضباب وحضرت الصلاة، فتحروا القبلة وصلوا، فلما ذهب الضباب استبان لهم أنهم لم يصيبوا، فلما قدموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فنزلت هذه الآية».

وقوله تعالى: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾.

قال الكلبي: فثمَّ الله يعلم ويرى ﴿إن الله واسع عليم﴾ أي واسع الرحمة، عليم بالأعمال والنيات، كما قالت الملائكة: ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذٍ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦/١) - (٤٨٧).

(٢) سورة غافر: الآيات ٧-٩.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَدِينُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وقالوا﴾ أي اليهود والنصارى وغيرهم من الكفرة، ﴿اتخذ الله ولداً﴾، كما قال تعالى: ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿سبحانه﴾، أي: تعالى وتنزه وتقدس عن ذلك علواً كبيراً، ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾ ملكاً وعبيداً، «كل له قانتون». كما قال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئا إداً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عدداً وكلهم آتية يوم القيامة فرداً﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾^(٣)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فيزعم أنني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله إن لي ولداً، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً»^(٤). رواه البخاري، وللترمذي: «وأما شتمه إياي فقوله

(١) سورة التوبة: الآية ٣٠.

(٢) سورة مريم: الآيات ٨٨ - ٩٥.

(٣) سورة الأنعام: الآيتان ١٠٠ و ١٠١.

(٤) أخرجه البخاري (ح/ ٤٤٨٢).

اتخذ الله، ولدأ، وأنا الله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً
أحد^(١).

وفي الصحيحين: «لا أحد أصبر على أذى سمعه، من الله يجعلون له ولدأ
وهو يرزقهم ويعافيهم»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: مبدعهما ومنشئهما من غير
مثال سبق. ﴿وَإِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، أي: إذا قُدرَ أمراً وأراد
كونه كان بكن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤).

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا
آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(١١٨).

قال ابن عباس: «قال رافع بن حريمة لرسول الله ﷺ: يا محمد، إن كنت
رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك من
قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةً﴾، وقال أبو العالية
وغيره: هذا قول كفار العرب. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾. قال:

(١) ليست هذه الرواية عند الترمذي قطعاً، بل هي عند ابن مردويه — كما عزاها ابن كثير له
(١٦٠/١) — ولعل المؤلف — رحمه الله — لما رأى في سند ابن مردويه: «محمد بن

إسماعيل الترمذي» ظن أنه الترمذي صاحب السنن.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٦٠٩٩)، ومسلم (ح/٢٨٠٤).

(٣) سورة يس: الآية ٨٢.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

هم اليهود والنصارى. وقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: في الكفر والقسوة والعناد كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ أَتُوصَوُّ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أي: قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل لمن أيقن وصدق، وأما من ختم الله على قلبه واتبع هواه، فلا تنفع فيه الموعظة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٣).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾^(١١٩).

يقول تعالى: إنا أرسلناك يا محمد: بالحق أي بالصدق، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، أي: مبشراً للمؤمنين بالجنة، ومنذراً للعاصين، أي مخوفهم من النار.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، أي لا نسألك عن كفر، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

قوله عز وجل: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(١٢٠).

(١) سورة الفرقان: الآية ٢١.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٣.

(٣) سورة يونس: الآية ٩٦.

قال ابن عباس: هذا في القبلة، وذلك أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون النبي ﷺ حين كان يصلي إلى قبلتهم، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة أيسوا منه أن يوافقهم على دينهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ إِلَّا بِالْيَهُودِيَّةِ وَلَا النَّصَارَىٰ إِلَّا بِالنَّصْرَانِيَّةِ. وَالْمَلَّةُ: الطَّرِيقَةُ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ﴾، أي: إن هدى الله الذي بعثني به هو الدين الصحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فيه تهديد ووعد شديد لمن اتبع طرائق اليهود والنصارى من هذه الأمة. قال ابن كثير^(١): وقد استدلل كثير من الفقهاء بقوله حتى تتبع ملتهم على أن الكفر كله ملة واحدة، فيرث كل منهم قريبه. والله أعلم، انتهى، ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَافِرُونَ﴾.

قال ابن مسعود: والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزل الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله. وقال الحسن: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، أي: من أقام كتابه آمن بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾^(٢).

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/١٦٣).

(٢) سورة المائدة: الآية ٦٨.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلاَّ دخل النار»^(١).

قوله عز وجل: ﴿يَبْقَىٰ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قد تقدم نظير هذه الآية في أول السورة، وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول محمد ﷺ، والتحذير من الحسد وكتمان العلم، وبالله التوفيق.

• • •

(١) أخرجه مسلم (ح/١٥٣)

الدرس الرابع عشر

﴿ وَإِذْ أَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَّبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّعَرِثِ مَن ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَفِيئَ الْمَصِيرِ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ۞

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

يقول تعالى: واذكر يا محمد ﴿إذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن﴾، أي: قام بجميع ما كلفه الله به من الأوامر والنواهي، كما قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾^(١).

قال: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ يقتدى بك في الخير جزاء على ما فعل، كما قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾^(٢)، قال: ﴿ومن ذريتي﴾، أي: ومن أولادي أيضاً فاجعل منهم أئمة يقتدى بهم.

قال الله تعالى: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾، أي: لا يصيب عهدي من كان منهم ظالماً، ومعنى الآية: لا ينال ما عهدت إليك من النبوة والإمامة من كان ظالماً من ولدك، وأنه سيكون في ذريتك ظالمون، كما قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون﴾^(٣).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَفِّينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

(١) سورة النجم: الآية ٣١.

(٢) سورة السجدة: الآية ٢٤.

(٣) سورة الحديد: الآية ٢٦.

قال ابن عباس: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾، يقول: لا يقضون منه وطراً يأتونه، ثم يرجعون إلى أهلهم، ثم يعودون إليه. وقال قتادة: ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾، أي: مجمعاً للناس. وقال أبو العالية: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، يقول: وأمنا من العدو وأن يحمل فيه السلاح، وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعصده شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلي خلاه، فقال العباس: يا رسول الله إلا الأذخر، فإنه لقينهم وبيوتهم، فقال رسول الله ﷺ: إلا الأذخر»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، المقام: هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه في بناء الكعبة، وفي الحديث الصحيح عن عمر: «قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾»^(٢)، وفي حديث جابر: «استلم رسول الله ﷺ الركن، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين»^(٣). وقال قتادة: إنما أمروا أن يصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه، وروى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها: أن المقام كان زمان رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر ملتصقاً بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب.

(١) أخرجه البخاري (ح/٣١٨٩)، ومسلم (ح/١٣٥٣). من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (١/٢٣ - ٢٤) وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه مسلم (ح/١٢١٨).

وقوله تعالى: ﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾. قال الحسن: أمرهما الله أن يطهرا من الأذى والنجس، ولا يصيبه من ذلك شيء. وقال مجاهد: من الأوثان والرفث، وقول الزور والرجس، وقال ابن عباس: إذا كان جالساً فهو من العاكفين.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي، أخبرنا موسى بن إسماعيل، أخبرنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابت، قال: قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير: ما أراني إلا مكلم الأمير أن أمنع الذين ينامون في المسجد الحرام، فإنهم يُجنبون ويحدثون، قال: لا تفعل، فإن ابن عمر سئل عنهم، فقال: هم العاكفون، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْهَادِ بَظُلْمٍ نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُئْسِ الْمَصِيرُ﴾^(٢).

روى البخاري وغيره عن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم حرم مكة ودعوت^(٢) لها، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها، في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة — ولمسلم — بمثل ما دعا إبراهيم لأهل مكة»^(٣).

(١) سورة الحج: الآيتان ٢٥ و ٢٦.

(٢) في (الأصل): «ودعا لها» وهو خطأ، والمثبت من كتب الحديث.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٢١٢٩)، ومسلم (ح/١٣٦٠).

قال ابن كثير^(١): لا منافاة بين الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها؛ لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها.

وقوله تعالى: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، قَالَ: وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، عن أبي بن كعب، قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، قال: هو قول الله تعالى. وقال ابن عباس: كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله: وَمَنْ كَفَرَ أَيْضًا أَرْزُقْهُمْ كَمَا أَرْزُقُ الْمُؤْمِنِينَ، أَلْخَلَقَ خَلْقًا لَا أَرْزُقُهُمْ؟! أُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، ثم قرأ ابن عباس: ﴿كَلَّا نَمْدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، أي: ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا ويسطنا عليه إلى عذاب النار، «وبئس المصير»، أي: المرجع يصير إليه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾^(٣).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ

(١) انظر تفسيره (١/١٧٤).

(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٠.

(٣) سورة محمد: الآية ١٢.

فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٧﴾ .

يقول تعالى: واذكر يا محمد بناء إبراهيم وإسماعيل البيت، وهما يقولان: «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم». والقواعد: الأساس.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل، ومعهم شنة فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة، فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة، فوضعها تحت دوحة ثم رجع إبراهيم إلى أهله، فاتبعته أم إسماعيل حتى بلغوا كداء فنادته من ورائه: يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله، قالت: رضيت بالله، قال: فرجعت، فجعلت تشرب من الشنة ويدر لبنها على صبيها حتى لما فني الماء، قالت: لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحداً، فذهبت فصعدت الصفا، فنظرت هل تحس أحداً، فلم تحس أحداً، فلما بلغت الوادي سعت حتى أتت المروة، وفعلت ذلك أشواطاً حتى أمت سبعاً، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل الصبي، فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله، كأنه ينشع الموت، فلم تقرها نفسها، فقالت: لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحداً، فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت، فلم تحس أحداً حتى أمت سبعاً، ثم قالت لو ذهبت فنظرت ما فعل، فإذا هي بصوت، فقالت: أنمت إن كان عندك خير، فإذا جبريل عليه السلام قال: فقال بعقبه هكذا، وغمز عقبه على الأرض، قال: فانبثق الماء، فدهشت أم إسماعيل، فجعلت تحفر.

قال: فقال أبو القاسم عليه السلام: لو تركته لكان الماء ظاهراً، قال: فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها، قال: فمر ناس من جرهم ببطن الوادي، فإذا هم بطير كأنهم أنكروا ذلك، وقالوا ما يكون هذا الطير إلا على ماء، فبعثوا رسولهم فنظر، فإذا هو بالماء فاتاهم فأخبرهم، فاتوا إليها، فقالوا: يا أم إسماعيل أتأذنين لنا أن نكون معك ونسكن معك؟ قالت: نعم، فبلغ ابنها ونكح منهم امرأة.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم ﷺ، فقال لأهله: إني مطلع تركتي، قال: فجاء فسلم، فقال: أين إسماعيل؟ قالت امرأته: ذهب يصيد، قال: قولي له إذا جاء: غير عتبة بابك، فلما أخبرته قال: أنت ذاك، فاذهبي إلى أهلك.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم، فقال: إني مطلع تركتي، قال: فجاء، فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد، وقالت: ألا تنزل فتطعم وتشرب، فقال: ما طعامكم وما شربكم؟ قالت طعامنا اللحم، وشربنا الماء، قال: قال اللهم بارك لهم في طعامهم وشربهم.

قال: فقال أبو القاسم ﷺ: بركة بدعوة إبراهيم.

قال: ثم إنه بدا لإبراهيم ﷺ، فقال لأهله: إني مطلع تركتي، فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نبلاً له، فقال: يا إسماعيل، إن ربك عز وجل أمرني أن أبني له بيتاً، فقال: أطع ربك عز وجل، قال: إنه قد أمرني أن تعينني عليه، فقال: إذن أفعل، أو كما قال. قال: فقام فجعل إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، ويقولان: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾، قال: حتى ارتفع البناء، وضعف الشيخ عن نقل الحجارة، فقام على حجر المقام، فجعل يناوله الحجارة، ويقولان: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾^(١). رواه البخاري في أحاديث الأنبياء هكذا، ورواه أيضاً من وجه آخر بسياق أبسط من هذا.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تري أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟ فقلت: يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال: لولا حدثان قومك بالكفر»^(٢). فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من النبي ﷺ، ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٣٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (ح/١٥٨٣)، ومسلم (٢/٩٦٩، ٩٧٠).

يليان الحجر، إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم عليه السلام، رواه البخاري وغيره.

وفي رواية لمسلم: «لولا قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فالزقتها بالأرض، ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر، فإن قريشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة».

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثمانية عشر ذراعاً، وكانت تكسى القباطي، ثم كسيت بعد البرود وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف.

وقوله تعالى: حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾، ﴿مسلمين﴾، مخلصين، قال سلام بن أبي مطيع: كانا مسلمين ولكنهما سألاه الثبات. وقال عكرمة: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾، قال الله: قد فعلت. ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾، قال الله: قد فعلت.

وقوله: ﴿وأرنا مناسكنا﴾، قال عطاء: أخرجها لنا، علّمناها، وقال مجاهد: قال إبراهيم: ﴿أرنا مناسكنا﴾، فأتاه جبريل فأتى به البيت، فقال: ارفع القواعد، فرفع القواعد وأتم البناء؛ ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله؛ ثم انطلق به إلى المروة، فقال: وهذا من شعائر الله؛ ثم انطلق به نحو منى، فلما كان عند العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كبر وارمه، فكبر ورماه، ثم انطلق إبليس، فقام عند الجمرة الوسطى، فلما جاز به جبريل وإبراهيم، قال له: كبر وارمه، فكبر ورماه، فذهب الخبيث إبليس، وكان الخبيث أراد أن يدخل في الحج شيئاً فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات، قال: قد عرفت ما أريتك؟ — قالها ثلاث مرات — قال: نعم.

وقوله: ﴿وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾، طلبا من الله التوبة والرحمة؛ لأنه لا يدخل الجنة أحد بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته.

وقوله تعالى: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾، يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم وإسماعيل أنهما قالوا: ﴿ربنا وابعث فيهم﴾، أي: في الأمة المسلمة ﴿رسولا منهم﴾، أي: محمداً ﷺ، وروى أحمد وغيره عن العرياض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيئته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأيت، وكذلك أمهات النبيين يرين». وفي حديث أبي أمامة: «ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام»^(١).

وقوله تعالى: ﴿يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾، قال الحسن وغيره: الكتاب القرآن، والحكمة السنة، وقيل: الحكمة الفهم في الدين، ولا منافاة.

وقوله تعالى: ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾، أي: ﴿العزيز﴾، الذي ليس مثله أحد ولا يعجزه شيء، ﴿الحكيم﴾، في أفعاله وأقواله فيضع، الأشياء في محلها، والله أعلم.



(١) أخرجه أحمد (١٢٧/٤)، والطبراني (٢٥٣/١٨)، وفي سنده ضعف، وله شاهد من حديث أبي أمامة: أخرجه أحمد (٢٦٢/٥)، والطبراني (٢٠٥/٨ - ٢٠٦)، وفيه ضعف أيضاً، لكن قال الهيثمي في «المجمع» (٢٢٢/٨): «إسناد أحمد حسن، وله شواهد تقويه».

الدرس الخامس عشر

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا
وَأَيْنَاهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ﴾ ١٣٠ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ ١٣١ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا
تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ١٣٢ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ
لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ١٣٣ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٣٤ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى
تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٣٥ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا
أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ
مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ ١٣٦ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ
فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٣٧ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ
صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ١٣٨ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا
أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ١٣٩ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ وَاللَّهُ يَغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾
تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ

أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ

أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى

لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٢).

يقول تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾، أي: ما يرغب عن ملة إبراهيم الحنيفية إلا سفيه ظالم لنفسه. قال الربيع: رغبت اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم، وابتدعوا اليهودية والنصرانية وليست من الله، وتركوا ملة إبراهيم الإسلام، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿ولقد اصطفيناه﴾، أي: اخترناه في الدنيا خليلاً. ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾، أي: مع الأنبياء في الجنة.

وقوله تعالى: ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾، أي: أمره الله تعالى بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك. وقوله تعالى: ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا أنتم مسلمون﴾، أي: وصى إبراهيم بنيه بكلمة الإخلاص: لا إله إلا الله، وهي الملة الحنيفية، وكذلك وصى بها يعقوب بنيه، كما قال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٧.

في عقبه لعلهم يرجعون»^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾، أي: اختار لكم دين الإسلام، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، أي: استقيموا عليه حتى تموتوا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنْزِلَ فِيهِمْ لَمْ يُتَخَفَ وَلَا يَتَخَفُوا وَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾^(٢). وروى مسلم وغيره عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»^(٣).

قوله عز وجل: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَايَكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٤).

قال ابن جرير^(٤): يقول تعالى ذكره: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أكنتم؟ ولكنه استفهم بأم، إذ كان استفهاماً مستأنفاً على كلام قد سبقه، كما قال: ﴿أَلَمْ تَنْزِلِ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾^(٥)، وكذلك تفعل العرب في كل استفهام ابتدأته بعد كلام قد سبقه، تستفهم فيه بأم.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ قيل: نزلت في اليهود حين قالوا

(١) سورة الزخرف: الآيتان ٢٦ - ٢٨.

(٢) سورة فصلت: الآيات ٣٠ - ٣٢.

(٣) أخرجه مسلم (ح/٢٨٧٧).

(٤) انظر «جامع البيان» (١/٥٦٢).

(٥) سورة السجدة: الآية ٢.

للنبي ﷺ: أَلَسْتُ تَعْلَمُ أَنَّ يَعْقُوبَ يَوْمَ مَاتَ أَوْصَىٰ بَنِيهِ بِالْيَهُودِيَّةِ؟» وقال الكلبي: لما دخل يعقوب مصر رآهم يعبدون الأوثان والنيران، فجمع ولده وخاف عليهم ذلك. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، إسماعيل عم يعقوب، والعرب تسمي العم أبا. قال ابن زيد: يقال: بدأ بإسماعيل لأنه أكبر، واستدل بالآية من جعل الجد أبا وحجب به الأخوة، كما هو قول الصديق، وهو مذهب أبي حنيفة وغير واحد من السلف والخلف.

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، أي: موحدون مطيعون خاضعون.

قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٥).

يقول تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، أي: مضت: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من العمل ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من خير أو شر. ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(١). وفي الحديث: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»^(٢). قال قتادة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، يعني: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب الأسباط.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥).

قال ابن عباس: قال عبد الله بن سوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلاَّ

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٤.

(٢) أخرجه مسلم (ح/٢٦٩٩). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد. وقالت النصرارى مثل ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، أي: قل يا محمد: لا نريد ما دعوتمونا إليه، بل نتبع ﴿ملة إبراهيم حنيفاً﴾، أي: مخلصاً مستقيماً. قال ابن عباس: الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قال ابن جرير^(١): يقول: لم يكن ممن يدين بعبادة الأوثان والأصنام، ولا كان من اليهود ولا النصرارى، ﴿بل كان حنيفاً مسلماً﴾.

قوله عز وجل: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾»^(٢). الآية. وروى مسلم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر ﴿بآمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ الآية، والآخرى ﴿بآمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون﴾»^(٣). وفي رواية: «يقرأ في ركعتي

(١) انظر «جامع البيان» (١/٥٦٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٥٣.

والحديث أخرجه مسلم (ح/٧٢٧).

الفجر: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾، والتي في آل عمران ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾^(١).

قال قتادة: الأسباط بنو يعقوب إثنا عشر رجلاً، ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط. وقال البخاري: الأسباط قبائل بني إسرائيل.
قال القرطبي^(٢): والسبط الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد. قال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقوا بكتبه كلها ورسله. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل، وليسعكم القرآن»^(٣). رواه ابن أبي حاتم.

قوله عز وجل: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

يقول تعالى: فإن آمن الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم ﴿بمثل ما آمنتم به﴾، أي: بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فقد اهتدوا﴾ إلى الحق ﴿وإن تولوا﴾ عن ذلك، ﴿فإنما هم في شقاق﴾، أي: في خلاف ومنازعة، قاله ابن عباس. ﴿فسيكفيكم الله﴾، أي: فسيكفيك شرهم وينصرك عليهم، ﴿وهو السميع العليم﴾.

وقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾، أي: دين الله، سماه صبغة لأنه يظهر أثر الدين على المتدين، كما يظهر أثر الصبغ على الثوب. ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾.

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

والحديث أخرجه مسلم (٥٠٢/١).

(٢) انظر «جامع الأحكام» (١٤١/٢).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩٢/١). بسند ضعيف جداً.

قال قتادة: إن اليهود تصبغ أبناءها يهوداً والنصارى تصبغ أبناءها نصارى، وإن صبغة الله الإسلام، فلا صبغة أحسن من الإسلام ولا أطهر، وهو دين الله الذي بعث به نوحاً والأنبياء بعده.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ ١٣٩ أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ اللَّهُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المعاندين ﴿أتُحَاجُّونَا فِي اللَّهِ﴾، أي: في توحيد الله؟ ﴿وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾، أي: لكل جزاء عمله، فكيف تدعون أنكم أولى بالله ﴿ونحن له مخلصون﴾، وأنتم به مشركون؟ قال سعيد بن جبير: الإخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله، فلا يشرك به في دينه، ولا يراني بعمله.

﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أنتم أعلم أم الله﴾، أي: ﴿قل﴾ يا محمد: أنتم أعلم بدينهم أم الله؟ وقد أخبر الله تعالى: أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، وإن أولى الناس به محمد والمؤمنون.

وقوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾، قال الحسن: كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي أتاهم أن الدين الإسلام، وأن محمداً رسول الله، وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براء من اليهودية والنصرانية، فشهدوا لله بذلك، وأقروا على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم

من ذلك. وعن قتادة: قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾. قال: الشهادة النبي ﷺ مكتوب عندهم، وهو الذي كتموا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعيد. ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾. أي مضت. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾، أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم. ﴿وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾^(١) والله أعلم.



(١) سورة الجاثية: الآية ١٥.

الدرس السادس عشر

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ زُرِيَ ثَقَلُبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاوَاتِ فَلَنَوْلِيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْلَاهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ

قُولُوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَنَىٰ عَلَيْكُمْ وَعَلَىٰكُمْ تَهَتَدُونَ ﴿١٤٥﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٤٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٤٩﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٠﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥١﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٢﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدَهُمْ عَن قِبَلِهِمُ
أَلَنِي كَأَنُفَا عَلَيَّهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَيَّ صِرَاطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿سيقول السفهاء﴾، أي: الجاهل وهم اليهود والمنافقون.
﴿من الناس ما ولاهم﴾، أي: شيء صرفهم وحولهم ﴿عن قبلتهم التي كانوا
عليها﴾ يعني بيت المقدس.

قال ابن عباس: «لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت
المقدس، فرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان
رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله عز
وجل ﴿قولوا وجوهكم شطره﴾ فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ﴿ما ولاهم عن
قبلتهم التي كانوا عليها﴾ فأنزل الله ﴿قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى
صراط مستقيم﴾. (١)

وروى الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال
رسول الله ﷺ يعني في أهل الكتاب «إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا
على يوم الجمعة، التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها
وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين» (٢).

(١) أخرجه ابن جرير (٥/٢)، وفيه انقطاع. وينحوه أخرجه ابن ماجه (ح/٨٥٦)، وابن خزيمة
(٢٨٨/١) عن عائشة مرفوعاً: «ما حسدتكم اليهود على شيء، ما حسدتكم على السلام
والتأمين»، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (١٣٥/٦).

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

يقول تعالى: ﴿وكذلك﴾ كما هديناكم صراطاً مستقيماً، ﴿جعلناكم أمة وسطاً﴾، أي: عدلاً خياراً، كما قال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾، أي: على الأمم بتبليغ رسلهم. وروى الإمام أحمد وغيره عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمه. قال: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾. قال: والوسط العدل. فتدعون فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم»^(٢). رواه البخاري وغيره.

وفي رواية لأحمد: يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان، وأكثر من ذلك، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمه، فيدعى محمد وأمه فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما أعلمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ قال: عدلاً، ﴿لتكونوا شهداء على

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٤٨٧).

الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً^(١).

وروى أحمد وغيره عن النبي ﷺ: «يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم. قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بالثناء الحسن والثناء السيئ، أنتم شهداء الله في الأرض»^(٢).

وفي الحديث الآخر: «أيما مسلم شهد له أربعة بخير، أدخله الله الجنة، قال: فقلنا: وثلاثة؟ قال: فقال: وثلاثة. قال: فقلنا: واثنان؟ قال: واثنان. ثم لم نسأله عن الواحد»^(٣). رواه البخاري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾^(٤) قال قتادة: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾، أي: أن رسلهم قد بلغت قومها عن ربها، ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ على أنه قد بلغ رسالات ربه إلى أمته.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ قال ابن كثير^(٥): (يقول تعالى: إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك

(١) أخرجه أحمد (٥٨/٣)، والترمذي (ح/٢٩٦١) وقال «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٢٩٢/٦)، وهو صحيح.

(٢) أخرجه ابن مردويه كما عزا له ابن كثير وبنحوه: أخرجه أحمد (٤١٦/٣ و ٤٦٦)، وابن ماجه (ح/٤٢٢١)، قال ابن حجر في «الإصابة» (٧٧/٤): «حسن غريب». وقال الهيثمي في الزوائد: «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه البخاري (ح/٢٦٤٣).

(٤) سورة النساء: الآيتان ٤١ و ٤٢.

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/١٩١).

عنها إلى الكعبة، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك، ويستقبل معك حيثما توجهت ﴿ممن ينقلب على عقبيه﴾، أي: مرتداً عن دينه. ﴿وإن كانت لكبيرة﴾، أي: هذه الفعلة، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي: وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس، ﴿إلا على الذين هدى الله﴾ قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول، وإن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾، أي: صلاتكم إلى بيت المقدس. كما في الصحيح عن البراء قال: «مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس، فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾».

وقوله تعالى: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾، أي: فلا يضيع أجورهم، فإن الله أرحم بهم من والديهم.

قوله عز وجل: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

قال ابن إسحاق: حدثني إسماعيل بن أبي خالد عن أبي إسحاق عن البراء قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء، ينظر أمر الله، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فقال رجال من المسلمين: ودنا لو علمنا من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله ﴿وما

كان الله ليضيع إيمانكم». وقال السفهاء من الناس، وهم أهل الكتاب، ﴿وما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ فأنزل الله: ﴿سيقول السفهاء من الناس﴾، إلى آخر الآية. انتهى.

وعن ابن عباس قال: «كان النبي ﷺ إذا انصرف من صلاته إلى بيت المقدس، رفع رأسه إلى السماء، فأنزل الله ﴿فلتولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ إلى الكعبة، إلى الميزاب، يؤم به جبريل عليه السلام»^(١). وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ قال: شطره قبله، وفي الحديث الصحيح: «ما بين المشرق والمغرب قبلة»^(٢)، يعني لأهل المدينة ومن في سمتها، فعلى من كان مشاهداً للكعبة استقبالها، وغير الشاهد يستقبل الجهة بعد التحري.

وقوله تعالى: ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾ أي استقبالكم الكعبة، ولكنهم يكتمون ذلك ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ تهديد ووعيد.

قوله عز وجل: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

يقول تعالى: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب﴾، يعني اليهود والنصارى، ﴿بكل آية﴾ معجزة، ﴿ما تبعوا قبلتك﴾، يعني الكعبة، ﴿وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ لأن اليهود تستقبل بيت المقدس وهو المغرب، والنصارى تستقبل المشرق، وقبلة المسلمين الكعبة.

(١) أخرجه ابن مردويه كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (١/١٩٣).

(٢) أخرجه الترمذي (ح/٣٤٢ - ٣٤٤)، وابن ماجه (ح/١٠١١) عن أبي هريرة، وأخرجه الحاكم (١/٢٠٥)، وصححه ووافقه الذهبي، هو كما قال.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ اتَّبَعَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمَنِ الظَّالِمِينَ﴾ فيه تحذير الأمة من مخالفة الحق واتباع الهوى.

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون محمداً ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وأن ما جاء به هو الحق، ولكنهم يكتُمون ذلك، وهم يعلمون ثم قال تعالى: ﴿الحق من ربك﴾، أي: هذا الحق من الله لا شك فيه ﴿ولا تكونن من الممترين﴾ الشاكين. قال الربيع: لا تكن في شك فإنها قبلتك وقبله الأنبياء قبلك.

قال ابن جرير^(١): هذا من الكلام الذي تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهي للمخاطب به، والمراد به غيره.

قوله عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيَّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾.

قال ابن عباس: يعني بذلك أهل الأديان، يقول: لكل قبيلة قبله يرضونها، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون. وقال مجاهد: لكن أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة.

وقوله تعالى: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾، أي: بادروا بالطاعة أينما تكونوا أنتم وأهل الكتاب ﴿يأت بكم الله جميعاً﴾ يوم القيامة فيجزىكم بأعمالكم ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم

(١) انظر «جامع البيان» (٢/٢٧).

عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ^(١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَآتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ^(١٥٠).

قيل: إنما كرر الأمر باستقبال القبلة لتأكيد النسخ، لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشَوْهم وَاخْشَوْنِي﴾، قال ابن كثير^(٢): (وقوله: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾، أي أهل الكتاب، فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس). انتهى. وعن مجاهد وقتادة في قوله: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم﴾ قال: هم مشركو العرب، قالوا حين صرفت القبلة إلى الكعبة: قد رجع إلى قبلكم، فيوشك أن يرجع إلى دينكم. قال الله عز وجل: ﴿فلا تخشَوْهم وَاخْشَوْنِي﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾، أي: بهدايتي إياكم إلى قبلة إبراهيم. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «تمام النعمة الموت على الإسلام».

(١) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/١٩٥).

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: لكي تهتدوا من الضلالة. ولعل وعسى من الله واجب.

قوله عز وجل: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١) فَادْكُرُوا أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾.

قيل معناه: ولأتم نعمتي عليكم ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾. وقال مجاهد: يقول: كما فعلت ﴿فادْكُرُونِي﴾. قال الحسن وغيره: إن الله يذكر من ذكره، ويزيد من شكره، ويعذب من كفره. وقال سعيد بن جبیر: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي. وفي الحديث الصحيح: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»^(١).

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥١) وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٢﴾.

الصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله. قال ابن زيد: الصبر في بايبن: الصبر لله بما أحب، وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصابرين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ﴾ نزلت في قتلى بدر من المسلمين. ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾، كما قال تعالى في شهداء أحد

(١) أخرجه البخاري (ح/٧٤٠٥)، ومسلم (٢٠٦٨/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾^(١). وفي صحيح مسلم «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك أطلاعة فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل في سبيلك حتى نقتل مرة أخرى. لما يرون من ثواب الشهادة. فيقول الرب جل جلاله: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون»^(٢).

وروى الإمام أحمد عن الإمام الشافعي عن الإمام مالك عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه»^(٣).

قال ابن كثير^(٤): ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً.

قوله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٧﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٨٨٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٤٥٥/٣). ومالك في «الموطأ» (٢٤٠/١)، والنسائي (١٠٨/٣)، وابن

ماجه (ح/١٤٤٩ و ٤٢٧١) من حديث كعب بن مالك، رضي الله عنه، وهو حديث

صحيح.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/١٩٧).

يقول تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾، أي: ولنختبرنكم، ﴿بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزَلْزَلُوا﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾^(٢). وفي الحديث الصحيح: «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء شدة ففكان خيرا له»^(٣). ولهذا قال تعالى: ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾.

وفي صحيح مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتى واخلف لي خيرا منها، إلا أجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها»^(٤). قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله خيرا منه، رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، أي: ثناء الله عليهم ورحمته. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: نعم العدلان ونعمت العلاوة: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، فهذان العدلان، ﴿وأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، فهذه العلاوة.

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٤.

(٢) سورة محمد: الآية ٣١.

(٣) أخرجه مسلم بنحوه (ح/٢٩٩٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢/٦٣٢ — ٦٣٣).

وروى أحمد وغيره عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«قال الله: يا ملك الموت، قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرّة عينه وثمرة فؤاده؟ قال:
نعم. قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع. قال: ابنو له بيتاً في الجنة وسموه
بيت الحمد»^(١). وبالله التوفيق.



(١) أخرجه أحمد (٤/٤١٥)، والترمذي (ح/١٠٢١)، قال حسن غريب، قلت: وهو حديث حسن.

الدرس السابع عشر

﴿ إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ ١٥٨ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِنُونَ ﴿ ١٥٩ ﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا قَوْلَ لَيْكِ أَثُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿ ١٦٠ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿ ١٦١ ﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿ ١٦٢ ﴾ وَلِلَّهِ كُزَّةٌ وَلَهُ وَجْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿ ١٦٣ ﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿ ١٦٤ ﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿ ١٦٥ ﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿ ١٦٦ ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكُنَّا لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿ ١٦٧ ﴾ .

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ
أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ
عَلِيمٌ﴾ (١٥٨).

﴿شعائر الله﴾: معالم دينه، والمراد بها هنا: المناسك التي جعلها
أعلاماً لطاعته وموضعاً لعبادته. روى البخاري عن أنس قال: كنا نرى
أن الصفا والمروة من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنها،
فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾^(١). وقال
الشعبي: كان أساف على الصفا، وكانت نائلة على المروة، وكانوا
يستلمونها، فخرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما، فنزلت هذه الآية.
وذكر ابن إسحاق أن أسافاً ونائلة كانا بشرين، فزنيا داخل الكعبة فمسخا
حجرين، فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس، فلما طال عهدهما
عُبدًا، ثم حوَّلا إلى الصفا والمروة فنصبا هنالك، فكان من طاف بالصفا
والمروة يستلمهما.

وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل: «أن رسول الله ﷺ لما فرغ من
طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا وهو يقول: ﴿إِنَّ
الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾. ثم قال: أبداً بما بدأ الله به»^(٢). وفي رواية
النسائي: «ابعدوا بما بدأ الله به»^(٣). وفي الحديث الآخر: «اسعوا فإن الله كتب

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٤٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٢١٨).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٢/٤١٣).

عليكم السعي^(١). رواه أحمد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، أي: من تطوع بالحج والعمرة بعد أداء الواجب فإن الله مجاز لعبده بجميع علمه عليم بنيته.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَدِّ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ لَكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾.

قال قتادة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَدِّ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾، أولئك أهل الكتاب كتموا الإسلام وهو دين الله، وكتموا محمداً ﷺ وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾، أصل اللعن الطرد والإبعاد. قال مجاهد: إذا أجذبت الأرض قالت البهائم: هذا من أجل عصاة بني آدم، لعن الله عصاة بني آدم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ﴾، أي: رجعوا عما كانوا عليه من المعاصي وأصلحوا أعمالهم، وبينوا للناس ما كتموا. ﴿فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

(١) أخرجه أحمد (٤٢١/٦ - ٤٢٢)، وابن خزيمة (٢٣٣/٤)، وابن سعد (٢٤٧/٨) من حديث حبيبة بنت أبي تجرة، وهو صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٣/٢ و ٣٠٥ و ٣٤٤ و ٣٥٣ و ٤٩٥)، وأبو داود (ح/٣٦٥٠)، والترمذي (ح/٢٦٤٩)، وابن ماجه (ح/٢٦٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو صحيح.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

قال قتادة: إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله، ثم تلعه الملائكة، ثم يلعه الناس أجمعون.

وقوله تعالى: ﴿خالدين فيها﴾، أي: في نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾، أي: لا يمهلون، كما قال تعالى: ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون﴾^(٢).

قال أبو العالية: لا ينظرون فيعتذروا، كقوله تعالى: ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾^(٣).

قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَنَّٰ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٣٩.

(٣) سورة المرسلات: الآية ٣٦.

قال البغوي^(١): سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا: يا محمد صف لنا ربك وانسبه. فأنزل الله تعالى هذه الآية، وسورة الإخلاص، والواحد الذي لا نظير له ولا شريك له. وذكر حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن في هاتين الآيتين اسم الله الأعظم: ﴿وَالْهَكَمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، و﴿أَلَمْ يَلَمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(٢)». قال أبو الضحى: «لما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن محمداً يقول: إن إلهكم إله واحد، فليأتنا بآية إن كان من الصادقين، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية». قال عطاء: نزلت على النبي ﷺ بالمدينة ﴿وَالْهَكَمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، فقال كفار قريش بمكة: كيف يسمع الناس إله واحد؟ فأنزل الله تعالى ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، فهذا يعلمون أنه إله واحد، وأنه إله كل شيء وخالق كل شيء.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٩٣/١).

(٢) أخرجه أحمد (٤٦١/٦)، وأبو داود (١٤٩٦/ح)، والترمذي (ح/٣٤٧٨) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (ح/٣٨٥٥)، وهو حديث حسن.

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الآخرة، حيث جعلوا له ﴿أنداداً﴾، أي: أمثالاً ونظراء، يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو لا شريك له ولا ند له، فقال تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾. قال الربيع: هي الآلهة التي تعبد من دون الله، يقول: يحبون أوثانهم كحب الله. ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾، أي: من الكفار لأوثانهم. وقال مجاهد: ﴿يحبونهم كحب الله﴾ مباحة ومضاهاة للحق بالأنداد. ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ من الكفار لأوثانهم.

قال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ ولحبهم لله وتمايم معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجأون في جميع أمورهم إليه.

وقوله تعالى: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب﴾، أي: ولو يعلم الذين ظلموا باتخاذ الأنداد، ﴿إذ يرون العذاب﴾ عاينوه يوم القيامة، ﴿أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب﴾، أي: لو يعلمون أن القدرة لله جميعاً، لا قدرة لأندادهم. ﴿إذ يرون العذاب﴾ يوم القيامة لندموا أشد الندامة. ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا﴾، وهم القادة، ﴿من الذين اتبعوا﴾، أي: الأتباع، ﴿ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾، أي: أسباب الخلاص، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراء منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾،

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٠٢/١).

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٤.

كما قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا أَنْحَنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مَجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مَغْنُونَ عَنَا نَصِيًّا مِنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾^(٣). قال ابن كيسان: ﴿كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أنهم أشركوا بالله الأوثان، برجاء أن تقربهم إلى الله عز وجل، فلما عذبوا على ما كانوا يرجون ثوابه، تحسروا وندموا. وبالله التوفيق.



(١) سورة الزخرف: الآية ٦٧.

(٢) سورة سبأ: الآية ٣١ — ٣٣.

(٣) سورة غافر: الآية ٤٧ و ٤٨.

الدرس الثامن عشر

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنَ اضْطَرَّ غَيْرَ بَابِغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

قال البغوي^(١): نزلت في ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة وبني مدلج، فيما حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام، والبحيرة والسائبة، والوصيلة والحام. انتهى.

وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: إن كل مال منحته عبادي فهو لهم حلال، وإنني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»^(٢). وفي الحديث الآخر: «الحلال ما أحل الله، والحرام ما حرم الله، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، أي: طرائقه وأوامره. «إنه لكم عدو مبين» بين العداوة، كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿أَفْتَنَّاكَ بِهِ ذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِكَ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٩٦/١).

(٢) أخرجه مسلم (ح/٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (ح/١٧٢٦)، وابن ماجه (ح/٣٣٦٧)، من حديث سلمان رضي الله عنه وهو حديث حسن.

(٤) سورة الأعراف: الآية ٢٧.

(٥) سورة الكهف: الآية ٥٠.

فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير^(١). قال قتادة: كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان. وقال ابن عباس: ما كان من يمين أو نذر في غضب، فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ﴾، أي: الأفعال السيئة والفحشاء. قال ابن عباس: الفحشاء من المعاصي ما يجب فيه الحد، والسوء من الذنوب ما لا حد فيه. ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من اتخاذ الأنداد، وتحريم الحلال.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوهَا قَاتِ ابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لهؤلاء الكفرة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ على رسوله واركبوا ما أنتم عليه من الضلال، ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، أي: ما وجدناهم عليه في العقائد والأحكام. ﴿أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

قال البغوي^(٢): ﴿أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾، أي: كيف يتبعون آباءهم، وآباؤهم لا يعقلون شيئاً؟ الواو في «أولو» واو العطف، ويقال لها: واو التعجب، دخلت عليها ألف الاستفهام للتوبيخ. والمعنى: أيتبعون آباءهم وإن كانوا جهالاً لا يعقلون شيئاً؟ لفظه عام ومعناه الخصوص، أي لا يعقلون شيئاً من أمور الدين، لأنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا ولا يهتدون. ثم ضرب لهم مثلاً فقال جل ذكره: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾. انتهى.

قال ابن عباس: قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا

(١) سورة فاطر: الآية ٦.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/٩٧).

دعاء ونداء ﴿﴾، كمثل البعير والحمار والشاة، إن قلت لبعضها كل لا يعلم ما تقول، غير أنه يسمع صوتك، وكذلك الكافر إن أمرته بخير، أو نهيته عن شر أو وعظته، لم يعقل ما تقول، غير أنه يسمع صوتك.

وقوله تعالى: ﴿صم بكم عمي﴾، أي: صم عن سماع الحق، بكم لا يتكلمون به، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿فهم لا يعقلون﴾. كما قال تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(١٧٢) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لِيُغَيِّرَ اللَّهُ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(١٧٣).

الطيبات: الحلال. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾. ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟»^(٢). رواه مسلم وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لِيُغَيِّرَ اللَّهُ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٠١٥).

يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به^(١).

قال البغوي^(٢): ولحم الخنزير أراد به جميع أجزائه، فعبر عن ذلك باللحم، لأنه معظمه. ﴿وما أهل به لغير الله﴾، أي: ما ذبح للأصنام والطواغيت. وقال الربيع بن أنس: ما ذكر عليه اسم غير الله.

وقوله تعالى: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه﴾، أي: في أكل ذلك في غير باغ ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد. قال قتادة: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد﴾. قال: غير باغ في الميتة، أي: في أكله أن يتعدى حلالاً إلى حرام، وهو يجد عنه مندوحة. وقال السدي: أما باغ فيبغي فيه شهوته، وأما العادي فيتعدى في أكله، يأكل حتى يشبع، ولكن ليأكل منه قوتاً ما يمسك به نفسه، حتى يبلغ به حاجته.

وقوله تعالى: ﴿فإن الله غفور﴾، أي: لمن أكل في حال الاضطرار، ﴿رحيم﴾ حيث رخص للعباد في ذلك. وعن عباد بن شرحبيل الغُبَري^(٣) قال: «أصابتنا عاماً مخصصة، فأتيت المدينة، فأتيت حائطاً فأخذت سنبلاً ففركته وأكلته، وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال للرجل: ما أطعمته إذ كان جائعاً، ولا علمته إذ كان جاهلاً. فأمره فرد إليه ثوبه، وأمر له بوسق من طعام، أو نصف وسق^(٤). رواه ابن ماجه. قال ابن كثير^(٥): إسناده صحيح قوي جيد، وله شواهد كثيرة، من ذلك

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٥.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٩٨/١).

(٣) في (الأصل) (وتفسير ابن كثير): «العزي»، وهو خطأ، والمثبت من كتب الرجال.

(٤) أخرج أحمد (١٦٧/٤)، والنسائي (٢٤٠/٨)، وابن ماجه (ح/٢٢٩٨)، والحديث صحيح

إسناده وجوده ابن كثير كما ترى.

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٠٦/١).

حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق فقال: «من أصاب منه من ذي حاجة بفيه، غير متخذ خبنة فلا شيء عليه»^(١). الحديث.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٤) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ (١٧٥) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (١٧٦).

نزلت في رؤساء اليهود وعلمائهم، كتموا صفة محمد ﷺ الثابتة في كتبهم، لئلا تذهب برياستهم ومآكلهم، والآية عامة في كل من كتم العلم لأجل ذلك. ﴿أولئك ما يؤكلون في بطونهم إلا النار﴾، يعني: إلا ما يؤديهم إلى النار، وهو الرشوة والحرام وثمر الدين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾^(٢). وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون أبغح بحجته من بعض، فأقضي له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيء، فإنما أقطع له قطعة من النار، فليأخذها أو يدعها»^(٣). وفي الحديث الآخر: «الذي يشرب في إناء الذهب والفضة، إنما يجر جمر في بطنه نار جهنم»^(٤).

(١) في (الأصل): «خبثية» وهو خطأ، والمثبت من كتب الحديث.

(٢) سورة النساء: الآية ١٠.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٢٤٥٩ و ٧١٨١ و ٧١٨٥)، ومسلم (ح/١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري (ح/٧١٦٩)، ومسلم (ح/١٧١٣) عن أم سلمة رضي الله عنها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قال ابن كثير^(١): وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم، لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، ﴿فَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾، أي: يثني عليهم ويمدحهم، بل يعذبهم عذاباً أليماً. ثم ذكر حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، ومملك كذاب، وعائل مستكبر»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾، أي: أعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وهي كتمان ما أنزل الله، واعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطوه من أسبابه. ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾، قال الحسن وقتادة: والله ما لهم عليها من صبر، ولكن ما أجراهم على العمل الذي يقربهم إلى النار.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، أي: إنما استحقوا هذا العذاب الشديد، لأن الله نزل الكتاب بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً، واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. ﴿وَالَّذِينَ اختلفوا في الكتاب﴾ فآمنوا ببعض وكفروا ببعض ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف وضلال ﴿بَعِيدٍ﴾. وبالله التوفيق.



(١) انظر تفسيره (٢٠٦/١).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٥٦٣٤)، ومسلم (ح/٢٠٦٥) عن أم سلمة رضي الله عنها.

الدرس التاسع عشر

﴿لَيْسَ إِلَهَ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَتَأْتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ
مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْعَا بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ
فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأَذَّلُ
أَلَّا لَبِ لَمَلَكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ
خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ
بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَنَابَ إِنَّمَا عَلَى الَّذِينَ يَبْدُلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوَسٍ
جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

البر: كل عمل خير يفضي بصاحبه إلى الجنة. قال أبو العالية: كانت اليهود تقبل قبل المغرب، وكانت النصارى تقبل قبل المشرق، فقال الله تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾. يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقة العمل. وقال مجاهد: ولكن البر ما ثبت في القلوب من طاعة الله عز وجل. وقال الثوري: ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر﴾، الآية، قال: هذه أنواع البر كلها.

وقوله تعالى: ﴿ولكن البر من آمن بالله﴾، أي: بأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه، وآمن باليوم الآخر وهو يوم القيامة، وصدق بوجود الملائكة الذين هم عباد الرحمن، وصدق بالكتاب، أي القرآن، وجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، وآمن بالنبيين كلهم. ﴿وأتى المال على حبه﴾، أي: أعطاه وهو محب له، ﴿ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب﴾، أي: فكها من الرق، وهي عامة في المكاتبين وفي العتق وفي فداء الأسير. ﴿وأقام الصلاة﴾، أي: وأتمها في أوقاتها على الوجه المرضي. ﴿وأتى الزكاة﴾ أعطى زكاة ماله. ﴿والموفون بعهدهم﴾ فيما بينهم وبين الله عز وجل، وفيما بينهم وبين الناس. ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾، أي: في حالة الفقر

والمرض وفي القتال. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في إيمانهم ﴿وأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ بتركهم المحارم وفعلهم الطاعات.

قوله: ﴿والصابرين﴾. قال أبو عبيدة: نصبها على تطاول الكلام، ومن شأن العرب أن تغير الإعراب إذا طال الكلام، ومثله في سورة النساء ﴿والمقيمين الصلاة﴾، وفي سورة المائدة ﴿والصابثون﴾. وقال الخليل: نصب على المدح.

وعن علي رضي الله عنه قال: «كنا إذا احمر البأس ولقي القوم القوم، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، يعني إذا اشتد الحرب»^(١).

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأُولَئِكَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

قال الشعبي وغيره: نزلت هذه الآية في حين من أحياء العرب، اقتتلوا في الجاهلية قبيل الإسلام بقليل، وكانت بينهما قتلى وجراحات، لم يأخذها بعضهم من بعض، حتى جاء الإسلام، وكان لأحد الحيين على الآخر طول في الكثرة والشرف، وكانوا ينكحون نساءهم بغير مهور، فأقسموا: لنقتلن بالعبد منا الحر منهم، وبالمراة منا الرجل منهم، وبالرجل منا الرجلين منهم، وجعلوا جراحاتهم ضعفي جراحات أولئك، فرفعوا أمرهم إلى النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمر بالمساواة، فرضوا وأسلموا.

وقوله تعالى: ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى﴾، أي: فرض عليكم

(١) أخرجه البغوي في تفسيره (١/١٠١)، وبنحوه من حديث البراء عند مسلم (٣/١٤٠١).

القصاص، وهو المساواة والمماثلة في الجراحات والديات: الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى. قال قتادة: كان أهل الجاهلية فيهم بغي وطاعة للشيطان، فكان الحي إذا كان فيهم عدة ومنعة، فقتل عبد قوم آخرين عبداً لهم قالوا: لا نقتل به إلاّ حرّاً، تعزيزاً لفضلهم على غيرهم في أنفسهم، وإذا قتلت لهم امرأة، قتلتها امرأة قوم آخرين قالوا: لا نقتل بها إلاّ رجلاً، فأنزل الله هذه الآية، يخبرهم أن العبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، فنهاهم عن البغي. ثم أنزل الله تعالى ذكره في سورة المائدة بعد ذلك فقال: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص﴾^(١).

وقد اختلف العلماء في قتل الحر بالعبد، فذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة، وذهب الجمهور إلى أنه لا يقتل الحر بالعبد وقالوا: لا يقتل المسلم بالكافر، لقوله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر»^(٢). رواه البخاري. وقال أبو حنيفة: يقتل لعموم الآية. وقال الحسن وعطاء: لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية.

وخالفهم الجمهور لآية المائدة، ولقوله ﷺ: «المسلمون تنكافأ دماؤهم»^(٣).

وذهب الأئمة الأربعة والجمهور إلى أن الجماعة يقتلون بالواحد.

(١) سورة المائدة: الآية ٤٥.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٣٠٤٧) من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد و (٢/١٩٢ و ٢١١)، وأبو داود (ح/٢٧٥١)، وابن ماجه (ح/٢٦٨٥) من

حديث ابن عمرو رضي الله عنه وسنده حسن، وأخرجه أحمد (١/١٩٩ و ٨٢٢)، والنسائي

(٨/١٩ - ٢٠) من حديث علي رضي الله عنه، صحيح.

قال البغوي^(١): (ويجري القصاص في الأطراف كما يجري في النفوس، إلا في شيء واحد، وهو أن الصحيح السوي يقتل بالمريض والزمن، وفي الأطراف لو قطع يداً شلاء أو ناقصة لا تقطع بها الصحيحة الكاملة). انتهى.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن الربيع بنت النضر عمته، كسرت ثنية جارية، فطلبوا إليها العفو فأبوا، فعرضوا الأرض فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ فأبوا إلا القصاص فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص فقال أنس بن النضر: يا رسول الله أتكسر ثنية الربيع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتهما. فقال رسول الله ﷺ: يا أنس كتاب الله القصاص. فرضي القوم فعفوا. فقال رسول الله ﷺ: إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾. قال ابن عباس: ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾، يعني فمن ترك له من أخيه شيء، يعني أخذ الدية بعد استحقاق الدم، وذلك العفو. ﴿فاتباع بالمعروف﴾ يقول: فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية ﴿وأداء إليه بإحسان﴾، يعني من القاتل من غير ضرر ولا معك، يعني المدافعة. وقوله تعالى: ﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾، يعني أخذ الدية في العمد، قال قتادة: رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية، ولم تحل لأحد قبلهم، فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو ليس بينهم أرش، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به، وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش.

وقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾، أي: من قتل بعد أخذ الدية فله عذاب أليم. قال ابن جريج: يتحتم قتله حتى لا يقبل العفو. وقال

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٥٠٠)، ومسلم (ح/١٦٧٥).

سعيد بن عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أعافي رجلاً قتل بعد أخذ الدية»^(١). وروى أحمد عن أبي شريح الخزاعي أن النبي ﷺ قال: «من أصيب بقتل أو خبل فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية، وإن أراد الرابعة فخذوا على يديه، ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. يقول تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، أي: بقاء. قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل. وقال قتادة: جعل الله هذا القصاص حياة ونكالا وعظة لأهل السفه والجهل من الناس، وكم من جاهل قد هم بداهية لولا مخافة القصاص لوقع بها، ولكن الله حجز بالقصاص بعضهم عن بعض، وما أمر الله بأمر قط إلا وهو أمر صلاح في الدنيا والآخرة، ولا نهى عن أمر قط إلا وهو أمر فساد في الدنيا والدين، والله كان أعلم بالذي يصلح خلقه.

وقوله تعالى: ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أي: العقول والأفهام. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. قال ابن زيد: لعلك تتقي أن تقتله فتقتل به.

قال ابن كثير^(٣): والتقوى أسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

قوله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٦٣)، أبو داود (ح/٤٥٠٧)، بسند ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد (٤/٣١)، وأبو داود (ح/٤٤٩٦)، وابن ماجه (ح/٢٦٢٣)، بسند ضعيف.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢١١).

كانت الوصية فريضة في ابتداء الإسلام للوالدين والأقربين على من مات وله مال، ثم نسخت بآية الميراث. وفي السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»^(١). وقال قتادة: قوله: ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين﴾، فجعلت الوصية للوالدين والأقربين، ثم نسخ ذلك بعد ذلك، فجعل لهما نصيب مفروض، فصارت الوصية لذوي القرابة الذين لا يرثون، وجعل للوالدين نصيب معلوم، ولا تجوز وصية لوارث.

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلاّ ووصيته مكتوبة عنده»^(٢). قال ابن عمر: ما مرت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك، إلاّ ووصيتي عندي. وروى ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه أنه دخل على رجل من قومه يعود، فقال له: أوصني، فقال له علي: إنما قال الله: ﴿إن ترك خيراً الوصية﴾، إنما تركت شيئاً يسيراً، فاتركه لولدك.

وقوله تعالى: ﴿بالمعروف﴾، قال ابن جرير^(٣): (وهو ما أذن الله فيه وأجازه في الوصية، مما يجاوز الثلث، ولم يتعمد الموصي ظلم ورثته). انتهى.

وعن حنظلة بن حذيم^(٤) بن حنيفة أن جده حنيفة أوصى لیتيم في حجره، بمائة من الإبل، فشق ذلك على بنه، فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ فقال حنيفة: إني

(١) أخرجه أحمد (١٨٦/٤ و ١٨٧ و ٢٣٨ و ٢٣٩)، وأبو داود (ح/٣٥٦٥)، والترمذي

(ح/١٢٦٥)، وابن ماجه (ح/٢٣٩٨) وقال: «حسن صحيح»، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٢٧٣٨)، ومسلم (ح/١٦٢٧).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١١٥/٢).

(٤) في (الأصل)، ومسند أحمد، وتفسير ابن كثير «ابن حذيم» بالذال، وهو خطأ، والمثبت من كتب الرجال.

أوصيت ليتيم لي بمائة من الإبل كنا نسميها المطية، فقال النبي ﷺ: «لا لا لا، الصدقة خمس، وإلا فعشر، وإلا فخمس عشرة، وإلا فعشرون، وإلا فخمس وعشرون، وإلا فثلاثون، وإلا فخمس وثلاثون، فإن كثرت فأربعون»^(١). الحديث رواه أحمد.

وقال ابن عباس: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله ﷺ قال: «الثلث والثلث كثير»^(٢). وقال الشعبي: إنما كانوا يوصون بالخمس أو الربع. وقال الحسن البصري: يوصي بالسدس أو الخمس أو الربع. وعن نافع أن ابن عمر لم يوص، وقال: أما مالي فإله أعلم ما كنت أصنع فيه في الحياة، وأما رباعي فما أحب أن يشرك ولدي فيها أحد. رواه ابن جرير.

قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١٨٧) ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١٨٨).

يقول تعالى: فمن بدل الوصية فزاد فيها أو نقص، ﴿فإنما إثمهم على الذين يبدلونهم﴾، والميت بريء منه، وقد وقع أجره على الله. ﴿إن الله سميعٌ عليمٌ﴾، أي: قد اطلع على ما أوصى به الميت وعلى ما غيره المبدل، لا تخفى عليه خافية.

وقوله تعالى: ﴿فمن خاف من موصٍ جنفاً﴾، أي: جوراً وعدولاً عن الحق، أي ظلماً. قال السدي وغيره: الجنف الخطأ، والإثم العمد. ﴿فأصلح بينهم فلا إثم عليه﴾، قال مجاهد: معنى الآية أن الرجل إذا حضر مريضاً وهو يوصي فرآه يميل، إما بتقصير أو إسراف، أو وضع الوصية في غير موضعها، فلا حرج على من حضره أن يأمره بالعدل وينهاه عن الجنف، فينظر للموصى له والورثة. وقال ابن

(١) أخرجه أحمد (٦٧/٥ - ٦٨)، والطبراني (١٣/٤) وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٢٧٤٢)، ومسلم (ح/١٦٢٩).

عباس في قوله: ﴿فمن خاف من موص جنفاً﴾، يعني إثمًا، يقول: إذا أخطأ الميت في وصيته أو حاف فيها، فليس على الأولياء حرج أن يردوا خطأه إلى الصواب. وقال قتادة في قوله: ﴿فمن خاف من موص جنفاً أو إثمًا﴾. قال: هو الرجل يوصي فيحيف في وصيته، فيردها الوالي إلى الحق والعدل. وقال أيضاً: من أوصى بجور أو جنف في وصيته، فردها ولي المتوفى إلى كتاب الله وإلى العدل، فذاك له، أو إمام من أئمة المسلمين. وعن شهر بن حوشب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بشر عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة، فيعدل في وصيته، فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة»^(١). قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ الآية. رواه عبد الرزاق، يشير إلى قوله تعالى: ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حلیم تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ فيه الحث على ترك الإثم والميل، وفعل الإصلاح، ليحصل الغفران والرحمة. وبالله التوفيق.



(١) أخرجه أحمد (٢٧٨/٢)، وابن ماجه (ح/٢٧٠٤)، بسند ضعيف.

(٢) سورة النساء: الآيات ١٢ - ١٤.

الدرس العشرون

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرِّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ﴾ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨٤﴾.

يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾، أي: فرض عليكم، ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ من الأنبياء والأمم. قال سعيد بن جبير: كان صوم من قبلنا من العتمة إلى الليلة القابلة، كما كان في ابتداء الإسلام. وقوله تعالى: ﴿لعلكم تتقون﴾، أي: لأن الصوم وسيلة إلى التقوى، لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات. كما ثبت في الصحيحين: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»^(١).

وقوله تعالى: ﴿أياماً معدودات﴾، أي: ثلاثين يوماً أو تسعة وعشرين يوماً. وقوله تعالى: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾، أي: إذا أفطر المريض في حال مرضه، والمسافر في حال سفره صاماً عدد ما أفطراه بعد رمضان.

وقوله تعالى: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾. روى ابن جرير عن معاذ بن جبل

(١) أخرجه البخاري (ج/١٩٠٥)، ومسلم (١٤٠٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

قال: «إن رسول الله ﷺ قدم المدينة فصام يوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر، ثم إن الله عز وجل فرض شهر رمضان، فأنزل الله تعالى ذكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ حتى بلغ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً، ثم إن الله عز وجل أوجب الصيام على الصحيح المقيم، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصوم، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ إلى آخر الآية»^(١).

وقال ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾، ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾، فزاد إطعام مسكين آخر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾، ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾. وقال ابن شهاب: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾، أي: أن الصيام خير لكم من الفدية. وعن الشعبي قال: نزلت هذه الآية للناس عامة ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾، وكان الرجل يفطر ويتصدق بطعامه على مسكين، ثم نزلت هذه الآية ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. قال: فلم تنزل الرخصة إلا للمريض والمسافر. وقال قتادة في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾. قال: كان فيها رخصة للشيخ الكبير والعجوز الكبيرة، وهما يطيقان الصوم، أن يطعما مكان كل يوم مسكيناً ويفطرا، ثم نسخ ذلك بالآية التي بعدها فقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ إلى قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، فنسختها هذه الآية، فكان أهل العلم يرون ويرجون الرخصة تثبت للشيخ الكبير والعجوز الكبيرة، إذا لم يطيقا الصوم، أن يفطرا ويطعما كل يوم مسكيناً، وللحبلى إذا خشيت على ما في بطنها، وللمرضع إذا ما خشيت على ولدها.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. قال ابن جرير^(٢): يعني إن كنتم تعلمون

(١) أخرجه ابن جرير (١٣٢/٢ - ١٣٣) وفيه انقطاع.

(٢) انظر تفسيره (١٤٤/٢).

خير الأمرين لكم أيها الذين آمنوا، من الإفطار والفدية والصوم على ما أمركم الله به.

قوله عز وجل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْنَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٨٥).

يمدح تعالى هذا الشهر؛ لأنه أنزل فيه القرآن، وفرض صيامه على المسلمين. وروى الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضمين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»^(١). وقال ابن عباس: نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة، وكان الله يحدث لنبه ما يشاء، ولا يجيء المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه، وذلك قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان﴾، أي: إرشاداً للناس إلى سبيل الحق. ﴿وبيّنات﴾، أي: وواضحات من الهدى، يعني: من البينات الدالة على حدود الله وفرائضه وحلاله وحرامه.

(١) أخرجه أحمد (١٠٧/٤) وابن جرير (١٤٥/٢)، والطبراني (٧٥/٢٢)، وهو حديث حسن.

(٢) سورة هود: الآية ١٢٠.

وقوله: ﴿والفرقان﴾، يعني: والفصل بين الحق والباطل. وقوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾، قال ابن عباس في قوله: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ قال: هو إهلاله بالدار، يريد إذا هلّ وهو مقيم.

وقوله تعالى: ﴿ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾. قال البغوي^(١): أباح الفطر لعذر المرض والسفر، وأعاد هذا الكلام ليعلم أن هذا الحكم ثابت في الناسخ ثبوته في المنسوخ.

وقوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾، عن أبي حمزة قال: سألت ابن عباس عن الصوم في السفر فقال: يسر وعسر، فخذ بيسر الله. وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه: «كنا نساfer مع النبي ﷺ فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾، أي: إنما أرحص لكم في الإفطار للمرض والسفر، لإرادته بكم اليسر، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم.

وقوله: ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾، أي: ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال تعالى: ﴿فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذاكم آباءكم أو أشد ذكراً﴾^(٣).

قال البغوي^(٤): ﴿ولتكبروا الله﴾ ولتعظموا الله، ﴿على ما هداكم﴾ أرشدكم

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (ح/١٩٤٧)، ومسلم (٢/٧٨٧).

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٠٠.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (١/١٠٩).

إلى ما رضي به من صوم شهر رمضان، وخصكم به دون سائر أهل الملل. قال ابن عباس: هو تكبيرات ليلة الفطر. ﴿ولعلكم تشكرون﴾ الله على نعمه.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦).

قال البغوي^(١): روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قالت يهود أهل المدينة: يا محمد كيف يسمع ربنا دعاءنا؟ وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء مسيرة خمسمائة عام؟ وأن غلط كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت هذه الآية. وقال الضحاك: سأل بعض الصحابة النبي ﷺ فقالوا: أ قريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. وفيه إضمار، كأنه قال: فقلت لهم: ﴿إني قريب﴾ منهم بالعلم لا يخفى علي شيء، كما قال تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾^(٢). ثم ساق سنده عن أبي موسى الأشعري قال: «لما غزا رسول الله ﷺ خيبراً، وتوجه رسول الله ﷺ إلى خيبر، أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾، روى الإمام أحمد، عن أبي سعيد رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الأخرى، وإما أن يصرف عنه من السوء

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١١٠).

(٢) سورة ق: الآية ١٦.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٢٩٩٢)، ومسلم (ح/٢٧٠٤).

مثلها. قالوا: إذا نكث؟ قال: الله أكثر»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فليستجيبوا لي﴾، أي: فليجيبوا لي بالطاعة أجبههم بالعطاء. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول دعوت فلم يستجب لي»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وليؤمّنوا بي لعلمهم يرشدون﴾، أي: لكي يهتدوا.

قوله عز وجل: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَاحِ الرَّفْثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ مِّنْ لِّيَاسٍ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِهِنَّ عِلْمٌ اللَّهُ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرِبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾^(٣).

الرفث: كناية عن جماع. قال ابن عباس: إن الله حيي كريم يكنى كل ما ذكر في القرآن من المباشرة والملازمة، والإفشاء والدخول والرفث، فإنما عنى به الجماع، وقال أيضاً: كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناساً من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن﴾ الآية.

(١) أخرجه أحمد (١٨/٣)، وابن أبي شيبة (٢٠١/١٠)، والبخاري في الأدب المفرد

(ح/٧١٠)، والحاكم (٤٩٣/١)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٦٣٤٠)، ومسلم (ح/٢٧٣٥).

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله إني أردت أهلي البارحة على ما يريد الرجل أهله، فقالت: إنها قد نامت، فظننتها تعتل، فواقعتها، فنزل في عمر: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾».

وقوله تعالى: ﴿هن لباس لكم﴾، أي: سكن لكم. ﴿وأنتم لباس لهن﴾. كما قال تعالى: ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾^(٣)، وقال الربيع بن أنس: هن فراش لكم وأنتم لحاف لهن.

وقوله تعالى: ﴿فالآن باشروهن﴾، أي: جامعوهن. ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾. قال قتادة: وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم بإباحة الأكل والشرب والجماع في اللوح المحفوظ.

وقوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾، في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: «لما نزلت هذه الآية وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود عمدت إلى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادتي، قال: فجعلت أنظر إليهما فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت، فقال: إن وسادك إذاً لعريض. إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل»^(٤)، وروى مسلم وغيره عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال،

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٩.

(٢) سورة النبأ: الآية ١٠.

(٣) سورة غافر: الآية ٦١.

(٤) أخرجه البخاري (ح/٤٥٠٩ و ٤٥١٠)، ومسلم (٢/٧٦٦ و ٧٦٧).

ولا الفجر المستطيل، ولكن الفجر المستطير في الأفق»^(١). ولأحمد والترمذي عن طلق أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا ولا يهدينكم الساطع المصعد، فكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر»^(٢). وقال ابن عباس: هما فجران، فأما الذي يسطع في السماء فليس يحل ولا يحرم شيئاً، ولكن الفجر الذي يستتير على رؤوس الجبال هو الذي يحرم الشراب. رواه عبد الرزاق.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ في الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا، فقد أفطر الصائم». ولمسلم: «و غابت الشمس»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾. قال ابن عباس: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان، أو في غير رمضان، فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضي اعتكافه.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، أي: التي نهاكم عنها. ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴿فَيَنجُوا مِنَ الْعَذَابِ﴾، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٤).

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

(١) أخرجه مسلم (٢/٧٦٨ و ٢٦٩).

(٢) أخرجه أبو داود (ح/٢٣٤٨)، والترمذي (ح/٧٠٥)، وقال: «حسن غريب» وابن خزيمة (ح/١٩٣٠)، ولم أقف عليه عند أحمد، والحديث حسن، ومعنى قوله ﷺ: «ولا يهدينكم» أي: «لا تنزعجوا للفجر المستطيل، فتمتنعوا عن السحور».

(٣) أخرجه البخاري (ح/١٩٥٤) ومسلم (ح/١١٠٠).

(٤) سورة الحديد: الآية ٩.

قال ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بيّنة، فيجحد المال، ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام. وقال مجاهد: لا تخاصم وأنت ظالم. وقال قتادة: لا تدل بمال أخيك إلى الحاكم وأن تعلم أنك ظالم؛ فإن قضاءه لا يحل حراماً. وفي الصحيحين، عن أم سلمة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار، فليحملها أو يذرها»^(١).

قال قتادة: «اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً، ولا يحق لك باطلاً، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى، وتشهد به الشهود، والقاضي بشر يخطئ ويصيب، واعلموا أن من قضى له بباطل أن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المبطل للحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق في الدنيا». والله أعلم.



(١) أخرجه البخاري (ح/ ٢٦٨٠)، ومسلم (ح/ ١٧١٣).

الدرس الحادي والعشرون

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَيِّجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا إِنَّا بِاللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفَنَاءُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتِلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنَّهُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَقْلُوا بَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ وَاحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ۞

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قال العوفي عن ابن عباس: «سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت هذه الآية ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس﴾ يعلمون بها حل دينهم وعدة نسائهم ووقت حجهم».

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الأهلة مواقيت للناس. فصوموا لرؤيته، وافطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يوماً»^(١). رواه عبد الرزاق.

وقوله تعالى: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ روى البخاري عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾.

وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾، أي: اتقوا الله، فافعلوا ما أمركم به واتركوا ما نهاكم عنه لتفوزوا غداً إذا وقفت بين يديه.

قوله عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا إِنَّا اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

(١) أخرجه عبد الرزاق (٤/١٥٦)، والبيهقي (٤/٢٠٥)، وهو حديث صحيح.

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: إن ذلك في النساء والذرية، ومن لم ينصب لك الحرب منهم. وقال ابن عباس: يقول: لا تقتلوا النساء ولا الصبيان ولا الشيخ الكبير ولا من ألقى إليكم السلام وكف يده، فإن فعلتم هذا فقد اعتديتم. وقال الربيع: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من يقاتله، ويكفّ عم كفّ عنه حتى نزلت براءة.

قوله عز وجل: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفِفْتُهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۖ إِنِ اتَّبَعُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٩٢﴾.

قال البغوي^(١): أصل الثقافة الحدّ والبصر بالأمر، ومعناه: واقتلوهم حيث أبصرتم مقاتلتهم وتمكنتم من قتلهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، وذلك أنهم أخرجوا المسلمين من مكة. فقال: أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم.

وقوله تعالى: ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ قال مجاهد وغيره: يقول: الشرك أشد من القتل.

وقوله تعالى: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم.

قال ابن كثير^(٢): وقوله: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام﴾ كما جاء في الصحيحين: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، وإنها ساعتي هذه حرام

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١١٦).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٢٧).

بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شجره، ولا يختلى خلاه، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ، فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم^(١)، يعني بذلك صلوات الله وسلامه عليه قتاله أهله يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة وقتلت رجال منهم عند الخدمة، وقيل صلحاً؛ لقوله: «من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»^(٢).

وقوله: ﴿حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾ يقول تعالى: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام﴾ إلا أن يبدءوكم بالقتال فيه، فلکم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعاً للصائل، كما بايع النبي ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال؛ لما تألبت عليه بطون قريش، ومن والاهم من أحياء ثقيف، والأحابيش عامئذ، ثم كفّ الله القتال بينهم، فقال: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾^(٣). وقال: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾^(٤).

وقوله: ﴿فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾، أي: فإن تركوا القتال في الحرام، وأنابوا إلى الإسلام والتوبة؛ فإن الله يغفر ذنوبهم؛ ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله، فإنه تعالى لا يتعاضمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه انتهى.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (ج/١٧٨٠). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سورة الفتح: الآية ٢٤.

(٤) سورة الفتح: الآية ٢٥.

قوله عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٩٣).

قال البغوي^(١): وقاتلهم، يعني المشركين حتى لا تكون فتنة، أي: شرك، يعني قاتلوهم حتى يسلموا، فلا يقبل من الوثني إلا الإسلام، فإن أبى قُتل، يكون الدين، أي: الطاعة والعبادة لله وحده، فلا يعبد شيء دونه. قال نافع: جاء رجل إلى ابن عمر في فتنة ابن الزبير، فقال: ما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرم دم أخي قال: ألا تسمع ما ذكره الله عز وجل: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ (٢) فقال: ابن أخي، ولأن اعتبر^(٣) بهذه الآية ولا أقاتل، أحب إلي من أن اعتبر بالآية التي يقول الله عز وجل: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ (٤) قال: ألم يقل الله ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ قال: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً وكان الرجل يفتن في دينه، إما يقتلونه أو يعذبونه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوهم حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ قال الربيع: هم المشركون. وقال مجاهد: ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ يقول: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم.

قوله عز وجل: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩٤).

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١١٦).

(٢) سورة الحجرات: الآية ٩.

(٣) في هامش الأصل: «العله اغتر»، والمثبت كما هو عند البغوي، وهو الصواب.

(٤) سورة النساء: الآية ٩٣.

قال ابن عباس وغيره: «لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في ست من الهجرة، وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة، وهو شهر حرام، حتى قاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين، وأقصه الله منهم، فنزلت في ذلك هذه الآية ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾ وعن جابر بن عبد الله قال: «لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزي ونغزو، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ»^(١). رواه أحمد.

وقوله تعالى: ﴿من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ سمي الجزاء باسم الابتداء، كما قال تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾^(٢) قال ابن كثير^(٣): أمر تعالى بالعدل حتى في المشركين.

وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أمر لهم بطاعة الله وتقواه، وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة.

قوله عز وجل: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١٩٥).

قال ابن عباس في قوله: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾: ليس ذلك في القتال إنما هو في النفقة أن تمسك بيدك عن النفقة في سبيل الله، ولا تلق بيدك إلى التهلكة.

وروى أبو داود وغيره عن أسلم أبي عمران قال: «حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فقال ناس:

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٤ و ٣٣٥) بسند صحيح.

(٢) سورة الشورى: الآية ٤٠.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٢٨).

ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية منكم، إنما نزلت فينا. صحبنا رسول الله ﷺ، وشهدنا معه المشاهد، ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار نجيا، فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ، ونصره حتى فشا الإسلام، وكثر أهله، وكنا قد آثرنا على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فارجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهم، فتزل فينا ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد^(١).

وروى ابن مردويه عن النعمان بن بشير في قوله ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ أن يذنب الرجل الذنب فيقول: لا يغفر لي، فأنزل الله ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري^(٢): والأول أظهر، لتصدير الآية بذكر النفقة، فهو المعتمد في نزولها. وأما قصرها عليه ففيه نظر؛ لأن العمدة بعموم اللفظ إلى أن قال: وأما مسألة حمل الواحد على العدد الكثير من العدو، فصرح الجمهور بأنه إن كان لفرط شجاعته، وظنه أنه يهرب العدو بذلك، أو يجرىء المسلمين عليهم، أو نحو ذلك من المقاصد الصحيحة، فهو حسن. ومتى كان مجرد تهور فممنوع، ولا سيما إن ترتب على ذلك وهن في المسلمين والله أعلم انتهى.



(١) أخرجه أبو داود (ح/٢٥١٢)، والترمذي (ح/٢٩٧٢) وقال: «حديث حسن صحيح غريب»، وابن جرير (٢/٢٠٤)، والطيالسي (ح/٥٩٩)، والحاكم (٢/٨٤ و ٢٧٥)، وصححه ووافقه الذهبي. قلت: وهو صحيح.

(٢) انظر (٨/٣٤).

الدرس الثاني والعشرون

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ سُلْكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَعَوْا إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا بِحَاظِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَكَرَّذُوا فَلَا بَأْسَ خَيْرَ الزَّادِ النَّفَقَى وَاتَّقُوا يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمَنْ الْنَّاسُ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً

وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آدَبَ النَّارَ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا
وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي
يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا
أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ .

لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعطف بذكر الجهاد، شرع في بيان المناسك فقال: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾. قال ابن عباس: من أحرم بحج أو عمره فليس له أن يحل حتى يتمها. تمام الحج يوم النحر، إذا رمى جمرة العقبة وزار البيت، فقد حل من إحرامه كله، وتمام العمرة إذا طاف بالبيت وبالصفا والمروة، فقد حل.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾. قال مجاهد: الحصر الحبس، كأنه يقول: أيما رجل اعترض له في حجته وعمرته فإنه يبعث بهديه من حيث يحبس. وقال قتادة: هو الخوف والمرض والحبس إذا أصابه ذلك بعث بهديه، فإذا بلغ الهدى محله حل. وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: كل شيء حبس المحرم فهو إحصار. وقال ابن عباس: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ شاة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾، أي: الحرم.

قال ابن كثير^(١): (إن النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم. فأما في حال

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٣٢).

الأمن والوصول إلى الحرم، فلا يجوز الحلق، حتى يبلغ الهدي محله، ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة، إن كان قارناً، أو من فعل أحدهما إن كان مفرداً أو متمتعاً، كما ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت: «يا رسول الله ما شأن الناس أحلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال: إني لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر»^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفَدِ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾، عن كعب بن عجرة قال: «حملت إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهي فقال: ما كنت أرى أن ^{المجهد} ~~الحج~~ يبلغ بك هذا، أما تجد شاة؟ قلت: لا. قال: صم ثلاثة أيام، وأطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك. فنزلت في خاصة وهي لكم عامة»^(٢). رواه البخاري وغيره.

وفي رواية لأحمد وغيره: «يؤذيك هوام رأسك؟ قلت: نعم. قال: فاحلقه وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك نسيكة»^(٣).

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ مَنِ تَمَنَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١٩٦).

قال ابن كثير^(٤): (وقوله: ﴿فإذا أمنتُم مني تمنع بالعمرة إلى الحج﴾ فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي، أي: فإذا تمكنتم من أداء المناسك، فمن كان منكم متمتعاً بالعمرة إلى الحج، وهو يشمل من أحرم بهما أو أحرم بالعمرة أولاً، فلما فرغ منها

(١) أخرجه البخاري (ح/١٥٦٦)، ومسلم (ح/١٢٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (ح/١٨١٦)، ومسلم (ح/١٢٠١).

(٣) أخرجه أحمد (٤/٢٤٢).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٣٣).

أحرم بالحج، وهذا هو التمتع الخاص وهو المعروف في كلام الفقهاء. والتمتع العام يشمل القسمين كما دلت عليه الأحاديث الصحاح). انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، أي: فليذبح ما تيسر من الهدى وأقله شاة. ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾، أي: في أيام المناسك. قال عطاء وغيره: الأولى أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر، أو من حين يحرم، قاله ابن عباس وغيره. وقال العوفي عن ابن عباس: إذا لم يجد هدياً فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يوم عرفة الثالث فقد تم صومه، وسبعة إذا رجع إلى أهله.

وهل يجوز صيامها أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء، والراجح الجواز، لما روى البخاري عن ابن عمر وعائشة قالا: «لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لم يجد الهدى»^(١).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. قال ابن عباس: هم أهل الحرم. وقال طاوس: المتعة للناس لا لأهل مكة، من لم يكن أهله من الحرم. وقال مكحول في قوله ذلك: ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. قال: من كان دون الميقات. واختار ابن جرير: أنهم أهل الحرم، ومن كان منه على مسافة لا يقصر فيها الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي فيما أمركم ونهاكم. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره وارتكب نهيه.

قوله عز وجل: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَكْرَدُوا فَالَيْكُمْ خَيْرُ الْآزَادِ النَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا لِيَّ الْأَلْبَابِ﴾^(١٩٧).

(١) أخرجه البخاري (ح/ ١٩٩٧ و ١٩٩٨).

قال ابن عباس: لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في شهور الحج، من أجل قول الله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾. وقال ابن عمر: هي شوال وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة. قال ابن جرير^(١): وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب.

وقوله تعالى: ﴿فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ يقول: من أحرم بحج أو عمرة.

وقوله: ﴿فلا رفث﴾، أي: من أحرم بحج أو عمرة فليجتنب الرفث وهو الجماع. وكان ابن عمر يقول: الرفث: إتيان النساء، والتكلم بذلك للرجال والنساء، إذا ذكروا ذلك بأفواههم. وقال ابن عباس: الرفث: التعريض بذكر الجماع، وهي العراة^(٢) في كلام العرب، وهو أدنى الرفث. وقال عطاء: الرفث الجماع وما دونه من قول الفحش. وقال طاوس: هو أن يقول للمرأة إذا حللت أصبتك.

وقوله: ﴿ولا فسوق﴾. قال ابن عباس وغيره: هي المعاصي. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿ولا جدال في الحج﴾. قال مجاهد: قد بين الله أشهر الحج، فليس فيه جدال بين الناس. وقال ابن عباس: ﴿ولا جدال في الحج﴾. قال: المرء في الحج. وقال ابن مسعود في قوله: ﴿ولا جدال في الحج﴾. قال: أن

(١) انظر «جامع البيان» (٢/ ٢٦٠).

(٢) ما قبح من الكلام، انظر «لسان العرب» مادة: عرب.

(٣) أخرجه البخاري (ح/ ١٥٢١)، ومسلم (ح/ ١٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تماري صاحبك حتى تغضبه، وكذا قال ابن عباس وغيره، وقال ابن عمر: الجدل في الحج السباب والمنازعة، وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده، غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١). رواه أحمد.

وقوله تعالى: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾، لما نهاهم عن إتيان القبيح حثهم على فعل الجميل، وأخبرهم أنه عالم به وسيجزئهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾. روى البخاري وغيره عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزوجون، ويقولون: نحن المتوكلون فأنزل الله ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا، أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى، كما قال تعالى: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سواكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير﴾^(٣). وقال مقاتل: «لما نزلت هذه الآية ﴿وتزودوا﴾ قام رجل من فقراء المسلمين فقال: يا رسول الله ما نجد ما نتزوده، فقال رسول الله ﷺ: تزود ما تكف به وجهك عن الناس، وخير ما تزودتم التقوى»^(٤). رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿واتقون يا أولي الألباب﴾، أي: العقول والأفهام، أي احذروا عقابي وعذابي لمن خالفني وعصاني.

(١) أخرجه عبد بن حميد في المنتخب (٧٨/٣)، وسنده ضعيف، ووهم المؤلف رحمه الله، فظن أن الحديث أخرجه أحمد وليس كذلك.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٣١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (١/١٣٦/١).

قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِينَ ۝ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾.

روى البخاري وغيره عن ابن عباس قال: «كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في الموسم فتزلت: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ في مواسم الحج»^(١). وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده. وروى أحمد وغيره عن أبي أمامة التيمي قال: قلت لابن عمر: إنا نكري فهل لنا من حج؟ قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون بالمعروف، وترمون الجمار، وتحلقون رءوسكم؟ قال: قلنا: بلى. فقال ابن عمر: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني فلم يجبه، حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ فدعاه النبي ﷺ فقال: أنتم حجاج»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾. روى أحمد وأهل السنن عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفات، ثلاثاً، فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك»^(٣). الحديث.

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٥١٩).

(٢) أخرجه أحمد (١/١٥٥)، والطبري (٢/٢٨٢)، وهو حديث حسن.

(٣) أخرجه أحمد (٤/٣٣٥)، وأبو داود (ح/١٩٤٩)، والترمذي (ح/٨٨٩)، والنسائي (٥/٢٥٦)، وابن ماجه (٢/١٠٠٣)، والحاكم (١/٤٦٤)، وصححه ووافقه الذهبي. وهو كما قال.

وفي حديث جابر الطويل: «فلم يزل واقفاً - يعني بعرفة - حتى غابت الشمس وبدأت الصفرة قليلاً، حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه. ودفع رسول الله ﷺ وقد شقق للقصواء الزمام، حتى أن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: أيها الناس السكينة السكينة. كلما أتى جبلاً أرخى لها قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصوى حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبره وهله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس»^(١). الحديث رواه مسلم.

وروى أحمد عن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ قال: «كل عرفات موقف وادفعوا عن عرفة، وكل مزدلفة موقف وادفعوا عن محسر، وكل فجاج مكة منحراً، وكل أيام التشريق ذبح»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿واذكروه كما هداكم﴾، أي: واذكروه بالتوحيد والتعظيم كما هداكم لدينه، ومناسك حجه. ﴿وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾، أي: وقد كنتم من قبل هذا الهدى لمن الضالين الجاهلين بدينهم.

وقوله تعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾. قال أهل التفسير: كانت قريش وحلفاؤها ومن دان بدينها وهم الحمس، يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن أهل الله، وقطان حرمه، فلا نخلف الحرم، ولا نخرج منه، ويتعظمون أن يقفوا مع سائر العرب بعرفات، فإذا أفاض الناس من عرفات أفاض الحمس من المزدلفة، فأمرهم الله أن يقفوا بعرفات، ويفيضوا منها

(١) أخرجه مسلم (ح/١٢١٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٨٢)، والطبراني (٢/١٣٨)، والبيهقي (٥/٢٣٩)، وهو حديث صحيح.

إلى جمع مع سائر الناس. وقال الضحاك بن مزاحم: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ قال: هو إبراهيم. وروى عن ابن عباس ما يقتضي أن المراد بالإفاضة ههنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ كثيراً ما يأمر الله بذكره واستغفاره بعد قضاء العبادات، كما ورد ذلك في أدبار الصلوات وغيرها، ومن ذلك: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(١). وكان ﷺ يستغفر بعد السلام ثلاثاً^(٢)؛ وفائدة الاستغفار الذل والانكسار بين يدي الجبار، كما في سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». قال رسول الله ﷺ: «من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة»^(٣). رواه البخاري.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ ۚ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۚ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ

(١) أخرجه البخاري (ح/٨٣٤)، ومسلم (ح/٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (ح/٥٩١) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٦٣٠٦). من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٠﴾ .

يأمر تعالى بذكره دائماً والإكثار منه بعد قضاء المناسك . قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحملات ويحمل الديات ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على محمد ﷺ ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾، أي: حظ ونصيب، قال ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾، وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، فأنزل الله ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾ .

وقوله تعالى: ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ . قال ابن عباس: الأيام المعدوات أيام التشريق، والأيام المعلومات أيام العشر . وفي الحديث عن النبي ﷺ: «لا تصوموا هذه الأيام — يعني أيام منى — فإنها أيام أكل وشرب وذكر لله عز وجل»^(١) . رواه ابن جرير . وقال ابن عباس وغيره: الأيام المعدوات أربعة أيام: يوم النحر وثلاثة بعده .

وقوله تعالى: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى﴾ . قال قتادة: قوله: ﴿فمن تعجل في يومين﴾، أي: من أيام التشريق

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٤٢)، والنسائي في الكبرى (٢/١٦٥) من حديث حمزة الأسلمي رضي الله عنه، وهو حديث صحيح، وأخرجه ابن جرير (٢/٣٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

﴿فلا إثم عليه﴾، ومن أدركه الليل بمنى من اليوم الثاني من قبل أن ينفر، فلا نفر له حتى تزول الشمس من الغد، ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾، يقول: ومن تأخر إلى اليوم الثالث من أيام التشريق ﴿فلا إثم عليه﴾. قال ابن مسعود: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾، أي: غفر له. ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾. قال: غفر له. وقال أبو العالية: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه﴾، قال: ذهب إثمك كله إن اتقى فيما بقي. وقال قتادة: ذكر لنا أن ابن مسعود كان يقول: من اتقى في حجه غفر له ما تقدم من ذنبه، أو ما سلف من ذنوبه.

وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾، أي: اتقوا الله بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه، ﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ فيجزىكم بأعمالكم. والله أعلم.



الدرس الثالث والعشرون

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اسْكُنْ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْإِمَّهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَهُم مِّن ءَايَمِ بَيْنَهُ وَمَن يُبَدِّل نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم

مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ
أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٦﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾.

قال السدي: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، وهو حليف لبي زهرة، وأقبل إلى النبي ﷺ بالمدينة فأظهر له الإسلام، فأعجب النبي ﷺ ذلك منه وقال: إنما جئت أريد الإسلام والله يعلم أنني صادق، وذلك قوله: ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾، ثم خرج من عند النبي ﷺ، فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر، فأحرق الزرع وعقر الحمر، فأنزل الله عز وجل: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل﴾.

وقال أبو معشر: سمعت سعيداً المقبري يذكر محمد بن كعب فقال سعيد: إن في بعض الكتب أن الله عبداً ألتستهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر، لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين، يجترون الدنيا بالدين. قال الله تبارك وتعالى: أعلي يجترون وبني يفترون؟ فبعزتي لأبعثن عليهم فتنة ترك الحلیم منهم حيراناً. فقال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله جل ثناؤه، فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله؟ قال: قول الله عز وجل: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾، فقال سعيد: قد عرفت فيم أنزلت هذه الآية؟ فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد.

وقال الضحاك: ﴿وإذا تولى﴾ أي ملك الأمر وصار والياً ﴿سعى في الأرض﴾. قال مجاهد: إذا ولي يعمل بالعدوان والظلم، فأمسك الله المطر وأهلك الحرث والنسل.

وقال قتادة: قوله: ﴿وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ﴾ يقول: شديد القسوة في معصية الله، جدّال بالباطل، وإذا شئت رأيته عالم اللسان جاهل العمل، يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(١). رواه البخاري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾، أي: إذا وعظ هذا الفاجر حملته العزة والغضب على الفعل بالإثم. ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ﴾، أي: كافية ﴿وَلِبَئْسَ الْمِهَادُ﴾ الفراش. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ ذَٰلِكُمُ النَّارِ وَعْدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(٢). قال ابن مسعود: إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد: اتق الله، فيقول: عليك بنفسك.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

قال ابن عباس وغيره: نزلت في صهيب بن سنان الرومي، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقيه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له: ربح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية.

وعن صهيب قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش: يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك، وتخرج أنت ومالك؟ والله لا يكون ذلك أبداً فقلت: أرايتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم. فدفعت إليهم مالي

(١) أخرجه البخاري (ح/٧١٨٨)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٢.

فخلوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ريح صهيب، ربح صهيب. مرتين». رواه ابن مردويه^(١).

وقال ابن عباس: نزلت في سرية الرجيع. وعن المغيرة قال: بعث عمر جيشاً فحاصروا أهل حصن، فتقدم رجل من بجيلة فقاتل فقتل، فأكثر الناس يقولون فيه: ألقى بيده إلى التهلكة. قال: فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: كذبوا، أليس الله عز وجل يقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾؟

قال ابن كثير^(٢): وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿إِن اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَن لَّهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَن أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾^(٣).

وقال ابن جرير^(٤): هي عامة في كل من باع نفسه في طاعة الله، وإن كان نزولها بسبب من الأسباب، هذا معنى كلامه.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

قال ابن عباس وغيره: ﴿ادخلوا في السلم﴾ يعني الإسلام. ﴿كافة﴾ جميعاً.

(١) كما عزا له ابن كثير في تفسيره (٢٤٧/١)، وسنده ضعيف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٤٧/١).

(٣) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٤) انظر «جامع البيان» (٣٢٢/٢).

وقال مجاهد: أي اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ فيما يأمركم به ﴿إنه لكم عدو مبين﴾.

وقوله تعالى: ﴿فإن زلتم﴾، أي: ضللتُم ﴿من بعد ما جاء تكم البينات﴾، أي: الدلالات الواضحات ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾. قال قتادة: عزيز في نعمته، حكيم في أمره.

قوله عز وجل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

يقول تعالى مهدداً للكافرين: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله﴾ يوم القيامة ﴿في ظلل من الغمام﴾ لفصل القضاء والملائكة، كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾^(٢). وفي حديث الصور: «ويتزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة، ولهم زجل من تسبيحهم يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبحان قدوس رب الملائكة والروح، سبحان قدوس، سبحان ربنا الأعلى، سبحان ذي السلطان والعظمة، سبحانه سبحانه أبداً أبداً»^(٣). رواه ابن جرير.

قال سفيان بن عيينة: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه، فتفسيره:

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٨.

(٢) سورة الفجر: الآيتان ٢١ و ٢٢.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢/ ٣٣٠ - ٣٣١) من حديث أبي هريرة، وسنده ضعيف.

قراءته^(١) والسكوت عليه، ليس لأحد أن يفسره إلا الله تعالى ورسوله^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾، أي: فصل الله القضاء بين الخلق، وجزي كل بعمله، ودخل كل منزله: فريق في الجنة وفريق في السعير، كما قال تعالى: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾^(٣).

(١) زاد في «اللالكائي» (٣/٤٣١): «لا كيف ولا مثل».

(٢) قلت: استدل أهل السنة — رحمهم الله — بهذه الآية، وما شابهها على إثبات مجيء الله تعالى يوم القيامة، للفصل بين العباد، وهو مجيء حقيقي، يليق به تعالى، من غير تكيف، ولا تمثيل ولا تشبيه، ولا تعطيل.

واعلم — وفقني الله وإياك لاجتناب البدع والمبتدعين — أن مراد السلف من قولهم: «لا يفسر ولا يؤول» وقولهم: «لا يفسره إلا الله تعالى»، كما قاله ابن عيينة رحمه الله، وقولهم: «لا كيف ولا معنى» فمرادهم من هذا الكلام هو نفي المعنى الذي أحدثته المعطلة الجهمية، وأذناهم: أهل البدع والضلال من معتزلة وأشاعرة.

إذ صرفوا هذه النصوص عن ظاهرها إلى معانٍ تخالفها فأولوا «الاستواء» بالاستيلاء، وأولوا «اليد» وفسروها بالنعمة والقدرة، وهكذا في باقي آيات الصفات.

وإياك أن تفهم ما فهمه المفوض، إذ استنبط من هذا الكلام الوارد عن السلف، أن آيات الصفات تثبت لفظاً فقط دون معنى.

فهذا الفهم لا يفهمه إلا من أعرض عن كتب أهل السنة، واشتغل بكتب أهل البدع والضلال: المبنية على زبالة الأذهان، وكناسة الأفكار، وقولهم هذا يلزم عليه لوازم عديدة منها: استجهال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأنهم كانوا يقرؤون هذه الآيات المتعلقة بالصفات، ولا يعرفون معنى ذلك، ولا ما أريد به، ومنها: أن رسول الله ﷺ كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه، وانظر مزيد بسط حول هذا المذهب الخبيث — مذهب المفوضة — كتاب ابن تيمية رحمه الله «درء تعارض العقل والنقل» (١/٢٠٧)، وكتاب ابن القيم رحمه الله «مختصر الصواعق المرسلة» (٧٣/١ — ٧٤)، والله أعلم.

(٣) سورة الزمر: الآية ٧٥.

قوله عز وجل: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَاتِنَا يَنْتَهُوا وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾.

يقول تعالى: ﴿سل﴾ يا محمد ﴿بني إسرائيل﴾ كم آتيناهم من آية بينة، أي: حجة قاطعة بصدق موسى فيما جاءهم به، كاليد، والعصا، وفلق البحر، وضرب الحجر، وتظليل الغمام، وغير ذلك من الآيات، ومع هذا أعرض كثير منهم وبدلوا وكذبوا الأنبياء، ولهذا قال: ﴿ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾، كما قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبش القرار﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝﴾.

يقول تعالى: ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾ فأثروها على الآخرة، ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ حيث آثروا الآخرة وأعرضوا عما يشغلهم عنها. ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ كما قال تعالى: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا: إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾، أي: يعطي من يشاء من خلقه عطاء كثيراً بلا حصر في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾^(٣).

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٨.

(٢) سورة المصطفين: الآيات ٢٩ - إلى نهاية السورة.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٢١.

قوله عز وجل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

قال ابن عباس: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلَفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾، أي: الكتب بالحق، أي الصدق والعدل، ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من أمور دينهم ودنياهم. ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾، أي: الكتاب، ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^(١).

قال الربيع بن أنس في قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾، أي: عند الاختلاف، أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف، أقاموا على الإخلاص لله عز وجل وعبادته وحده لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف، وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. قال أبو العالية: في هذه الآية المخرج من الشبهات، والضلالات، والفتن. وعن عائشة رضي الله عنها: «إن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك

(١) سورة الشورى: الآية ١٣.

فيما كانوا فيه يختلفون، أهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١). رواه البخاري ومسلم.

قوله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ أَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

قال عطاء: «لما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، اشتد عليهم الضر لأنهم خرجوا بلا مال، وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين، وآثروا مرضاة الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ، وأسرّ قوم النفاق، فأنزل الله تعالى تطييباً لقلوبهم ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا﴾. قال مجاهد وغيره: ﴿البأساء﴾ الفقر، ﴿والضراء﴾ السقم، ﴿وزُلْزَلُوا﴾ خوفوا من الأعداء. ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾، أي: ما زال البلاء بهم حتى استبطثوا النصر. قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾^(٢). وفي الحديث الصحيح: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»^(٣). والله أعلم.



(١) أخرجه مسلم (ح/٧٧٠)، ووهب ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره (٢٥٠/١) فنسب هذا الحديث إلى البخاري - رحمه الله - وليس كذلك، وقد تبعه على ذلك المؤلف - رحمه الله - فلينبه.

(٢) سورة العنكبوت: الآيات ١ - ٣.

(٣) أخرجه أحمد (٣٠٧/١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو حديث صحيح.

الدرس الرابع والعشرون

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ
وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ
عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى
أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ
الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ
يُقَدِّلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ
فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾
﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْ تَنَفَّعَ لِلنَّاسِ
وَلِأَثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ
الْيَتَامَى قُلْ لِإِصْلَاحٍ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَلَا وَفَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ
الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ عَنْهُ إِثْمُ اللَّهِ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ۞

قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَاللَّذِينَ الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾.

قال مقاتل: هذه الآية في نفقة التطوع، ومعنى الآية: يسألونك كيف ينفقون؟ فيبين لهم تعالى ذلك قال: ﴿قل ما أنفقتم من خير فلوللدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾، أي: اصرفوا نفقتكم في هذه الوجوه، كما في الحديث: «أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك»^(١)، قال ميمون بن مهران: هذه مواضع النفقة، ما ذكر فيها طبل ولا مزمار، ولا تصاوير الخشب، ولا كسوة الحيطان.

وقوله تعالى: ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾، أي: فيجازيكم عليه.

قوله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

قال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين، وإذا استغنيث أن يغيث، وإذا استنفر أن ينفر، وإن لم يحتج إليه قعد.

(١) أخرجه أحمد (٢٢٦/٢) عن أبي رمثة رضي الله عنه، والنسائي (٦١/٥) عن طارق المحاربي رضي الله عنه، وهو حديث صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَرِهَ لَكُمْ﴾، أي: شديد عليكم، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، لأن في الغزو إحدى الحسنين: إما الظفر والغنيمة، وإما الشهادة والجنة. ﴿وَعَسَى أَنْ تَحْبُوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾، فإن الذل في القعود. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبر بما فيه صلاحكم.

قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

سبب نزول هذه الآية: «أن رسول الله ﷺ بعث عبدالله بن جحش في جمادى الآخرة، قبل وقعة بدر، ونفراً معه سرية، فلقوا عمرو بن الحضرمي وهو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادى، وكانت أول رجب، ولم يشعروا، فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه»، قال ابن عباس: وإن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك، فقال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، إخراج أهل المسجد الحرام أكبر من الذي أصاب محمد ﷺ، والشرك أشد منه.

وقال ابن أسحاق: ﴿الفتنة أكبر من القتل﴾، أي: قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل ﴿وَلَا يَزَالُونَ

يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا»، أي: ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين.

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿قُلْ قَاتِلْ فِيهِ كَبِيرٌ عَظِيمٌ﴾، تم الكلام ههنا، ثم ابتداء فقال: ﴿وَصِدْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وقال ابن جرير^(٢) في قوله تعالى: ﴿وَصِدْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفِّرْ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾، (وتأويل الكلام: وصد عن سبيل الله وكفر به وعن المسجد الحرام، وإخراج أهل المسجد الحرام، وهم أهله وولاته، أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، فالصد عن سبيل الله مرفوع بقوله: ﴿أكبر عند الله﴾، وقوله: ﴿وإخراج أهله منه﴾، عطف على الصد، ثم ابتداء الخبر عن الفتنة فقال: ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾، يعني الشرك أعظم وأكبر من القتل، يعني: مَنْ قَتَلَ ابْنَ الْحَضْرَمِيِّ الَّذِي اسْتَنْكَرْتُمْ قَتْلَهُ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، انتهى.

قال ابن هشام: وقال عبد الله بن جحش:

تعدون قتلي في الحرام عزيمة	وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد	وكفر به والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله	لئلا يرى الله في البيت ساجد

وروى ابن جرير عن جندب بن عبد الله قال: لما كان من أمر عبد الله بن جحش وأصحابه، وأمر ابن الحضرمي ما كان، قال بعض المسلمين: إن لم يكن أصابوا في سفرهم، أظنه قال: وزراً، فليس لهم فيه أجر، فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٣٩).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢/٣٤٩).

آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٩﴾ قال قتادة: أثنى الله على أصحاب نبيه محمد ﷺ أحسن الثناء، هؤلاء خيار هذه الأمة، ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون، وأنه من رجا طلب، ومن خاف هرب.

قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾.

الخمير: ما خامر العقل، والميسر: القمار. وقال القاسم بن محمد: كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو ميسر.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ﴾.

قال ابن كثير^(١): (أما إثمهما فهو في الدين، وأما المنافع فدنيوية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾، قال ابن جرير: يعني بذلك عز ذكره: والإثم بشرب هذه، والقمار بهذا، أعظم وأكبر مضرة عليهم من النفع الذي يتناولون بهما؛ وإنما كان ذلك كذلك لأنهم كانوا إذا سكروا وثب بعضهم على بعض، وقاتل بعضهم بعضاً، وإذا ياسروا وقع بينهم فيه بسببه الشر، فأداهم ذلك إلى ما يائثون به، ونزلت هذه الآية في الخمر قبل أن يصرح بتحريمها). انتهى.

وروى الإمام أحمد وغيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما نزلت تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في البقرة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فدعي عمر، فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾^(٢)، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٥٥).

(٢) سورة النساء: الآية ٤٣.

الصلاة نادى: أن لا يقربن الصلاة سكران، فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر فقرئت عليه، فلما بلغ ﴿فهل أنتم متهون﴾، قال عمر: انتهينا انتهينا^(١)، وزاد ابن أبي حاتم: «أنها تذهب المال وتذهب العقل»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قال ابن عباس وغيره: العفو ما يفضل عن أهلك، وفي الحديث الصحيح: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وكذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾، أي: كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها، كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعدته ووعيده. «لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة»، أي: في زوال الدنيا وبقاء الآخرة فتعملوا لها.

قوله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلِ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْ إِخْوَانِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ أَنْفُسُكُمْ عَنْ سُلُوكِ السُّبُلِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢٢٠).

قال ابن عباس: لما نزلت ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾، و﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون

(١) أخرجه أحمد (٥٣/١) وأبو داود (٣٦٧٠/ح)، والترمذي (ح/٣٠٥٣)، والنسائي (٢٨٦/٨ — ٢٨٧)، والحديث قال عن إسناده علي بن المديني: هذا إسناد صالح صحيح. وصححه الترمذي، وقال أبو زرعة: «عمرو بن شرحبيل — راوي هذا الحديث عن عمر — لم يسمع من عمر».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/١٥٠/ب).

(٣) أخرجه مسلم (ح/١٠٣٤) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

سعيراً، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾، رواه ابن جرير وغيره. وقال الربيع: للولي الذي يلي أمرهم فلا بأس عليه في ركوب الدابة أو شرب اللبن أو يخدمه الخادم، وقال السدي: كان العرب يشددون في اليتيم، حتى لا يأكلوا معه في قصعة واحدة، ولا يركبوا له بعيراً، ولا يستخدموا له خادماً، فجاءوا إلى النبي ﷺ فسألوه عنه فقال: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾، يصلح له ماله وأمره له خير، وأن يخالطه فيأكل معه ويطعمه، ويركب راحلته ويحمله، ويستخدم خادمه ويخدمه، فهو أجود.

﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾، فقال ابن زيد: والله يعلم حين تخلط مالك بماله، أتريد أن تصلح ماله، أو تفسده فتأكله بغير حق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبَكُمْ﴾، قال ابن عباس: لأخرجكم فضيقت عليكم ولكنه وسع ويسر، فقال: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عزيز في سلطانه، حكيم فيما صنع من تدبيره وترك الأعنات.

قال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: ولو شاء الله لضيق عليكم وأخرجكم، ولكنه وسع عليكم وخفف عنكم، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن، والله أعلم.

• • •

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٥٧/١).

الدرس الخامس والعشرون

﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَا أَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيَّنَ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢٦﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٧﴾ يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شَتَمْتُمْ وَقَدْ مَوَّا لَأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّلَقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٩﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٠﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٣٢﴾﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ وَلَا أُمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

قال علي ابن أبي طلحة في قوله: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾: استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿ولا أمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾، قال السدي: «نزلت في عبد الله بن رواحة، كانت له أمة سوداء فغضب عليها فلطمها، ثم فزع فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهما، فقال له: ما هي؟ قال: تصوم وتصلي وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، فقال: يا عبد الله هذه مؤمنة، فقال: والذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها، ففعل فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا: نكح أمته، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أحسابهم، فأنزل الله ﴿ولا أمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبتكم﴾».

وقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾.

قال البغوي^(١): هذا إجماع لا يجوز للمسلمة أن تنكح المشرك.

وقوله تعالى: ﴿أولئك يدعون إلى النار﴾، أي: معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على إثارة الدنيا على الآخرة، وهو موجب للنار. ﴿والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٤٣).

يأذنه»، أي بأمره، ﴿وبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٢٢٢).

روى مسلم وغيره عن أنس: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها، فقال النبي ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾، يعني الفرج، قاله ابن عباس وغيره، وروى الإمام أحمد وغيره عن عبد الله بن سعد الأنصاري أنه «سأل رسول الله ﷺ: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: ما فوق الإزار»^(٣). وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ﴾، أي: لا تجامعوهن حتى يطهرن من الحيض، ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾، أي: اغتسلن، ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾. قال ابن عباس: طوهن في الفروج ولا تعدوه إلى غيره. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾، من الذنب ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، أي: المنتزهين عن الأقدار والأذى، ومن ذلك إتيان الحائض والوطء في الدبر.

(١) أخرجه البخاري (ح/٥٠٩٠)، ومسلم (ح/١٤٦٦).

(٢) أخرجه مسلم (ح/٣٠٢).

(٣) أخرجه أحمد كما عزا له ابن كثير في تفسيره، ولم أجده في طبعة المسند، فلعله سقط منها. كما أنه روي مرفوعاً عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أخرجه أحمد (١/١٤).

وروي - أيضاً - مرفوعاً عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - : أخرجه أبو داود (ح/٢١٣)، وقال: ليس - يعني الحديث - بالقوي. وروي - أيضاً - مرفوعاً عن عائشة رضي الله عنها: أخرجه أحمد (٦/٧٢).

قوله عز وجل: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ^١ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّلْكُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

قال ابن عباس: الحَرْث موضع الولد، ﴿فأتوا حَرْثكم أنى شئتم﴾، أي: كيف شئتم مقبلة ومدبرة في صمام واحد. وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول: إذا جامع الرجل امرأته من دبرها في قبلها كان الولد، أحول، فنزلت ﴿نساؤكم حَرْث لكم فأتوا حَرْثكم أنى شئتم﴾.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: «نزلت هذه الآية في أناس من الأنصار، أتوا النبي ﷺ فسألوه فقال النبي ﷺ: ائتها على كل حال، إذا كان في الفرج»^(١)، وفي حديث آخر: «أقبل وأدبر واتق الدبر والحیضة»^(٢)، وروى الإمام أحمد وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأته في دبرها»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وقدموا لأنفسكم﴾، قال السدي: يعني الخير والعمل الصالح. وقال مجاهد: يعني إذا أتى أهله فليدعُ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً»^(٤).

(١) أخرجه أحمد (٢٦٨/١)، والطبراني (٢٣٧/١٢) بسنده ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد (٢٩٧/١)، والترمذي (ح/٢٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٣٠٢/٦)،

والطبري (٢٣٥/٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه أحمد (٤٤٤/٢) و٢٧٩، وأبو داود (ح/٢١٦٢)، والنسائي في الكبرى

(٣٢٣/٥)، وابن ماجه (ح/١٩٢٣)، وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه البخاري (ح/٣٢٨٣)، ومسلم (١٤٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، أي: خافوا الله فلا ترتكبوا ما نهاكم عنه. ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾، فيجازيكم بأعمالكم. ﴿وبشر المؤمنين﴾، المطيعين بجزيل ثواب الله لهم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٩) لَا يُوَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٠).

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾: لا تجعلن الله عرضة ليمينك ألا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير، وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيراً منها، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها»^(١).

وقوله تعالى: ﴿لا يواخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يواخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور رحيم﴾، عن عائشة مرفوعاً: «اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته: كلا والله، وبلى والله»^(٢)، رواه أبو داود، وعنها قالت: «هم القوم يتدارءون في الأمر فيقول هذا: لا والله، وبلى والله، وكلا والله، يتدارءون في الأمر، لا تعقد عليه قلوبهم»، وقالت أيضاً: «إنما اللغو في المزاحة والهزل، وهو قول الرجل: لا والله، وبلى والله، فذاك لا كفارة فيه، إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله»، وعن الحسن بن أبي الحسن: «مر رسول الله ﷺ بقوم يتتضلون، يعني يرمون، ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، فقام رجل من القوم فقال: أصبت والله، وأخطأت والله، فقال الذي مع النبي ﷺ للنبي ﷺ: حنث

(١) أخرجه البخاري (ح/٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩).

(٢) أخرجه أبو داود (ح/٣٢٤)، والصحيح أنه موقوف.

الرجل يا رسول الله، قال: كلا، أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة، رواه ابن جرير^(١).

قال ابن كثير: وهذا مرسل حسن. عن الحسن وعن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال: إن عدت تسألني عن القسمة فكل مالي في رتاج الكعبة، فقال له عمر: إن الكعبة غنية عن مالك، كفر عن يمينك وكلم أخاك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب عز وجل، ولا في قطيعة الرحم، ولا فيما لا تملك»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُوَاخِذْكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، أي: عزمتم عليه وقصدتم به اليمين، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُوَاخِذْكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْإِيمَانَ﴾^(٣)، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، أي: غفور لزلات عباده، حلیم عليهم.

قوله عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(٢٢٧).

الإيلاء هو: أن يحلف من جميع نسائه أو بعضهن لا يقربهن، فإن وقت بدون أربعة أشهر اعتزل حتى ينقضي ما وقت به، وإن وقت بأكثر منها خير بعد مضيتها بين أن يفيء أو يطلق.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾، أي: يحلفون على ترك جماعهن.

وقوله: ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾، أي: ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطالب بالفيئة أو الطلاق، فإن أبي طلق عليه الحاكم.

(١) أخرجه ابن جرير (٤١٢/٢) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٧٢/ح) وسنده ضعيف.

(٣) سورة المائدة: الآية ٨٩.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، استدل بذلك على أنه لا كفارة عليه إذا فاء بعد الأربعة الأشهر، والجمهور أن عليه التكفير.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، قال سعيد بن المسيب: إذا مضت أربعة أشهر فإما أن يفيء، وإما أن يطلق، فإن جاوز فقد عصى الله، والله أعلم.



الدرس السادس والعشرون

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَعْلَمْنَ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَقْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ آزَكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَالْوِلْدَاتُ يُرْضَعْنَ حَوْلَ نِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ

يُولَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُمْ يُولَدُوهٗ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۖ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا
وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوهُمَا أُولَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ
مَآءَاتِيَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعَوْلِهِنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٢٨).

القرء: يطلق في اللغة على الحيض والطمهر، وقد اختلف أهل العلم في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ فذهب جماعة إلى أنها الأطهار، وهو قول الفقهاء السبعة ومالك والشافعي، وذهب جماعة إلى أنها الحيض، وهو قول الخلفاء الأربعة وابن عباس ومجاهد وأبي حنيفة، والإمام أحمد وأكثر أئمة الحديث، وهو الراجح.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، أي: لا يحل للمرأة كتمان ما خلق الله في رحمها من الحيض والحمل، لتبطل حق الزوج من الرجعة والولد، أو استعجالاً لانقضاء عدتها، أو رغبة في تطويلها، بل تخير بالحق من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله تعالى: ﴿وبِعَوْلِهِنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾، أي: أزواجهن أحق برجعتهن في حال العدة، ﴿إِنْ أَرَادُوا﴾ بالرجعة الصلاح وحسن العشرة لا الإضرار بالمرأة.

وقوله تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ أي ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف، كما قال رسول الله ﷺ، في خطبته في حجة الوداع: «فاتقوا الله في

النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف»^(١). رواه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللرِّجَالُ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَالرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾^(٢)، وقال النبي ﷺ: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»^(٣).
وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيم فيما شرع وقدر.

قوله عز وجل: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٤).

روى ابن أبي حاتم وغيره عن عروة بن الزبير: «أن رجلاً قال لامرأته: لا أطلقك أبداً، ولا آويك أبداً، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلق حتى إذا دنا أجلك راجعتك، فأت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فأنزل الله عز وجل: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾»^(٤). قال ابن عباس: إذا

(١) أخرجه مسلم (ح/١٢١٨)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) سورة النساء: الآية ٣٤.

(٣) أخرجه أحمد (٤/٣٨١)، وابن صاعد في مسند عبد الله بن أبي أفي رضي الله عنه (ص ٩٦)، وأخرجه الترمذي (ح/١١٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أبو داود (ح/٢١٤٠) من حديث قيس بن سعد رضي الله عنه، وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير (٢/٤٥٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/١٦٣/ب).

طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتنق الله في ذلك، أي في الثالثة، فلما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحبتها، أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾، أي: لا يحل لكم أن تأخذوا شيئاً مما أعطيتموهن إلا في حال الشقاق، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾. وعن ابن عباس: «أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أعيب عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: أتردين عليه حديثه؟ قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: اقبل الحديقة وطلقها تطليقة». وفي رواية: «قالت: لا أطيقه، يعني بغضاً»^(١). رواه البخاري. وعند الإمام أحمد^(٢): «فأمره النبي ﷺ أن يأخذ ما ساق ولا يزداد». وعند ابن ماجه^(٣) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «فردت عليه حديثه. قال: ففرق بينهما رسول الله ﷺ».

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، أي: هذه أوامر الله ونواهيه، فلا تتجاوزوها. واستدل بهذه الآية على أن جمع الثلاث التطليقات بكلمة واحدة حرام. وروى النسائي عن محمود بن لبيد قال: «أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً، فقام غضباناً فقال: أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟»^(٤) الحديث.

قوله عز وجل: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ

(١) أخرجه البخاري (ح/٥٢٧٣).

(٢) انظر (٣/٤) من حديث سهل بن أبي حنمة.

(٣) انظر (ح/٢٠٥٧)، وسنده حسن.

(٤) انظر (١٤٢/٦).

طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ بُيِّنَتْهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ .

يقول تعالى: ﴿فإن طلقها﴾ يعني الطلقة الثالثة ﴿فلا تحل له من بعد﴾ أي: من بعد الطلقة الثالثة ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾، أي: غير المطلق فيجامعها ﴿فإن طلقها﴾، أي الزوج الثاني بعد الجماع ﴿فلا جناح عليهما أن يتراجعا﴾، أي: المرأة والزوج الأول، ﴿إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾، أي: يكون بينهما الصلاح وحسن الصحبة. وعن ابن عمر قال: «سئل النبي ﷺ عن الرجل يطلق امرأته فيتزوجها آخر، فيغلق الباب ويرخي الستر، ثم يطلقها قبل أن يدخل بها، هل تحل للأول؟ قال: حتى تذوق العسيلة»^(١). رواه أحمد وغيره. وروى البخاري ومسلم عن عائشة: «أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً، فتزوجت زوجاً فطلقها قبل أن يمسه، فسئل رسول الله ﷺ: أتحل للأول؟ فقال: لا حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأول»^(٢). وروى الإمام أحمد وغيره عن ابن مسعود قال: «لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة، والواصلة والمستوصلة، والمحلل والمحلل له، وآكل الربا وموكله»^(٣).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتَنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْنَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ .

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٥٠)، وفي سنده ضعف، ولكن صح الحديث بلفظ آخر كما سيأتي.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٢٦٣٩)، ومسلم (ح/١٤٣٣).

(٣) أخرجه أحمد (١/٤٤٨ و ٤٦٢)، والنسائي (٦/١٤٩)، والبخاري (٥/٤١٤)، والطبراني (١٠/٤٦)، وهو حديث صحيح.

قال ابن عباس وغيره: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً، لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال: ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾، روى ابن جرير عن أبي موسى: «أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعرين، فأتاه أبو موسى فقال: يا رسول الله غضبت على الأشعرين؟ فقال: يقول أحدكم: قد طلقت، قد راجعت، ليس هذا طلاق المسلمين، طلقوا المرأة في قُبُل عدتها»^(١). وقال الحسن وغيره: هو الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً، أو يعتق أو ينكح ويقول: كنت لاعباً، فأنزل الله ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ فالزم الله بذلك. وروى أبو داود وغيره من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ثلاث جدّهن جدّ، وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾، أي: في إرساله الرسول إليكم ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾، أي: السنة ﴿يعظكم به﴾ يأمركم وينهاكم ﴿واتقوا الله﴾ فيما تأتون وما تذكرون ﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾، أي: فلا يخفى عليه شيء من أموركم وسيجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ أَجَلُهُنَّ فَلَا تَعْصِلُوهُنَّ أَنْ

(١) أخرجه ابن جرير (٤٨٣/٢)، وفي سنده ضعف.

(٢) أخرجه أبو داود (٢١٩٤/ح)، والترمذي (١١٩٤/ح) وحسنه، وابن ماجه (٢٠٣٩/ح)، والحاكم (١٩٧٢ - ١٩٨)، وقال: «صحيح، وفيه عبد الرحمن بن أدرك، وهو ثقة» قال الذهبي متعباً: «قلت: فيه لين»، قلت: والحديث حسن.

يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ .

روى أبو داود وغيره عن الحسن: «أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها، فتركها حتى انقضت عدتها، فخطبها فأبى معقل، فنزلت ﴿فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾ .

وقوله تعالى: ﴿إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾، أي: بعقد حلال ومهر جائز ﴿ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر﴾، أي ردهن إلى أزواجهن. ﴿خير لكم وأطهر﴾، أي: ردهن إلى أزواجهن خير لكم وأطهر لقلوبكم ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾، أي: يعلم من حب كل واحد منهما لصاحبه ما لا تعلمون أنتم، فأتبعوا أمر الله واتركوا الحمية، فإنه تعالى أعلم بمصالح خلقه من أنفسهم.

قوله عز وجل: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَادَّ وِلْدَةً بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتََرْضِعُوْا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَآَلَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ .

قال البغوي^(١): قوله تعالى ﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾، أي: المطلقات اللاتي لهن أولاد من أزواجهن، ﴿يرضعن﴾ خبر بمعنى الأمر، وهو أمر استحباب لا أمر إيجاب، لأنه لا يجب عليهن الإرضاع إذا كان يوجد من يرضع الولد، لقوله

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٥٦).

تعالى في سورة الطلاق: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾، فَإِنْ رَغِبْتَ أُمٌّ فِي الْإِرْضَاعِ فَهِيَ أُولَىٰ مِنْ غَيْرِهَا). انتهى. وعن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام»^(١)». ^(٢) رواه الترمذي. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين»^(٣). رواه الدارقطني وغيره. قيل: إن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد، إما في بدنه أو عقله.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تَكْلَفُ نَفْسٌ إِلَّا وَسْعَهَا﴾، أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن، بما جرت به عادة أمثالهن بحسب قدرته، كما قال تعالى: ﴿لَيَنْفَقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلَيَنْفَقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾^(٤). قال الضحاك: إذا طلق زوجته وله منها ولد فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلُهَا وَلَا مَوْلُودُ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾. قال مجاهد: ﴿لَا تَضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلُهَا﴾ لا تأبى أن ترضعه ليشق ذلك على أبيه ﴿وَلَا يَضَارُّ﴾ الوالد بولده فيمنع أمه أن ترضعه ليحزنها. وقال ابن زيد: لا ينتزعه منها وهي تحب أن ترضعه فيضارها، ولا تطرحه عليه وهو لا يجد من، يرضعه ولا يجد ما يسترضعه به.

(١) في (الأصل): «العظام» وهو خطأ.

(٢) أخرجه الترمذي (ح/١١٦٢)، وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه (ح/١٩٤٦). دون قوله: «وكان قبل الفطام»، وابن حبان - الإحسان - (٦/٢١٤)، وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧/١٠٣)، والدارقطني (٤/١٧٤)، والصواب وقفه كما رجحه الدارقطني رحمه الله.

(٤) سورة الطلاق: الآية ٧.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾، أي: وارث الصبي. قال الحسن: إذا توفي الرجل وامرأته حامل فنفقتها من نصيبها، ونفقة ولدها من نصيبه من ماله، إن كان له مال، فإن لم يكن له مال فنفقتها على عصبته. واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أن نفقة الحامل من مال الحمل.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾. قال مجاهد: التشاور فيما دون الحولين، ليس لها أن تطفمه إلا أن يرضى، وليس له أن يطفمه إلا أن ترضى، فإن لم يجتمعا فليس لها أن تطفمه دون الحولين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾. قال مجاهد: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ خيفة الضيعة على الصبي ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾. قال: حساب ما أرضع به الصبي، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْ أُولَاتٍ حَمْلٌ فَأَنْفَقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَاتَّمَرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمَسْرُوعٌ لَهُ أُخْرَى﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أي: واتقوا الله في جميع أحوالكم وأقوالكم، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء. والله أعلم.



(١) سورة الطلاق: الآية ٧.

الدرس السابع والعشرون

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ۖ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ۖ وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ ۝٢٣٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۖ وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى التَّوَسُّعِ قَدْرُهُ ۚ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ۝٢٣٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ۖ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بَيْنَهُمَا عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۖ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٣٧﴾ خَفِظُوا عَلَى الصُّلُوحِ وَالصُّلُوحَ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۝٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجًا لَا أَوْ رُكْبَانًا فَلَمَّا دَامَتْ أَمْنُكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۖ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ۝٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٤٢﴾

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٣٥).

قال ابن عباس: هذه عدة المتوفى عنها زوجها إلا أن تكون حاملاً، فعدتها أن تضع ما في بطنها. وفي الصحيحين عن أم سلمة: «أن امرأة توفى عنها زوجها واشتكت عينها، فأنت النبي ﷺ تستفتيه في الكحل فقال: لقد كانت إحداكن تكون في الجاهلية في شر أحلاسها، فتمكث في بيتها حولاً إذا توفى عنها زوجها، فيمر عليها الكلب فترميه بالبرة، أفلا أربعة أشهر وعشراً؟»^(١). وقال الربيع عن أبي العالية في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾. قال: قلت: لم صارت هذه العشر مع الأشهر الأربعة؟ قال: لأنه ينفخ فيه الروح في العشر.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. قال مجاهد: هو النكاح الحلال الطيب. وقال ابن عباس: إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتعرض للتزويج، فذلك المعروف.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، أي: فلا تعضلوهم ممن أردن نكاحه بالمعروف، فإنه لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَأْخُذُوا بِهِنَّ سِرًّا إِلَّا

(١) أخرجه البخاري (ح/٥٣٣٦)، ومسلم (ح/١٤٨٨) و (١٤٨٩).

أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

قال ابن عباس وغيره التعريض: أن يقول: إن أريد التزويج، وإنني أحب
امرأة من أمرها ومن أمرها، يعرض لها بالقول المعروف. وقال مجاهد: يعرض
للمرأة في عدتها فيقول: والله إنك لجميلة، وإن النساء لمن حاجتي، وإنك إلى
خير إن شاء الله.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾، أي: أضمرتم نكاحهن بعد العدة.
﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾، أي: في أنفسكم وبألستكم ﴿ولكن لا تواعدوهن
سراً﴾. قال ابن عباس: يقول: لا تقل لها: إنني عاشق وعاهديني ألا تتزوجي
غيري. وقال مجاهد: لا يأخذ ميثاقها في عدتها أن لا تزوج غيره.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾، أي: التعريض بالخطبة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾. قال
مجاهد: حتى تنقضي العدة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾، أي: فخافوا
الله ولا تضمروا إلا الخير. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، لا يعجل بالعقوبة.

قوله عز وجل: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ
تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ
حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٢٣٦﴾

قال ابن عباس: المس الجماع، ولكن الله يكتفي ما يشاء بما شاء، والفريضة
الصداق.

وقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسَعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾. قال ابن عباس: فهذا الرجل يتزوج المرأة ولم يسم لها صداقاً، ثم يطلقها من قبل أن ينكحها، فأمر الله سبحانه أن يتمتعها على قدر عسره ويسره، فإن كان موسراً متعها بخادم أو شبه ذلك، وإن كان معسراً متعها بثلاثة أثواب أو نحو ذلك.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قال ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾، فهذا الرجل يتزوج المرأة وقد سمي لها صداقاً ثم يطلقها من قبل أن يمسه، فلها نصف صداقها ليس لها أكثر من ذلك. وقال عكرمة: إذا طلقها قبل أن يمسه وقد فرض لها، فنصف الفريضة لها عليه، إلا أن تعفو عنه فتركه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُو الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ قال ابن عباس: هو أبو الجارية البكر جعل الله سبحانه العفو إليه، ليس لها معه أمر، إذا طلقت ما كانت في حجره. وفي رواية: هو الزوج، وكذا قال مجاهد.

قوله عز وجل: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، قال ابن عباس: أقربهما للتقوى الذي يعفو: وقال الشعبي: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، وأن يعفو هو أقرب للتقوى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. قال مجاهد: ولا تنسوا الفضل بينكم في هذا وفي غيره. وعن سعيد بن جبيرة بن مطعم، عن أبيه أنه دخل على سعد بن أبي وقاص فعرض عليه ابنة له فزوجها،

فلما خرج طلقها، وبعث إليها بالصداق، قال قيل له: فلم تزوجتها؟ قال: عرضها عليّ فكرهت ردها، قال: فلم تبعث بالصداق؟ قال: فأين الفضل؟ وعن مجاهد ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ قال: إتمام الزوج الصداق، أو ترك المرأة الشطر.

قوله عز وجل: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾.

قال بعض العلماء: ذكر المحافظة على الصلوات هنا لثلا يشتغلوا بالنساء فيغفلوا عنها. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾^(١). وقال مسروق: المحافظة على الصلوات المحافظة على وقتها وعدم السهو عنها.

وقوله تعالى: ﴿والصلاة الوسطى﴾. قال علي بن أبي طالب وغيره: هي صلاة العصر. وفي الصحيحين «إن النبي ﷺ قال يوم الخندق: شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وقوموا لله قانتين﴾. قال الشعبي وغيره: مطيعين. وعن زيد بن أرقم قال: «إنا كنا لتتكلم في الصلاة على عهد النبي ﷺ، يكلم أحدهنا صاحبه بحاجته، حتى نزل ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾، فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام»^(٣). متفق عليه.

(١) سورة المنافقون: الآية ٩.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٦٣٩٦)، ومسلم (ح/٦٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (ح/١٢٠٠)، ومسلم (ح/٥٣٩)، وليس عند البخاري: «ونهيها عن الكلام».

وقال مجاهد: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ فمن القنوت طول الركوع، وغض البصر، وخفض الجناح، والخشوع من رهبة الله. كان العلماء إذا قام أحدهم يصلي يهاب الرحمن، أن يلتفت أو أن يقلب الحصى، أو يعبث بشيء، أو يحدث نفسه بشيء من أمر الدنيا إلا ناسياً.

وقوله تعالى: ﴿فإن خفتن فرجالاً أو ركبانا﴾ قال إبراهيم: عند المطاردة يصلي حيث كان وجهه ركباً أو راجلاً، ويجعل السجود أخفض من الركوع، ويصلي ركعتين يومئذ إيماء. وقال قتادة: أحل الله لك إذا كنت خائفاً عند القتال، أن تصلي وأنت راكب، وأنت تسعى يومئذ برأسك من حيث كان وجهك، إن قدرت على ركعتين وإلا فواحدة.

وقوله تعالى: ﴿فإذا أمتن فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾، كقوله تعالى: ﴿فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾، وقال ابن زيد في قوله: ﴿فإذا أمتن فاذكروا الله﴾، قال: فإذا أمتن فصلوا الصلاة كما افترض الله عليكم، إذا جاء الخوف كانت لهم رخصة.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قال قتادة: كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها كان لها السكنى والنفقة، حولاً في مال زوجها، ما لم تخرج، ثم نسخ ذلك بعد في سورة النساء، فجعل لها فريضة معلومة الثمن إن كان له ولد، والربع إن لم يكن له ولد، وعدتها أربعة أشهر وعشر. فقال تعالى ذكره: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾، فنسخت هذه الآية ما كان قبلها من أمر الحول.

وقوله تعالى: ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم﴾، يا أولياء الميت ﴿فيما فعلن

في أنفسهن من معروف ﴿﴾، يعني التزين للنكاح، خيرها الله تعالى بين أن تقيم حولاً ولها النفقة والسكنى، وبين أن تخرج، فلا نفقة ولا سكنى، إلى أن نسخه بأربعة أشهر وعشر.

وقوله تعالى: ﴿والله عزيز حكيم﴾، أي: عزيز في انتقامه ممن خالف أمره ونهيه وتعدى حدوده من الرجال والنساء، حكيم في أفضيته وقدره.

قوله عز وجل: ﴿وَالْمُطَلَّقاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢٤١﴾
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾.

قال عطاء في قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ قال: المرأة الثيب يمتعها زوجها إذا جامعها بالمعروف. وقال سعيد بن جبير: لكل مطلقة متاع بالمعروف حقاً على المتقين.

وقال البغوي^(١): إنما أعاد ذكر المتعة ههنا لزيادة معنى، وذلك أن في غيرها بيان حكم غير المسوسة، وفي هذه الآية بيان حكم جميع المطلقات في المتعة.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾، أي: مثل أحكام الطلاق والعدة وغير ذلك، ﴿يُبَيِّنُ﴾ الله لكم آياته ﴿في إحلاله وتحريمه﴾ لعلكم تعقلون ﴿تفهمون وتذبرون﴾. والله أعلم.

• • •

(١) انظر: «معالم التنزيل» (١/١٦٧).

الدرس الثامن والعشرون

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ لَهُمْ آتِئْتَنَا أَنْ نَقْتُلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّكَ اللَّهُ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ

مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمَهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
 مِنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ
 بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فَتْنَةٍ
 فَلَئِمَّا غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ يَأِذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا
 لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
 وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٤٧﴾ فَهَزَمُوهُمْ يَأِذِنُ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ
 جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا
 دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو
 فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٤٨﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ
 وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٤٩﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ تَرَىٰ إِلَىٰ الْآلِئِ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخَذَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَىٰ﴾، أي: ألم تعلم بإعلامي إياك، وهو من رؤية القلب، وقال أهل المعالي: هو تعجيب. يقول: هل رأيت مثلهم؟ كما تقول: ألم تر إلى ما يصنع فلان؟ وكل ما في القرآن ألم تر، ولم يعاينه النبي ﷺ، فهذا وجهه.

قال أكثر أهل التفسير: كانت قرية يقال لها داوردان^(٢) من قِبَل واسط بها وقع الطاعون، فخرجت طائفة منها، وبقيت طائفة، فهلك أكثر من بقي في القرية، وسلم الذين خرجوا، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: أصحابنا كان أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن إلى أرض لا وباء بها. فوقع الطاعون من قابل، فهرب عامة أهلها وخرجوا حتى نزلوا وادياً أفيحاً، فلما نزلوا المكان الذي يبتغون فيه النجاة ناداهم ملك من أسفل الوادي، وآخر من أعلاه: أن موتوا. فماتوا جميعاً.

وساق بسنده أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام، فلما جاء

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٦٧).

(٢) في (الأصل): «دوردان»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير البغوي، ومعجم البلدان (٢/٤٩٥)، ووقع في تفسير ابن كثير «ذاوردان»، وهو خطأ فليصحح.

سرغ بلغه أن الوباء قد وقع بالشام، فأخبره عبد الرحمن بن عوف: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه فرجع عمر من سرغ»^(١). والحديث في الصحيحين.

قال البغوي^(٢): «وأولى الأقاويل قول من قال: كانوا زيادة على عشرة آلاف؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وهم ألف﴾، قالوا: فمر عليهم نبي يقال له: حزقيل فجعل يتفكر فيهم متعجباً، فأوحى الله تعالى إليه: تريد أن أريك آية؟ قال: نعم. فأحياهم الله. ﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾».

قوله عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يقول تعالى: وقاتلوا في سبيل الله عدوي وعدوكم من المشركين، ولا تقعدوا عن الجهاد خوف القتل، فإنه لا مفر عن الموت ولا يغني حذر عن قدر، كما قال تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾^(٣).

قوله عز وجل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قال البغوي^(٤): القرض اسم لكل ما يعطيه الإنسان ليجازي عليه، فسمى الله تعالى عمل المؤمنين له على رجاء ما أعد لهم من الثواب قرضاً؛ لأنهم يعملون

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٩٧٣)، ومسلم (٤/١٧٤٢).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/١٦٧).

(٣) سورة النساء: الآية ٧٨.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (١/١٦٨).

لطلب ثوابه. قال الكسائي: القرض ما أسلفت من عمل صالح أو شيء. وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: «لما نزلت ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له﴾. قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله عز وجل ليريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح. قال: أرني يدك يا رسول الله. قال: فتناوله يده قال: فإنني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي. قال: وحائط له فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح. قالت: لبيك. قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل»^(١).

وقوله تعالى: ﴿والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾، روى ابن جرير وغيره عن أنس بن مالك قال: «غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله غلا السعر، فسرّ لنا؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الله الباسط القابض الرازق، وإني لأرجو أن ألقى الله ليس أحد يطلبني بمظلمة في نفس ومال»^(٢).

قوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِثْقَالَيْنَ ذَرَّةٍ فِي سَكِّينَ أَفَذَرْتَهُمْ وَأَتَى الِأُنثَىٰ مِنْ دُونِهِمْ آلَتْهُمُ أَبَدًا وَعَاوَنَاهُمْ عَلَىٰ مَا عَصَوْا وَالْكَافِرِينَ هُمْ أُولَئِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَنِ الظَّالِمِينَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

قال وهب بن منبه وغيره: كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويطيرونهم

(۱) أخرجه الزار (٤٠٢/٥)، وأبو يعلى (٤٠٤/٨)، وابن جرير (٣٧١/٢)، بسند ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد (٢٨٦/٣)، وأبو داود (٣٤٥١/ح)، والترمذي وصححه، (١٣٢٨/ح)،

وابن ماجه (ح/ ۲۲۰۰)، وابن جرير (۲/ ۵۹۴)، وهو حديث صحيح.

على منهج التوراة إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلب الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا منهم خلقاً عظيماً، وأخذوا منهم بلاداً كثيرة، واستلبوا منهم التابوت الذي كان موروثاً لخلفهم عن سلفهم.

إلى أن قال: فأوحى الله إلى شمويل وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك قد باد فيهم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً أن لا تقاتلوا وتنفوا بما التزمتم من القتال معه؟ قالوا: وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا، أي وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد.

قال الله تعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين﴾، أي: ما وفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله عليم بهم.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

قال قتادة: بعث الله طالوت ملكاً، وكان من سبط بنيامين سبط لم يكن فيهم مملكة ولا نبوة، وكان في بني إسرائيل سبطان: سبط نبوة، وسبط مملكة، وكان سبط النبوة سبط لاوى إليه موسى، وسبط المملكة يهوذا إليه داود وسليمان، فلما بعث من غير النبوة والمملكة أنكروا ذلك، وعجبوا منه، وقالوا: أنى يكون له الملك علينا؟! وليس من سبط النبوة ولا من سبط المملكة؟ فقال: ﴿إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ

التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

قال قتادة: ﴿فيه سَكِينَةٌ﴾ أي وقار. وقال عطاء: ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه.

وقوله تعالى: ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾. قال ابن عباس: عصا موسى ورضاض الألواح. قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ إِلَهًا لَّهُ مَبْتَلِيكُمْ يَنْهَىٰ عَنْ شَرْبٍ مِّنْهُ فَلْيَسْ مَنِي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَمَّوْا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ الْكَافِرِ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾

روى البخاري عن البراء بن عازب قال: «كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا معه يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن». قال ابن عباس: فلما فصل طالوت بالجنود غازياً إلى جالوت، قال طالوت لبني إسرائيل: إن الله مبتليكم بنهر، قال: هو نهر بين الأردن وفلسطين، نهر عذب الماء طيبه.

وقال قتادة: ﴿فمن شرب منه فليس مني، ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده﴾. قال: كان الكفار يشربون فلا يروون، وكان المسلمون

يغترفون غرفة فتجزئهم ذلك. وقال ابن عباس: لما جاوزه هو والذين آمنوا معه، قال الذين شربوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده. وقال السدي: عبر مع طالوت النهر من بني إسرائيل أربعة آلاف، فما جاوزه هو والذين آمنوا معه فنظروا إلى جالوت رجعوا أيضاً، وقالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده. فرجع عنه أيضاً ثلاثة آلاف وستمئة وبضعة وثمانون. وخلص في ثلاثمائة وبضعة عشر عدة أهل بدر.

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله﴾، هم العلماء من القليل: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا بَرَرُوا لِبِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥١﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥٢﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ولما برزوا﴾، يعني طالوت ومن معه من المؤمنين للعدو ﴿قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم﴾، كسروهم ﴿بإذن الله وقتل داود جالوت﴾. وكان طالوت وعده أن يزوجه ابنته إن قتل جالوت، ويشركه في أمره، فيما قال وهب. قال الملك إلى داود ﴿وآتاه الله الملك﴾، الذي كان بيد طالوت ﴿والحكمة﴾، أي: النبوة بعد شمويل ﴿وعلمه مما يشاء﴾، من صنعة الدروع وغير ذلك. ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾، كما قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن

الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور»^(١).

وعن مجاهد: ولولا دفاع الله بالبر عن الفاجر، وببقية أخلاق الناس بعضهم عن بعض؛ لهلك أهلها. وقال علي رضي الله عنه: لولا بقية من المسلمين فيكم لهلكتم. وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليدفع بالمؤمن الصالح عن مائة بيت من جيرانه البلاء»^(٢)، ثم قرأ ابن عمر: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض».

وأكثر كلام المفسرين على أن الآية في الجهاد، ولديّ أنها عامة فيه وفي غيره، وأسند للشيخ عبد الرحمن أنها عامة، وهذا نص كلامه، قال: (ومن ذلك ما ذكرت في آية البقرة: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض»، وأن كلام المفسرين يدور على الجهاد فقط، وظنكم أنها عامة، فهو كما ظننتم؛ لأن العبرة بعموم اللفظ، وعموم المعنى لا بخصوص السبب، والجهاد جزء من أمور كثيرة يحصل فيها دفع الناس بعضهم ببعض. وإذا نزلتها على الواقع السابق واللاحق، ورأيت الأسباب المتعددة التي حصل بها عن العباد مدافعات كثيرة، ووقايات من شرور بصدد أن تقع لولا تلك الأسباب، لاتضح لك أنها عامة، وأنها من أكبر نعم الله على عباده وتمايم وقايتهم. وفي الحديث الصحيح: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، وبأقوام لا خلاق لهم»^(٣). عام في الجهاد وغيره،

(١) سورة الحج: الآيتان ٤٠ و ٤١.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط والكبير — كما عزاه له الهيثمي في «مجمع البحرين» (١٩٠/٥ — ١٩١)، وابن جرير (٦٣٣/٢)، بسند ضعيف جداً.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٣٧٧)، ومسلم (ح/١١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولكن دون قوله: «وبأقوام لا خلاق لهم». وبهذه الزيادة «وبأقوام...» أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢٦٢/٦)، والضياء المختارة (٧٤/٢) عن أنس رضي الله عنه.

ونرجو الله تعالى أن يلطف بالمسلمين وأن يقيه شر الشرور التي يترقبها الخلق كل ساعة، ويقدر من ألطافه ما يدفع به عن عباده المؤمنين، إنه جواد كريم). انتهى.

فالظاهر أن المراد بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾، أنه عام في جميع الناس مسلمهم وكافرهم، وأن دفع الله شر بعضهم ببعض من نعمه السابقة على خلقه.

وقوله تعالى: ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾، أي: بدفع بعضهم عن بعض.

وقوله تعالى: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾، يقول: تلك آيات الله التي اقتص فيها قصص من مضى، نتلوها عليك بالحق اليقين، وإنك يا محمد لمن المرسلين، وبالله التوفيق.



الدرس التاسع والعشرون

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (٢٥٣) يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿ ٢٥٤ ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿ ٢٥٥ ﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ ٢٥٦ ﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ ٢٥٧ ﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

قال مجاهد: في قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ قال: يقول: منهم من كلم الله ورفع بعضهم على بعض درجات. يقول: كلم الله موسى، وأرسل محمداً إلى الناس كافة.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، أي: وآتيناه عيسى بن مريم الحجج، والأدلة على نبوته من إبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى، وما أشبه ذلك مع الإنجيل.

وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ يعني وقويناه بروح الله، وهو جبريل.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ قال قتادة: من بعد موسى وعيسى.

وقوله تعالى: ﴿لَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، أي: يوفق من يشاء بفضلته ورحمته، ويخذل من يشاء بعدله وحكمته، وله الحجة البالغة والحكمة التامة، وهذه الآية كقوله تعالى:

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِي يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ ۖ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢).

قال ابن جريج: قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم﴾ قال: من الزكاة والتطوع ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ قال قتادة: قد علم الله أن ناساً يتحابون في الدنيا، ويشفع بعضهم لبعض، فأما يوم القيامة فلا خلة إلا خلة المتقين،

وقوله تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾، أي: لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها. قال الله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾^(٣) قال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ ولم يقل والظالمون هم الكافرون.

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾^(٤).

عن أبي بن كعب: «أن النبي ﷺ سأله أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال «الله ورسوله أعلم. فرددها مراراً ثم قال أبي: آية الكرسي. قال: ليهنك العلم أبا

(١) سورة هود: الآية ١١٩.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٣.

المنذر^(١) رواه مسلم وغيره. وفي حديث أبي هريرة عند البخاري في قصة الشيطان الذي سرق من الصدقة قال: «فرصته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذه، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات إنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود، فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت: وما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ حتى تختم الآية. فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخلّيت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول الله إنه زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخلّيت سبيله، قال: ما هي؟ قال: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: أما إنه صدقك وهو كذوب^(٢). وروى أبو داود وغيره عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ و﴿الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾: «إن فيها اسم الله الأعظم»^(٣).

قال ابن كثير^(٤): وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة.

وقوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾.

قال ابن جرير^(٥) يقول: الله الذي له عبادة الخلق، الحي القيوم، لا إله سواه: لا معبود سواه، يعني: ولا تعبدوا شيئاً سواه، ﴿الحي القيوم﴾ الذي

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٥٠١٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٠٨).

(٥) انظر «جامع البيان» (١/٣٠٨).

لا تأخذه سنة ولا نوم. قال قتادة: الحيّ حي لا يموت. وقال مجاهد: القيوم القائم على كل شيء. وقال الربيع: القوم قيم كل شيء يكلؤه ويرزقه ويحفظه. وقال الضحاك: الحي القيوم القائم الدائم.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ قال ابن عباس: السَّنة النعاس، والنوم هو النوم.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ قال مجاهد: يعلم من بين أيديهم ما مضى من الدنيا، وما خلفهم من الآخرة. وقال الكلبي: ﴿ما بين أيديهم﴾، يعني الآخرة، لأنهم يقدمون عليها. ﴿وما خلفهم من الدنيا﴾، لأنهم يخلفونها. وقال السدي: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه﴾ يقول: لا يعلمون بشيء من علمه إلا بما شاء هو أن يعلمهم.

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ اختلفوا في الكرسي، فقال الحسن: هو العرش نفسه. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: الكرسي موضوع أمام العرش. وفي بعض الأخبار: أن السموات والأرض في جنب الكرسي كحلقة في فلاة. والكرسي في جنب العرش كحلقة في فلاة. ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن السموات السبع والأرضين السبع في الكرسي كدراهم سبعة ألقيت في ترس. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ قال ابن عباس: لا يثقل عليه. وقال قتادة: لا يجهد حفظهما.

(١) سورة النجم: الآية ٢٦.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

قال البغوي^(١): ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ الرفيع فوق خلقه والمتعالي عن الأشباه والأنداد. وقيل: العلي بالملك والسلطنة، العظيم الكبير الذي لا شيء أعظم منه. وقال ابن كثير^(٢): فقلوه: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كقلوه: ﴿وَهُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ وهذه الآيات، وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح: إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه.

قوله عز وجل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قال ابن عباس: كانت المرأة تكون مقلاة، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده. فلما أجليت بني النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا. فأنزل الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ وقال قتادة في قوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ قال: هو هذا الحي من العرب، أكرهوا على الدين لم يقبل منهم إلا القتل، أو الإسلام. وأهل الكتاب قبلت منهم الجزية، ولم يقتلوا. وقال الضحاك: «أمر رسول الله ﷺ أن يقاتل جزيرة العرب من أهل الأوثان، فلم يقبل منهم إلا لا إله إلا الله، أو السيف. ثم أمر فيمن سواهم بأن يقبل منهم الجزية. فقال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾».

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٨٠).

(٢) انظر تفسيره (١/٣١٠)، قلت: وفي هذه الآية، وما شابهها: إثبات علو الله — عز وجل — على خلقه، وهذا هو مذهب أهل السنة من السلف الصالح — رحمهم الله —، وأما غيرهم من الجهمية وأذناهم من معتزلة وأشاعرة، فقد ردوا ذلك إما إنكاراً أو تأويلاً، نعوذ بالله من مذهبهم، والحمد لله على السنة، ونسأل الله الثبات على ذلك إلى أن نلقاه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال مجاهد وغيره: الطَّاغُوت الشيطان. وقال أبو العالية: الطَّاغُوت الساحر. وقال أبو الزبير: سئل جابر بن عبد الله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها، فقال: كان في جهينة واحد، وفي أسلم واحد، وفي كل حي واحد، وهي كهان ينزل عليها الشيطان.

قال ابن جرير^(١): والصواب أنه كل ذي طغيان على الله فعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما لطاعة ممن عبده إنساناً كان ذلك المعبود، أو شيطاناً، أو وثناً، أو صنماً، أو كائناً ما كان من شيء.

وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ قال لا إله إلا الله. وقال السدي: ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ لا انقطاع لها. وقال مجاهد: لا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥٧).

قال قتادة: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يقول من الضلالة إلى الهدى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ الشيطان ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ يقول من الهدى إلى الضلالة. قال الضحاك: والظلمات: الكفر، والنور: الإيمان. والله أعلم.

• • •

(١) انظر: «جامع البيان» (١٩/٣).

الدرس الثلاثون

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ
 إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْجِبُ وَيُعِيبُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ
 يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٩﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُعْجِبُ
 هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا
 أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ
 يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى
 الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦٠﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ
 أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ
 ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
 حَكِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ۝

* * *

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْتَبِرُ وَأُمِّيْتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥٨).

قال مجاهد في قول الله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك﴾. قال هو نمروذ بن كنعان. قال قتادة: وهو أول ملك تجبر في الأرض، وهو صاحب الصرح ببابل.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت﴾، وذكر لنا أنه دعا برجلين فقتل أحدهما، واستحيا الآخر. فقال: أنا أحيي هذا، أنا أستحيي من شئت، وأقتل من شئت. قال إبراهيم عند ذلك: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

قال البغوي^(١): ﴿فبهت الذي كفر﴾، أي: تحير ودهش وانقطعت حجته وقال ابن إسحاق: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾، أي: لا يهديهم في الحجة عند الخصومة لما هم عليه من الضلال) انتهى. وهو كقوله تعالى: ﴿والذين يحتاجون في الله من بعد ما استجيب له حاجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾^(٢).

(١) انظر تفسيره (١/١٨٢).

(٢) سورة الشورى: الآية ١٦.

وقال السدي: لما خرج إبراهيم من النار أدخلوه على الملك، ولم يكن قبل ذلك دخل عليه فكلمه وقال له: من ربك؟ قال: ربي الذي يحيي ويميت. قال نمرود: أنا أحيي وأميت. أنا أدخل أربعة نفر، فأدخلهم بيتاً فلا يطعمون ولا يسقون حتى هلكوا من الجوع، أطعمت اثنين وسقيتهما فعاشا، وتركت اثنين فماتا. فعرف إبراهيم أن له قدرة بسلطانه وملكه على أن يفعل ذلك. قال له إبراهيم: فإن ربي الذي يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر. وقال: إن هذا إنسان مجنون فأخرجوه ألا ترون أنه من جنونه اجترأ على آلهتكم فكسرهما، وإن النار لم تأكله، وخشي أن يفتضح في قومه، أعني نمرود، وهو قول الله تعالى ذكره: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾^(١) فكان يزعم أنه رب، وأمر بإبراهيم فأخرج. وقال ابن زيد: فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره فمكث أربعمئة سنة تضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه، وضرب بهما رأسه وكان جباراً أربعمئة عام، فعذبه الله أربعمئة سنة كملكه، وأماته الله.

قوله عز وجل: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَىٰ آلِطَّيْرِ كَيْفَ تُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٣.

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿أَو كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾، وهذه الآية مسوقة^(٢) على الآية الأولى. تقديره: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه؟ وهل رأيت كالذي مر على قرية؟ وقيل: تقديره: هل رأيت كالذي حاج إبراهيم في ربه؟ وهل رأيت كالذي مر على قرية؟

وقال ابن كثير^(٣): تقدم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ وهو في قوة^(٤)، قوله: هل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه. ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿أَو كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾.

قال قتادة: ذكر لنا أنه عزيز، وقال عكرمة: القرية بيت المقدس مر بها عزيز بعد إذ خربها بختنصر. وقال ابن جريج: بلغنا أن عزيزاً خرج فوقف على بيت المقدس، وقد خربه بختنصر، فوقف فقال: أبعد ما كان لك من القدس والمقالة والمال ما كان فحزن.

وقال السدي: ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ يقول: ساقطة على سقفها، وذلك أن عزيزاً مر جائئاً^(٥) من الشام على حمار له، معه عصير وعنب وتين، فلما مر بالقرية فرآها وقف عليها، وقلّب يده وقال: كيف يحي هذه الله بعد موتها؟ ليس تكذيباً منه وشكاً، فأماته الله وأمات حماره، فهلكا ومر عليهما مائة سنة، ثم إن الله أحيا عزيزاً فقال له: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم. قيل له: بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك من التين والعنب وشرابك من العصير لم يتسنه الآية. وقال قتادة: ذكر لنا أنه مات ضحى، ثم بعثه قبل غيبوبة الشمس، فقال: كم لبثت؟

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٨٣).

(٢) في (الأصل): «مسوقة» وهو خطأ، والمثبت من تفسير البغوي.

(٣) انظر تفسيره (١/٣١٤).

(٤) في (الأصل): «قوته»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن كثير.

(٥) في (الأصل): «جائئاً»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

قال: لبثت يوماً ثم التفت فرأى بقية من الشمس، فقال: أو بعض يوم. فقال: بل لبثت مائة عام. وقال الضحاك في قوله: ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾ يقول: لم يتغير. وقد أتى عليه مائة عام.

وقوله تعالى: ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾. قال البغوي^(١): أي نرفعها من الأرض، ونردها إلى مكانها، ونركب بعضها على بعض. وقال السدي وغيره: تفرقت عظام حمارة حوله يميناً وشمالاً فنظر إليها وهي تلوح من بياضها، فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها، ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً، وبعث الله ملكاً فنفخ في منخري الحمار، فنهق بإذن الله عز وجل. وذلك كله بمráى من العزيز، فعند ذلك لما تبين له هذا كله قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير. وقال الضحاك وغيره: إنه عاد إلى قريته شاباً، وأولاده وأولاد أولاده شيوخ وعجائز، وهو أسود الرأس واللحية.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لَّيُطْعَمُنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قال محمد بن إسحاق: لما جرى بين إبراهيم وبين قومه ما جرى؛ مما قصه الله في سورة الأنبياء، قال نمروذ فيهما يذكرون لإبراهيم أرايت إلهك هذا الذي تعبد وتدعو إلى عبادته، وتذكر من قدرته التي تعظمه بها على غير ما هو؟ قال له إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت. قال نمروذ: أنا أحبي وأميت. فقال له

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٨٥).

إبراهيم: كيف تحيي وتميت؟ ثم ذكر ما قص الله من حاجته إياه قال: فقال إبراهيم عند ذلك: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى قال: أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ من غير شك في الله تعالى، ولا في قدرته ولكنه أحب أن يعلم ذلك، وتاق إليه قلبه، فقال: ليطمئن قلبي، أي: ما تاق إليه إذ هو علمه. وقال سعيد بن جبیر: ليطمئن قلبي، ليزداد يقيني.

وقوله تعالى: ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾. قال ابن عباس: فصرهن: قطعهن. وقال مجاهد: ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً﴾: ثم بددهن أجزاء على كل جبل ﴿ثم ادعهن يأتينك سعياً﴾ كذلك يحيي الله الموتى. وقال ابن جريج: فجعلهن سبعة أجزاء، وأمسك رؤوسهن عنده، ثم دعاهن بإذن الله فنظر إلى كل قطرة من دم تطير إلى القطرة الأخرى، وكل ريش تطير إلى الريشة الأخرى، وكل بضعة وكل عظم يطير بعضه إلى بعض من رؤوس الجبال حتى لقيت كل جثة بعضها بعضاً في السماء، ثم أقبلن يسعين حتى وصلت رأسها. وعن ابن المنكدر قال: التقى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص فقال ابن عباس لابن عمرو: أي آية في القرآن أرجى عندك؟ فقال عبد الله بن عمرو: قول الله عز وجل: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾^(١) الآية. فقال ابن عباس: لكن أنا أقول: قول الله عز وجل: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى﴾ فرضي من إبراهيم قوله: بلى. قال: فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان. رواه ابن أبي حاتم وغيره.

وقال البخاري^(٢): (باب وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى).

(١) سورة الزمر: الآية ٥٣.

(٢) انظر (ح/٤٥٣٧).

فصرهن قطعهن، وذكر حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رب أرني كيف يحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ انتهى.

قال إسماعيل بن يحيى المزني: لم يشك النبي ﷺ، ولا إبراهيم في أن الله قادر على أن يحيي الموتى، وإنما شكوا في أنه هل يجييهما إلى ما سألأ؟

قال في فتح الباري^(١): (وقال عياض لم يشك إبراهيم بأن الله يحيي الموتى ولكن أراد طمأنينة القلب، وترك المنازعة لمشاهدة الأحياء، فحصل له العلم الأول بوقوعه، وأراد العلم الثاني بكيفيته ومشاهدته، ويحتمل أنه سأل زيادة اليقين، وإن لم يكن في الأول شك، لأن العلوم قد تتفاوت في قوتها فأراد الترقى من علم اليقين إلى عين اليقين. والله أعلم).



(١) انظر (٦/٤٧٥).

الدرس الحادي والثلاثون

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَلِيمٌ ۝٢٦٣﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقًا وَالنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَمَاتَتْ أَكْطُلُهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ ۝٢٦٥﴾ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٦﴾ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ

الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبٌّ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

قال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾، يعني في طاعة الله. وقال ابن عباس: الجهاد والحج يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف.

وقوله تعالى: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾، أي: بحسب إخلاصه في عمله، ﴿والله واسع عليم﴾. قال ابن زيد: ﴿واسع﴾ أن يزيد من سعته، ﴿عليم﴾ عالم بمن يزيده. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف له، الحسنة بعشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة. قال الله تعالى: إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي»^(١).

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَأْ أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٢٦٧﴾ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ ﴿٢٦٨﴾.

قال قتادة: علم الله أن أناساً يمنون بعبادتهم، فكره ذلك وقدم فيه فقال:

(١) أخرجه مسلم (٨٠٧/١)، وبنحوه البخاري (ج/١٨٩٤ و ١٩٠٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم﴾. وقال الضحاك: ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾ يقول: أن يمسك ماله خير من أن ينفق ماله، ثم يتبعه مناً وأذى. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»^(١). وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان بما أعطى»^(٢). رواه أحمد وغيره.

وقوله تعالى: ﴿والله غني حليم﴾. قال ابن عباس: الغني الذي كمل في غناه، والحليم الذي قد كمل في حلمه.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِقَاةً لِلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

قال عمرو بن حريث: إن الرجل يغزو [و] لا يسرق ولا يزني ولا يغفل، لا يرجع بالكفاف، فقيل له: لم ذاك؟ قال: فإن الرجل ليخرج، فإذا أصابه من بلاء [الله]^(٤) الذي حكم عليه، سبٌ ولعن إمامه ولعن ساعة غزا، وقال: لا أعود لغزوة معه أبداً. فهذا عليه، وليس له مثل النفقة في سبيل الله يتبعها من وأذى، فقد ضرب

(١) أخرجه مسلم (ح/١٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/١٣٤)، والنسائي (٥/٨٠)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢/٨٦٠)، وابن حبان - كما في الإحسان - (٢١٨/٢)، وهو حديث صحيح.

(٣) ما بين المعقوفين إضافة من تفسير ابن جرير.

(٤) المصدر السابق.

الله مثلها في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ حتى ختم الآية.

وقال قتادة: فهذا مثل ضربه الله لأعمال الكفار يوم القيامة. يقول: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ يومئذ كما ترك هذا المطر الصفا الحجر، ليس عليه شيء أنقى ما كان عليه. وقال السدي: ﴿لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ إلى قوله: ﴿عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾: أما الصفوان^(١) الذي عليه تراب، فأصابه المطر فذهب ترابه فتركه صليداً^(٢)، فكذا هذا الذي ينفق ماله رياء الناس، ذهب الرياء بنفخته، كما ذهب هذا المطر بتراب هذا الصفا فتركه نقياً، فكذلك تركه الرياء لا يقدر على شيء مما قدم، فقال للمؤمنين: ﴿لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾، فتبطل كما بطلت صدقة الرياء.

قوله عز وجل: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَانَتْ أَكْلُهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ^(٣) وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قال الشعبي في قوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: تصديقاً وظيفاً. وقال مجاهد: يثبتون أين يضعون أموالهم.

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾.

قال البغوي^(٣): (وهي المكان المرتفع المستوى الذي تجري فيه الأنهار، فلا

يلعوه الماء، ولا يعلو عن الماء) انتهى. وقال ابن عباس: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ المكان المرتفع الذي لا تجري فيه الأنهار.

(١) الصَّفْوَان: هو الصفا، وهي الحجارة الملساء.

(٢) الصلدا: هو الصلب من الحجارة، الذي لا شيء عليه من نبات أو غيره.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (١/١٩١).

وقوله تعالى: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَأَتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ﴾.
قال السدي: أما الطل فالندى، يقول: كما أضعفت ثمرة تلك الجنة، فكذلك يضاعف ثمرة هذا المنفق. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله لعمل المؤمن، يقول: ليس كخير^(١) خلف، كما ليس لخير هذه الجنة خلف على أي حال، إما وابل، وإما طل.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أي: لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

قوله عز وجل: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

قال السدي: هذا مثل آخر لنفقة الرياء، أنه ينفق ماله يرائي الناس به، فيذهب ماله منه وهو يرائي، فلا يأجره الله فيه، فإذا كان يوم القيامة واحتاج إلى نفقته، وجدها قد أحرقها الرياء فذهبت، كما أنفق هذا الرجل على جنته، حتى إذا بلغت وكثر عياله واحتاج إلى جنته، جاءت ريح فيها سموم فأحرقت جنته، فلم يجد منها شيئاً، فكذلك المنفق رياء. قال مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ كمثل المفرط في طاعة الله حتى يموت. وقال عمر بن الخطاب: هذا مثل ضربه الله للإنسان يعمل عملاً صالحاً، حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه، عمل عمل السوء. وقال قتادة: قوله: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية، يقول: أصابها ريح فيها سموم شديد. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ

(١) في (الأصل): «ليس بخيره... بخير» والمثبت من تفسير ابن جرير (٧٣/٣).

تفكرون ﴿ فهذا مثل ، فاعقلوا عن الله عز وجل أمثاله ، فإنه قال : ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ . هذا رجل كبرت سنه ودق عظمه وكثر عياله ، ثم احترقت جنته على بقية ذلك كأحوج ما يكون إليه ، يقول : أيجب أحدكم أن يضل عنه عمله يوم القيامة ، كأحوج ما يكون إليه ؟

وقال البخاري^(١) ، باب قوله : ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾ إلى قوله : ﴿لعلكم تفكرون﴾ ، وذكر حديث عمر : أنه قال يوماً لأصحاب النبي ﷺ : فيم ترون هذه الآية نزلت ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة﴾ ؟ قالوا : الله أعلم ، فغضب عمر فقال : قولوا : نعلم أو لا نعلم . فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين . قال عمر : يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك . قال ابن عباس : ضربت مثلاً لعمل . قال عمر : أي عمل ؟ قال ابن عباس : بعمل . قال عمر : لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل ، ثم بعث الله له الشيطان ، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله . انتهى والله المستعان .



(١) انظر (ح/٤٥٣٨) .

الدرس الثاني والثلاثون

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِينَ بِهِ إِلَّا أَنْ تُنَحِّضُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذِيرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ مِنْ سَعْيَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ * لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُنْفِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْدِ وَالْأَنْفُسِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

قال ابن عباس: ﴿أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ يقول: تصدقوا. وقال مجاهد في قوله: ﴿أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ قال: من التجارة. وقال ابن عباس: يقول: من أطيب أموالكم وأنفسه. وعن عبيدة قال: سألت علياً عن قول الله عز وجل: ﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ قال: يعني من الحب والتمر، وكل شيء عليه زكاة. وعن البراء بن عازب في قول الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ إلى قوله: ﴿والله غني حميد﴾ قال: نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها أقناء البسر، فعلقوه على جبل بين الأسطواناتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقناء البسر، يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله عز وجل فيمن فعل ذلك ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾^(١). رواه ابن جرير.

قال قتادة: ﴿ولا تيمموا﴾ لا تعمدوا. وعن البراء: ﴿ولستم بآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ يقول: لو كان لرجل على رجل فأعطاه ذلك لم يأخذه، إِلَّا أَنَّهُ يَرَى أَنَّهُ قَدْ نَقَصَهُ مِنْ حَقِّهِ. وعن ابن سيرين قال: سألت عبيدة عن هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا

(١) أخرجه الترمذي (ح/٢٩٨٧)، وابن ماجه (ح/١٨٢٢)، وابن جرير (٣/٨٢)، والحاكم (٢/٢٨٥) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيهِ ﴿٢٦٨﴾ فقال عبدة: إنما هذا في الواجب، ولا بأس أن يتطوع الرجل بالتمرة، والدرهم الزائف خير من التمرة.

وقوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾، أي: غني عن صدقاتكم، حميد بقبولها منكم، وإثباتكم على أعمالكم، وهو المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره.

قوله عز وجل: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٦٩﴾.

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لمة من ابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فأيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فأيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

قوله عز وجل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٢٦٩﴾.

قال قتادة: الحكمة القرآن، والفقه في القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وما يذكر إلا أولوا الأبواب﴾، أي: العقول. قال الحسن: من أعطى القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه، إلا أنه لم يوح إليه. وقال ابن كثير^(٢): جاء في بعض الأحاديث: «من حفظ القرآن فقد أدرجت

(١) أخرجه الترمذي (ح/٢٩٨٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٠٥)، والطبري (٣/٨٨)، بسند

ضعيف، والراجح أنه موقوف من قول ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٢٢) وصححه ووافقه الذهبي.

النبوة بين كتفيه، غير أنه لا يوحى إليه^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

قال مجاهد في قوله عز وجل: ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه﴾ ويحصبه. قال ابن جرير: ثم أوعد جل ثناؤه من كانت نفقته رياء ونذوره طاعة للشيطان فقال: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾.

قال البغوي^(٢): (قوله تعالى: ﴿إن تبدوا الصدقات فنعماً هي﴾ أي: نعمت الخصلة هي، وما في محل الرفع وهي في محل النصب، كما تقول: نعم الرجل رجلاً، فإذا عرفت رفعت، فقلت: نعم الرجل زيد، وأصله نعم ما، فوصلت). انتهى. قال قتادة: كل مقبول إذا كانت النية صادقة، وصدقة السر أفضل، وذكر لنا: «أن الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار»^(٣). وقال ابن عباس: ﴿إن تبدوا الصدقات فنعماً هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ فجعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيها بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيها أفضل من سرها، يقال بخمسة وعشرين ضعفاً، وكذلك جمع الفرائض والنوافل والأشياء كلها.

(١) أخرجه الحاكم (٥٥٢/١) - وصححه ووافقه الذهبي - ومن طريقه البيهقي في «الشعب»

(٢/٥٢٢) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، وهو حديث حسن.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/١٩٤).

(٣) وذلك في حديث طويل وأوله: «لقد سألت عن عظيم» أخرجه أحمد (٥/٢٣١)، والترمذي

(ح) (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٢٨) من حديث بن معاذ جبل رضي الله عنه،

وهو حديث صحيح.

قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾.

عن ابن عباس: «عن النبي ﷺ أنه كان يأمر بالآل يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية ﴿ليس عليك هداهم﴾ إلى آخرها، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين» رواه ابن أبي حاتم^(١). وقال ابن زيد في قوله: ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ قال: هو مردود عليك فمالك ولهذا تؤذيه وتمن عليه، إنما نفقتك لنفسك وابتغاء وجه الله والله يجزيك. وقال السدي: قوله: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلا نفوسكم﴾ أما ﴿ليس عليك هداهم﴾ فيعني المشركين، وأما النفقة فيبين أهلها، فقال: ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾ قال قتادة: أحصروا أنفسهم في سبيل الله للغزو. وقال ابن زيد كانت الأرض كلها كفرًا لا يستطيع أحد أن يخرج يبتغي من فضل الله.

وقال مجاهد في قوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ قال التخشع. وقال الربيع: تعرف في وجوههم الجهد من الحاجة. وقال السدي في قوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ لا يلحفون في المسألة. وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن النبي ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي

(١) انظر تفسيره (١/٢١٣/ب).

ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقماتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس». وللبخاري «إنما المسكين الذي يتعفف»^(١). وعن أبي سعيد الخدري قال: سرحني أُمي إلى رسول الله ﷺ أسأله، فأتيته فقعدت قال: فاستقبلني فقال: «من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفه الله، ومن استكف كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف. قال فقلت: ناقتي الباقوتة خير من أوقية، فرجعت فلم أسأله»^(٢). رواه أحمد وغيره، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً، فليستقل أو ليستكثر»^(٣) رواه مسلم.

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْثَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قال قتادة: هؤلاء أهل الجنة، ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «المكثرون هم الأقلون. قالوا: يا نبي الله إلاً من؟ — حتى خشوا أن تكون قد مضت فليس لها رد — حتى قال: إلاً من قال بالمال هكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله، وهكذا بين يديه، وهكذا خلفه، وقليل ما هم، هؤلاء قوم أنفقوا في سبيل الله التي افترض، وارتضى في غير سرف ولا إملاق، ولا تبذير ولا فساد»^(٤). وبالله التوفيق.

• • •

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٦/٢ و ١٤٧٩ و ٤٥٣٩)، ومسلم (ح/١٠٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٩/٣)، والنسائي (٩٨/٥)، وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه مسلم (ح/١٠٤١).

(٤) ورد مرفوعاً: أخرجه أحمد (٣٥٨/٢ و ٣٠٩ و ٣٩١ و ٥٢٥)، وابن ماجه (ح/٤١٣١) دون

قوله: «عن يمينه وعن شماله...» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حديث صحيح.

الدرس الثالث والثلاثون

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٩﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٨٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٨٢﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٨٣﴾ وَإِنْ كَانِ ذُو عُسْرٍ فَنَظَرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٤﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨٥﴾﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ
الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ
اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى
اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

قال مجاهد في الربا الذي نهى الله عنه: كانوا في الجاهلية يكون للرجل على
الرجل الدين فيقول: لك كذا وكذا وتؤخر عني، فيؤخر عنه.

وقال في قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ
الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ يوم القيامة في آكل الربا في الدنيا. وقال ابن
عباس: ذلك حين يبعث من قبره. وقال سعيد بن جبيرة: يبعث آكل الربا يوم القيامة
مجنوناً يخنق.

وقوله تعالى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾.
قال البغوي^(١): (أي ذلك الذي نزل بهم لقولهم هذا، واستحللهم إياه،
وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حل ماله على غريمه فطالبه، فيقول الغريم
لصاحب الحق: زدني في الأجل حتى أزيدك في المال، فيفعلان ذلك، ويقولون:
سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير، فكذبهم الله
تعالى وقال: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾). انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/١٩٨).

الله ﷻ، قال السدي: أما الموعظة فالقرآن، وأما ما سلف فله ما أكل من الربا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادْ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فيه تهديد أكيد ووعيد شديد، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾^(١). وفي الحديث عن النبي ﷺ: «لعن الله آكل الربا وموكله، وكاتبه وشاهديه. وقال: هم سواء»^(٢). متفق عليه واللفظ لمسلم. وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل، سواء بسواء، يداً بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم، إذا كان يداً بيد»^(٣). رواه مسلم.

قوله عز وجل: ﴿يَمَحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾^(٤).

عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن الربا وإن كثر، فإن عاقبته تصير إلى قل»^(٤). رواه أحمد وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وِيرَبِّي الصَّدَقَاتِ﴾، أي: يبارك فيها في الدنيا، ويضاعف أجرها في الآخرة. وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال

(١) سورة النساء: الآية ٩٣.

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٥٩٨)، عن جابر رضي الله عنه، والحديث ليس متفقاً عليه كما ذكره المؤلف - رحمه الله - بل هو عنده بلفظ آخر عن أبي جحيفة فليتبته.

(٣) أخرجه مسلم (ح/١٥٨٧).

(٤) أخرجه أحمد (١/٣٩٥) و (١/٤٢٤)، وابن ماجه (ح/٢٢٧٩)، وأبو يعلى (٨/٤٥٦)، والحاكم (٢/٣٧، و ٤/٤١٧ - ٤١٨)، وصححه ووافقه الذهبي، وهو كما قال.

رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها يمينه ثم يربّيها لصاحبها، كما يربّي أحدكم فلوّه، حتى تكون مثل الجبل»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.

قال ابن كثير^(٢): أي لا يحب كفور القلب، أثيم القول والفعل.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

هذا مدح من الله تعالى للمؤمنين المطيعين لأمره، المحسنين إلى خلقه، وإخبار عما أعد لهم من الكرامة يوم القيامة.

قوله: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وإن ثبتتم فلكنم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون.

قال ابن كثير^(٣): وقد ذكر زيد بن أسلم وابن جريج ومقاتل بن حيان والسدي: «أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عمير من ثقيف، وبني المغيرة من بني مخزوم، كان بينهم ربا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم فتشاوروا، وقالت بنو المغيرة: لا نؤدي الربا في الإسلام بكسب الإسلام، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ،

(١) أخرجه البخاري (ح/٧٤٣٠)، ومسلم (ح/١٠١٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٣٠).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٣٠).

فترلت هذه الآية، فكتب بها رسول الله ﷺ إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فقالوا: نتوب إلى الله ونذر ما بقي من الربا، فتركوا كلهم، انتهى.

قال ابن عباس: فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه، فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع وإلاً ضرب عنقه، وقال أيضاً: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَبْتَغُوا فَلََكُمْ رَأْسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾. قال الضحاك: وضع الله الربا، وجعل لهم رؤوس أموالهم. وقال قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال في خطبته: «ألا إن ربا الجاهلية موضوع كله، أول ربا ابتدئ به ربا العباس بن عبد المطلب»^(١). وقال ابن زيد في قوله: ﴿فَلَكُمْ رَأْسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾، لا تنقصون من أموالكم، ولا تأخذون باطلاً لا يحل لكم.

قوله عز وجل: ﴿وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قال الضحاك: من كان ذا عسرة فنظرة إلى ميسرة، وأن تصدقوا خير لكم، قال: وكذلك كل دين على مسلم، وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «من نفس عن غريمه أو محا عنه، كان في ظل العرش يوم القيامة»^(٢). وفي الحديث الآخر عن النبي ﷺ: «أتى الله بعبد من عباده يوم القيامة، قال: ماذا عملت لي في الدنيا؟ فقال: ما عملت لك يا رب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها؟ قالها ثلاث مرات، قال العبد عند آخرها: يا رب إنك كنت أعطيتني فضل مال، وكنت رجلاً أبايع

(١) أخرجه مسلم (ج/١٢١٨)، عن جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣٠٠/٥ و ٣٠٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه وهو حديث صحيح.

الناس، وكان من خُلقي الجواز، فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر. قال: فيقول الله عز وجل: أنا أحق من ييسر^(١)، ادخل الجنة^(٢)، أخرجه أبو يعلى الموصلي ونحوه في البخاري ومسلم.

قوله عز وجل: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قال ابن عباس: هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ، فقال له جبريل عليه السلام: ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة، وعاش بعدها رسول الله ﷺ إحدى وعشرين يوماً^(٣). والله أعلم.

• • •

(١) في (الأصل): «من ييسر»، والمثبت من تفسير ابن كثير.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (ح/٢٠٧٧ و ٢٣٩١) و (٣٤٥١ معلقاً)، ومسلم (٣/١١٩٤

— ١١٩٥) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البغوي في تفسيره (١/٢٦٦) بسند ضعيف.

الدرس الرابع والثلاثون

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ
وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ
فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بَیْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ
كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ
بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ
وَأَمْرَ آتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا
الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ
أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ
بِحِجْرَةٍ حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا
إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ
سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضٌ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ
أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَانِثٌ فَلْيُبَئِ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ لَهُ فليُمْلِلْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ﴾ .

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ أنزلت في السلم إلى أجل معلوم. وقال الضحاك: من باع إلى أجل مسمى، أمر أن يكتب صغيراً كان أو كبيراً إلى أجل مسمى. قال الربيع: فكان هذا واجباً، ثم قامت الرخصة والسعة، قال: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه﴾ .

وقال قتادة في قوله: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ اتقى الله كاتب في كتابه، فلا يدعن منه حقاً، ولا يزيدن فيه باطلاً.

وعن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله﴾ . قال: واجب على الكاتب أن يكتب. وقال السدي: ﴿لا يأب كاتب أن يكتب﴾ إن كان فارغاً.

وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً﴾ . قال: لا ينقص من حق هذا الرجل شيئاً إذا أملى.

وقوله تعالى: ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل﴾ . قال مجاهد: أما السفیه فالجاهل بالأملاء والأمور،

وقال أيضاً: أما الضعيف فالأحمق. وقال ابن عباس: ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْلِكَ هُوَ فَلْيَمْلِكْ لَهُ بِالْعَدْلِ﴾، يقول: إن عجز عن ذلك أملى وليّ صاحب الدين بالعدل. وقال الضحاك: أمر ولي السفيه والضعيف أن يمل بالعدل.

قوله عز وجل: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾.

قال مجاهد: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾. قال: الأحرار. وقال البغوي^(١): (يعني الأحرار المسلمين دون العبيد والصبيان، وهو قول أكثر أهل العلم. وأجاز شريح وابن سيرين شهادة العبيد). انتهى. وقال الربيع في قوله: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، يقول: في الذّين ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ وذلك في الدين. ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ فِي الشُّهَدَاءِ﴾، يقول: عدول. وقال قتادة: علم الله أن ستكون حقوق، فأخذ لبعضهم من بعض الثقة، فخذوا بثقة الله، فإنه أطوع لربكم وأدرك لأموالكم، ولعمري لئن كان تقياً لا يزيد الكتاب إلّا خيراً، وإن كان فاجراً فبالحري أن يؤدي إذا علم أن عليه شهوداً.

وقال الربيع: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾، يقول: أن تنسى إحداهما فتذكرها الأخرى.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ قال: لا تأب أن تشهد إذا ما دُعيت إلى شهادة. وكان الحسن يقول في قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا

(١) انظر «معالم التنزيل» (٢٠٣/١).

ما دعوا ﴿ جمعت أمرين: لا تأب إذا كانت عندك شهادة أن تشهد، ولا تأب إذا دعيت إلى شهادة.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٨٢﴾ .

قال مجاهد: ﴿ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله﴾. قال: هو الذين.

وقال السدي: قوله: ﴿ذلكم أقسط عند الله﴾، يقول: أعدل عند الله.

وقال البغوي^(١): ﴿ذلكم﴾، أي: الكتاب، ﴿أقسط﴾ أعدل، ﴿عند الله﴾ لأنه أمر به واتباع أمره أعدل من تركه وأقوم للشهادة، لأن الكتابة تذكر الشهود، ﴿وأدنى﴾ وأحرى وأقرب إلى ﴿ألا ترتابوا﴾ تشكوا في الشهادة.

وقال السدي: قوله: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم﴾، يقول: معكم بالبلد ترونها فتؤخذ وتعطى، فليس على هؤلاء جناح ألا يكتبوها. وقال الربيع: قلت للحسن: رأيت قول الله عز وجل: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾؟ قال: إن أشهدت عليه فهو ثقة للذي لك، وإن لم تشهد عليه فلا بأس. قال ابن كثير^(٢): وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب، لا على الوجوب.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾. يقول: لا يأتي

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٠٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٣٦).

الرجل فيقول: انطلق فاكتب لي واشهد لي، فيقول: إن لي حاجة فالتمس غيري، فيقول: اتق الله فإنك قد أمرت أن تكتب لي، فهذه المضارة. ويقول: دعه والتمس غيره، والشاهد بتلك المنزلة. وقال ابن عباس: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾، يقول: إنه يكون للكاتب والشاهد حاجة ليس منها بد فيقول: خلوا سبيله. وقال أيضاً: والضرار أن يقول الرجل للرجل وهو عنه غني: إن الله قد أمرك أن لا تأبى إذا دعيت، فيضاره بذلك وهو مكتف بغیره، فنهاه الله عز وجل عن ذلك وقال: ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾، قال: والفسوق المعصية.

وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم﴾. قال الضحاك: هذا تعليم علمكموه فخذوا به.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّائِمُّ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

قال الربيع: قوله: ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً﴾، يقول: كاتباً يكتب لكم ﴿فرهان مقبوضة﴾. وقال الضحاك: ما كان من بيع إلى أجل فأمر الله عز وجل أن يكتب، وليشهد عليه، وذلك في المقام، فإن كان قوم على سفر تبايعوا إلى أجل فلم يجدوا فرهان مقبوضة.

وقوله تعالى: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه﴾.

قال البغوي^(١): (فإن كان الذي عليه الحق أميناً عند صاحب الحق فلم يرتهن

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٠٦).

منه شيئاً لحسن ظنه به، ﴿فليؤد الذي أؤتمن أمانته﴾ أي فليقضه على الأمانة ﴿وليتق الله ربه﴾ في أداء الحق. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾. قال السدي: ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾، يقول: فاجر قلبه. وقال ابن عباس: إذا كانت عندك شهادة فسألك عنها فأخبره بها، ولا تقل: أخبر بها عند الأمير، أخبره بها لعله يراجع أو يرعوي. انتهى. وقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾^(١). والله أعلم.



(١) سورة النساء: الآية ١٣٥.

الدرس الخامس والثلاثون

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ
يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٢٨٥﴾ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٦﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا
كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا
تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا
طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٧﴾﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي
أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يقول تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلفاً وملكاً
وعبيداً. ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. روى الإمام أحمد وغيره عن
أبي هريرة قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اشتد ذلك على أصحاب
رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله
كُلَّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نَطِيقُ: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد
أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيعها: فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا
كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا
غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما أقرّ بها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في
أثرها ﴿آمَنَ الرُّسُلُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاًَّ
وَسَعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾
إلى آخره.

ولمسلم: «ولما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاًَّ

وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴿١﴾ قال: نعم ربنا ﴿٢﴾ ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴿٣﴾ قال: نعم ربنا، ﴿٤﴾ ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴿٥﴾ قال: نعم ﴿٦﴾ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴿٧﴾ قال: نعم ﴿٨﴾.

وفي رواية له من حديث ابن عباس قال: «قد فعلت» (٢).

قال ابن حجر في «فتح الباري» (٣): (والمراد بقوله: نسختها أي أزال ما تضمنته من الشدة، وبينت أنه وإن وقعت المحاسبة به، لكنها لا تقع المؤاخظة به؛ أشار إلى ذلك الطبري، فراراً من إثبات دخول النسخ في الأخبار، وأجيب: بأنه وإن كان خبراً لكنه يتضمن حكماً، ومهما كان من الأخبار يتضمن الأحكام، أمكن دخول النسخ فيه كسائر الأحكام، وإنما الذي لا يدخله النسخ من الأخبار، ما كان خبراً محضاً لا يتضمن حكماً، كالإخبار عما مضى من أحاديث الأمم ونحو ذلك؛ ويحتمل أن يكون المراد بالنسخ في الحديث: التخصيص، فإن المتقدمين يطلقون لفظ النسخ عليه كثيراً، والمراد (٤) بالمحاسبة بما يخفي الإنسان ما يصمم عليه ويشرع فيه، دون ما يخطر ولا يستمر عليه. والله أعلم) انتهى.

وروى الجماعة من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تكلم أو تعمل» (٥).

(١) أخرجه أحمد (٤١٢/٢)، ومسلم (١٢٥/٢)، والطبري (١٤٣/٣). والطبراني (١٤٣/٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٢٦).

(٣) انظر (٥٥/٨).

(٤) في (الأصل): «أو لعله والمراد»، والمثبت من «الفتح».

(٥) أخرجه البخاري (ح/٥٢٦٩)، ومسلم (ح/١٢٧).

قوله عز وجل: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَكِيَّاتِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝﴾.

قال ابن زيد: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ كما صنع القوم يعني بني إسرائيل قالوا: فلان نبي وفلان ليس نبياً، وفلان نؤمن به وفلان لا نؤمن به. وعن حكيم بن جابر قال: «لما أنزلت على رسول الله ﷺ ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾. قال جبريل: إن الله عز وجل قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك، فسل تعطه. فسأل: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾^(١). رواه ابن جرير.

قوله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝﴾.

قال السدي: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ طاقتها، وحديث النفس مما لا يطيقون. وقال ابن عباس: هم المؤمنون، وسع الله عليهم أمر دينهم، فقال الله جل ثناؤه: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾^(٢)، وقال: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾^(٣)، وقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾^(٤). وقال قتادة:

(١) أخرجه ابن جرير (١٥٣/٣ - ١٥٤)، بسند ضعيف.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٨، وفي (الأصل): «ما جعل...» وهو خطأ.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨.

(٤) سورة التغابن: الآية ١٦.

قوله: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْساً إلاًَّ وَسَعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾، أي: من خير ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾، أي: من شر، وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَوَاضِعْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال ابن زيد: إِنْ نَسِينَا شَيْئاً مِمَّا افْتَرَضْتَهُ عَلَيْنَا، أَوْ أَخْطَأْنَا شَيْئاً مِمَّا حَرَمْتَهُ عَلَيْنَا. وقال قتادة: بلغني أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ نَسْيَانِهَا وَمَا حَدَّثَ بِهَا أَنْفُسَهَا». وروى ابن ماجه وغيره من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَضَعَ عَنِ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾. قال مجاهد: ﴿إِصْرًا﴾ عهداً. وقال ابن زيد: ﴿لَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا﴾ ذنباً ليس فيه توبة ولا كفارة. وقال مالك: الإِصر الأمر الغليظ.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال ابن زيد: لا تفترض علينا من الدين ما لا طاقة لنا به، فنعجز عنه، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ إِنْ انْتَهَكْنَا شَيْئاً مِمَّا نَهَيْتَنَا عَنْهُ، ﴿وَارْحَمْنَا﴾ يقول: لأننا لا نعمل بما أمرتنا به، ولا نترك ما نهيتنا عنه إلاَّ برحمتك. قال: ولم ينج أحد إلاَّ برحمتك.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصِرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، ورد في بعض الآثار: «قال الله: قد عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم، ونصرتكم على القوم الكافرين». وكان معاذ رضي الله عنه إذا فرغ من هذه السورة قال: «آمين»^(٢). وعن ابن مسعود رضي الله عنه إذا فرغ من هذه السورة قال: «آمين»^(٣). وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي

(١) أخرجه ابن ماجه (ح/٢٠٤٥)، والحاكم (٢/١٩٨)، والبيهقي (٧/٣٥٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/١٦١).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/١٦١).

ليلة كفتاه»^(١) متفق عليه. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلي»^(٢) رواه أحمد. وعن علي رضي الله عنه قال: لا أرى أحداً عقل الإسلام، ينام حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة، فإنها من كنز أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش^(٣). رواه ابن مردويه. والله أعلم.



-
- (١) أخرجه البخاري (ح/٤٠٠٨)، ومسلم (ح/٢٥٥).
- (٢) أخرجه أحمد (١٥١/٥ و ١٨٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وأخرجه الطبراني في الكبير (٣/١٦٩)، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وهو حديث صحيح، وقد روي بنحوه من حديث معقل بن يسار، بسند ضعيف.
- (٣) سبق تخريجه من حديث أبي ذر وحذيفة رضي الله عنهما.

الدرس السادس والثلاثون

﴿سورة آل عمران﴾

مدنية، وهي مائتا آية

روى مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة»^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْعَمَّ ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلِ هَذَا لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ

(١) أخرجه مسلم (ج/٨٠٤).

وَأَتَيْنَاهُ تَأْوِيلَهُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ ۚ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۚ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٩﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿الَمْ ۝١ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝٣ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦﴾.

قال ابن إسحاق: «قدم على رسول الله ﷺ وفد نجران ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، في الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم: العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح. والسيد [ثماليهم]»^(١) وهو صاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم. وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل^(٢)، أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم. قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلوا عليه في مسجده حين صلى العصر عليهم في ثياب الحبرات، وقد حانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم. فصلوا إلى المشرق قال: فكلّم منهم رسول الله ﷺ أبو حارثة والعاقب والأيهم، وهو من النصرانية على دين الملك، مع اختلاف أمرهم يقولون: المسيح هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، إلى أن قال: فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية»^(٣).

(١) ما بين المعقوفتين من تفسير ابن جرير، والبغوي.

(٢) عند ابن جرير: «أخو بكر بن وائل».

(٣) أخرجه ابن جرير، (١٦٢/٣).

وقال الربيع في قوله: ﴿أَلَمْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ إن النصارى أتوا رسول الله ﷺ فخاصموه في عيسى ابن مريم، وقالوا له: من أبوه؟ وقالوا له على الله الكذب والبهتان، لا إله إلا هو. لم يتخذ صاحبة ولا ولداً. فقال لهم النبي ﷺ: كنتم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه قالوا: بلى. قال: أستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى. قال: أستم تعلمون أن ربنا قيّم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى. قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا. قال: أفلستم تعلمون أن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى. قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما علم؟ قالوا: لا. قال: فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء. قال: أستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث؟ قالوا: بلى. قال: أستم تعلمون أن عيسى حملته امرأة كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يغذى الصبي، ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ قالوا: بلى. قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ قال: فعرفوا ثم أبوا إلا جحوداً. فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال مجاهد: لما قبله من كتاب أو رسول.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلِ هَدَى لِلنَّاسِ﴾ قال قتادة: هما كتابان أنزلهما الله فيهما بيان من الله وعصمة لمن أخذ به، وصدق به، وعمل بما فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر ﴿وَأَنْزَلَ

(١) أخرجه ابن جرير، (٣/١٦٣).

الفرقان ﴿١﴾، أي: الفصل بين الحق والباطل، فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾، أي: أن الله منتقم ممن كفر بآياته وجحد بها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يَصُورُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قال قتادة: قَادَرُ وَاللَّهُ رَبُّنَا أَنْ يَصُورَ عِبَادَهُ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ، مِنْ ذَكَرٍ، أَوْ أُنْثَى، أَوْ أَسْوَدَ، أَوْ أَحْمَرَ، تَامَ خَلْقُهُ وَغَيْرِ تَامَ.

قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَمِيعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ أَلِيمٌ كَادٌ ﴿٩﴾﴾.

قال ابن عباس في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾: المحكمات: ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه، وما يؤمن به ويعمل به. قال: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ والمتشابهات منسوخة ومقدمة ومؤخرة وأمثاله وأقسامه، وما يؤمن به ولا يعمل به. وقيل: المتشابهات: فواتح السور.

قال البغوي^(١): (فإن قيل: كيف فرق ههنا بين المحكم والمتشابه، وقد

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٢١٣).

جعل الله كل القرآن محكماً في مواضع آخر فقال: ﴿ألم كتاب أحكمت آياته﴾، وجعله كله متشابهاً فقال الله: ﴿نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾، قيل: حيث جعل الكل محكماً أراد أن الكل حق ليس فيه عبث ولا هزل، وحيث جعل الكل متشابهاً أراد أن بعضه يشبه بعضاً في الحق والصدق وفي الحسن، وجعل ههنا بعضه محكماً وبعضه متشابهاً. انتهى.

وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب﴾ قال: هن جماع الكتاب.

وقال ابن كثير^(١): أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه.

وقوله تعالى: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾، أي: ميل عن الهدى: ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ قال ابن جريج: هم المنافقون. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهاً﴾ إلى قوله: ﴿أولوا الألباب﴾ فقال: إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم». رواه أحمد وفي رواية البخاري: فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم^(٢). وقال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾، أي: ما تحرف منه وتصرف؛ ليصدقوا به ما ابتدعوا وأحدثوا، ليكون لهم حجة على ما قالوا وشبهة.

وقال السدي: ﴿ابتغاء الفتنة﴾ قال: إرادة الشرك. وقال مجاهد: الشبهات بها أهلكوا وأهلكوا. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارءون فقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، إنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤٨/٦ و ٢٥٦)، والبخاري (ح/٤٥٤٧)، ومسلم (ح/٢٦٦٥).

ببعض، فما علمتم منه فقولوا به، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه»^(١) رواه أحمد. وقال ابن عباس: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ يعني تأويله يوم القيامة إلا الله. وقالت عائشة في قوله تعالى: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾ كان من رسوخهم في العلم، أن آمنوا بمحكمه ومتشابهه ولم يعلموا تأويله. وقال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿وما يعلم تأويله﴾ الذي أراد ما أراد ﴿إلا الله﴾ والراسخون في العلم يقولون آمنا به ثم ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فأتسق بقولهم الكتاب، وصدق بعضه بعضاً، فنفذت به الحجة وظهر به العذر^(٢)، وزاح به الباطل ودمغ به الكفر. وروى ابن جرير وغيره: «أن رسول الله ﷺ سئل من الراسخ في العلم؟ قال: من برت يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، وعف بطنه وفرجه، فذلك الراسخ في العلم»^(٣).

(١) أخرجه أحمد (١٨١/٢ و ١٨٥ و ١٩٥ و ١٩٦)، وابن ماجه (ح/٨٥)، وسنده حسن، وأصله في مسلم بلفظ: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب» (ح/٢٦٦٦).

(٢) في (الأصل): «العذر» وهو خطأ.

(٣) أخرجه الطبري (١٨٥/٣)، والطبراني (١٧٦/٨)، بسند موضوع.

قلت: اعلم — علمني الله وإياك — أن معاني آيات الصفات، وأحاديثها ليست في المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، بل هي معلومة المعنى.

قال ابن القيم — رحمه الله —: «الصف الثالث: أصحاب التجهيل الذين قالوا: نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها، ولا يدري ما أراد الله ورسوله منها، ولكن نقرؤها ألفاظاً لا معاني لها، ونعلم أن لها تأويلاً لا يعلمه إلا الله، وهي عندنا بمنزلة (كهيعص)، و (حم عسق) و (الم ص) فلو ورد علينا منها ما ورد لم نعتقد فيه تمثيلاً ولا تشبيهاً، ولم نعرف معناه، وننكر على من تأوله، ونكل علمه إلى الله تعالى... وينو هذا المذهب على أصليين: أحدهما: أن هذه النصوص من المتشابه. والثاني: أن للمتشابه تأويلاً لا يعلمه إلا الله، فنتج من هذين الأصليين استجهاال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وسائر الصحابة والتابعين لهم بأحسان، وأنهم كانوا يقرؤون هذه الآيات المتعلقة بالصفات ولا =

وقال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾، أي: لا تمل قلوبنا وإن ملنا بأجدائنا^(١): ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ وعن أم سلمة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه أن يقول: اللهم يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. قالت قلت: يا رسول الله وإن القلب ليتقلب؟ قال: نعم، ما خلق الله من بشر من بني آدم إلا وقلبه بين أصبعين من أصابعه، فإن شاء أقامه وإن شاء أزاعه. فنسأل الله ربنا أن لا يزيع قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب. قالت قلت: يا رسول الله ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: بلى قولني: اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن»^(٢). رواه ابن جرير وغيره. وعن أبي عبد الله الصنابحي أنه صلى وراء أبي بكر الصديق المغرب قال: فدنوت منه حتى أن ثيابي لتكاد تمس ثيابه، فسمعتة يقرأ بأمر القرآن وهذه الآية في الركعة الثالثة. رواه عبد الرزاق.

وقوله تعالى: ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه﴾، أي: يوم القيامة ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾، أي: فاغفر لنا واعف عنا وارحمنا، وثبتنا في الدنيا على الدين، وفي الآخرة على الصراط. وقد قال الله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ والله الموفق.



= يعرفون معنى ذلك، ولا ما أريد به، ولازم قولهم: أن رسول الله ﷺ كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه... فهؤلاء غلطوا في التشابه. وفي جعل هذه النصوص من المتشابه، وفي كون المتشابه لا يعلم معناه إلا الله. اهـ (مختصر الصواعق ١/ ٧٣ — ٧٤).

(١) في تفسير ابن جرير: «بأجسادنا».

(٢) أخرجه أحمد (٣٠٢/٦)، وابن جرير (١٨٧/٣ — ١٨٨)، والطبراني (٣٣٨/٢٣)، بسند

الدرس السابع والثلاثون

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ (١٠) كَذَابِ عَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَابُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيُنْسَىٰ الْيَمَاهُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَىٰ الْأَمِينُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ لَمَوْزِعًا لِلْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ذِينَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ﴿١٤﴾ ﴿ قُلْ أُوتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَهْمْنَا فَأَعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّادِقِينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالْقَانِنِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ۞

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝١٠﴾ كَذَابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١١﴾ .

يخبر تعالى أن أموال الكفار وأولادهم لا تنفعهم يوم القيامة، ولا تنجيهم من عذاب الله، وأنهم حطب النار الذي توقد به.

وقوله تعالى: ﴿كَذَابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كفعل آل فرعون وصنيعهم في الكفر والتكذيب.

وقوله تعالى: ﴿فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، أي: شديد الأخذ، أليم العذاب لا يمتنع منه أحد.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيُمْسَأَلُ الْيَمَهُادُ ۝١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ لَبِكَ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝١٣﴾ .

عن ابن عباس قال: «لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر فقدم المدينة، جمع يهود في سوق بني قينقاع فقال: يا معشر اليهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً، فقالوا: يا محمد لا تغرنك نفسك أنك قتلت نفرأ من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنك لم تأت مثلنا. فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ

وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد، إلى قوله: ﴿لأولي الأبصار﴾^(١).

قال قتادة: ﴿قد كان لكم آية﴾، عبرة وتفكر. وقال ابن عباس: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله﴾، أصحاب رسول الله ﷺ ببدر ﴿وأخرى كافرة﴾ فئة قريش الكفار، وقال الربيع في قوله: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين﴾، قال: كان ذلك يوم بدر، وكان المشركون تسعمائة وخمسين، وكان أصحاب محمد ﷺ ثلاثمائة وثلاثة عشر.

قال ابن جرير^(٢): (فإن قال لنا قائل: فكيف قيل: يرونهم مثليهم رأي العين، وقد علمتم أن المشركين كانوا يومئذ ثلاثة أمثال المسلمين؟ قلنا لهم كما يقول القائل — وعنده عبد احتاج إلى مثله — : أنا محتاج إليه وإلى مثله، ثم يقول: احتاج إلى مثليه، فيكون ذلك خبراً عن حاجته إلى مثله، وإلى مثلي ذلك المثل) إلى آخر كلامه.

وقوله: ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾، قال قتادة: يقول: لقد كان لهم في هؤلاء عبرة وتفكير، أيدهم الله ونصرهم على عدوهم.

قوله عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّكَاحِ وَالْطَّيِّبَاتِ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٥﴾ قُلْ أَؤْتِبِكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ آمَنُوا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

(١) أخرجه أبو داود (ح/٣٠٠١)، وابن إسحاق كما عزا له السيوطي في الدر (١٥٨/٢)، وابن جرير (١٩٢/٣)، والبيهقي في الدلائل (١٧٣/٣ - ١٧٤)، وفي سنده ضعف والله أعلم.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٣/١٩٥).

خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِالْعَبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقَنَا عَذَابَ
النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ
بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لما نزلت ﴿زين للناس حب الشهوات﴾، قلت: الآن يا رب حين زيتها لنا؟ فنزلت: ﴿قل أُوْنِبْكُمْ بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار...﴾»^(١) الآية. رواه ابن جرير، قال ابن عباس: القنطار ألف ومائتا دينار، ومن الفضة ألف ومائتا مثقال، وقال ابن عمر: القنطار ألف ومائتا أوقية.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿والخيل المسومة﴾، قال: المطهمة الحسان، وقال ابن عباس: يعني المعلمة.

وقوله تعالى: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾، قال السدي يقول: حسن المنقلب وهي الجنة.

وقوله تعالى: ﴿قل أُوْنِبْكُمْ بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد﴾، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى: أعطيكُم أفضل من هذا؟ فيقولون: أي ربنا، أي شيء أفضل من هذا؟ قال: رضواني.

وقوله تعالى: ﴿الذين يقولون ربنا إنا آمنة فأغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾، هذا وصف

(١) أخرجه ابن جرير (٣/١٩٩) بسند ضعيف.

عباد الله المتقين الذين وعدهم الجنة، قال قتادة: قوله ﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين﴾، الصادقين يوم صدقت أفواههم، واستقامت قلوبهم وألسنتهم، وصدقوا في السر والعلانية، والصابرين يوم صبروا على طاعة الله، وصبروا عن محارمه، والقانتون هم المطيعون لله.

قال: ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ هم أهل الصلاة، وقال جعفر بن محمد: من صلى من الليل ثم استغفر في آخر الليل سبعين مرة، كتب من المستغفرين بالأسحار، وفي الصحيحين وغيرهما، أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له»^(١)؟ والله أعلم.



(١) أخرجه البخاري (ح/١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨/٨).

الدرس الثامن والثلاثون

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بَقِيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّهُ فِي عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٩ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝٢٠ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝٢٢ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ۝٢٣ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٢٤ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٥ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبِيدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ

أُولَئِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَسْقُوا
 مِنْهُ تَقِيَةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي
 صُدُورِكُمْ أَوْ بُدُّوا يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْخَصَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ
 سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ
 بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
 الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾، بخلاف ما قال وفد نجران من النصارى.

﴿قائماً بالقسط﴾، أي: بالعدل. قال ابن كثير^(١): قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته، وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام.

وقوله ﴿لا إله إلا هو﴾ تأكيد لما سبق. ﴿العزیز الحکیم﴾، أي: ﴿العزیز﴾ الذي لا يرام جنبه عظمة وكبرياء. ﴿الحكيم﴾ في قوله وأفعاله وشرعه وقدره.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ

قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾، أي: ما أنت عليه يا محمد من التوحيد للرب والتصديق للرسول. وقال أبو العالية: الإسلام الإخلاص لله وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وسائر الفرائض لهذا تبع.

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (١/٣٥٣).

وقوله تعالى: ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾. قال أبو العالية: يقول بغياً على الدنيا وطلب ملكها وسلطانها، فقتل بعضهم بعضاً على الدنيا من بعد ما كانوا علماء الناس.

وقال مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ قال: إحصاؤه عليهم. وقال ابن كثير^(١): أي فإن الله سيجازيك^(٢) على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه.

وقوله تعالى: ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن﴾. يقول تعالى: فإن جادلوك في الدين فقل: ﴿أسلمت وجهي لله﴾، أي: أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له، ومن اتبعني على ديني، يقول كمقالتني. قال البغوي^(٣): ﴿فقل أسلمت وجهي لله﴾، أي: انقذت لله وحده بقلبي ولساني وجميع جوارحي؛ وإنما خص الوجه لأنه أكرم الجوارح للإنسان وفيه بهاؤه، فإذا خضع وجهه للشيء، فقد خضع له جميع جوارحه.

وقوله تعالى: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾. قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: الأمينون الذين لا كتاب لهم. وقال البغوي^(٤): ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين﴾، أي: العرب، ﴿أسلمتم﴾ لفظة استفهام ومعناه أمر، أي: أسلموا، كما قال ﴿فهل أنتم متهون﴾، أي: انتهوا. ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقال أهل الكتاب: أسلمنا، فقال لليهود: أتشهدون أن عزيزاً عبده ورسول؟ فقالوا: معاذ الله أن يكون عزيز — عليه السلام — عبداً.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٥٤).

(٢) في (الأصل): «سيجانبه»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن كثير.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٢٠ — ٢٢١).

(٤) المصدر السابق (١/٢٢١).

وقال للنصارى: أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبداه ورسوله؟ قالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبداً. فقال الله عز وجل: ﴿وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾، أي: تبليغ الرسالة وليس عليك الهداية ﴿والله بصير بالعباد﴾ عالم بمن يؤمن وبمن لا يؤمن. انتهى.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

قال ابن جريج: كان الوحي يأتي على أنبياء من بني إسرائيل، ولم يكن يأتيهم كتاب، فيذكرون قومهم فيقتلون أنبياءهم، فيقوم رجال ممن تبعهم وصدقهم، فيذكرون قومهم فيقتلون أيضاً، فهم الذي يأمرهم بالقسط من الناس وفي الحديث: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبياً، أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قال ابن عباس: «دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/٢٤٤/ب)، وابن جرير (٣/٢١٦)، والبخاري (١/٢٢١)، وفي سنده ضعف.

فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال: على ملة إبراهيم ودينه. فقالا: فإن إبراهيم كان يهودياً. قال لهما رسول الله ﷺ: فاهلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم، فأبيا عليه، فأنزل الله عز وجل ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعوون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾، إلى قوله: ﴿ما كانوا يفترون﴾^(١).

وقوله ﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾. قال قتادة: قالوا لن تمسنا النار إلا تحلة القسم التي نصبنا فيها العجل، ثم ينقطع القسم والعذاب عنا. قال الله عز وجل: ﴿وغيرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾، أي: قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه.

وقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾، وهو يوم القيامة
﴿ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ فكيف حالهم حينئذ؟

قوله عز وجل: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرَفُّقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ .

قال ابن عباس: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة وعد أمته ملك فارس والروم، قالت المنافقون واليهود: هيهات هيهات، من أين لمحمد ملك فارس والروم وهم أعز وأمنع من ذلك؟ ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم؟ فأنزل الله هذه الآية».

(١) أخرجه ابن جرير (٢١٧/٣)، وفي سنده ضعف.

وقال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: قوله: ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ الآية، أي أن ذلك بيدك لا إلى غيرك. ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ لا يقدر على هذا غيرك بسلطانك وقدرتك.

وقوله تعالى: ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ قال ابن عباس: ما نقص من النهار يجعله في الليل، وما نقص من الليل يجعله في النهار.

وقوله تعالى: ﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾. قال مجاهد: الناس الأحياء من النطف، والنطف ميتة من الناس الأحياء ومن الأنعام والنبات كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾. قال الربيع: يخرج الرزق من عنده بغير حساب، لا يخاف أن ينقص ما عنده تبارك وتعالى.

قوله عز وجل: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

قال ابن عباس: نهى الله سبحانه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار، أو يتخذوهم وليجة من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين، فيظهروا لهم اللطف ويخالفوهم في الدين، وذلك قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً﴾ وقال أيضاً: التقاة التكلم باللسان، وقلبه مطمئن بالإيمان.

وقوله تعالى: ﴿ويحذرکم الله نفسه﴾، أي: يخوفكم الله عقوبته ﴿وإلى الله المصير﴾، أي: المرجع والمنقلب.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبْدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣١).

قال البغوي^(١): ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ قلوبكم من مودة الكفار ﴿أَوْ تَبْدُوهُ﴾ من موالاتهم قولاً وفعلاً، ﴿يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، يعني إذا كان لا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض، فكيف تخفى عليه موالاتكم الكفار، وميلكم إليهم بالقلب؟ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقال الكلبي: إن تسروا ما في قلوبكم لرسول الله ﷺ من التكذيب، أو تظهروه بحربه وقتاله، يعلمه الله ويحفظه عليكم حتى يجازيكم به.

قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٣٢).

قال قتادة: قوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾، يقول موفراً.

وقال السدي: قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ مكاناً بعيداً. وعن الحسن في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾. قال: من رأفته بهم أن حذرهم نفسه.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٣).

قال الحسن: قال قوم على عهد نبيهم ﷺ: يا محمد إنا نحب ربنا، فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ فجعل اتباع نبيه محمد ﷺ علماً لحبه، وعذاب من خالفه.

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٢٥).

قال ابن كثير^(١): هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله. كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٢). ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء والحكماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فأنتم تعرفونه، يعني الوفد من نصارى نجران، وتجدونه في كتابكم ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ على كفرهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى». قالوا: ومن أبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»^(٣). والله الموفق.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٢٦٩٧)، ومسلم (ح/١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٧٢٨٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدرس التاسع والثلاثون

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾^(٣٣)
 ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ
 مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي
 وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي
 أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا
 نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنَزَّيْمُ
 أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ
 دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ
 الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ
 وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي عُلُومٌ وَإِنِّي نَذَرْتُ لَكَ
 الْكِبَرُ وَأَمْرًا قَرِيبًا قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي
 آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ ءَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَآذْكُر رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَتَسْمِعُ
 بِالْعَصِيِّ وَالْإِنْبِكَرِ ﴿٤١﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ٣٣ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ .

قال قتادة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: ذكر الله أهل بيتين صالحين، ورجلين صالحين، ففضلهم على العالمين، فكان محمد من آل إبراهيم. وقال الحسن: فضلهم على العالمين بالنبوة على الناس كلهم، كانوا هم الأنبياء الأتقياء المصطفين لربهم.

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾، أي: من ولد بعض ﴿والله سميع عليم﴾. قال قتادة: قوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ يقول: في النية، والعمل، والإخلاص، والتوحيد له. وقال في جامع البيان ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾، أي: أنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض. انتهى، ولا منافاة بين القولين.

قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ .

قال ابن إسحاق: تزوج زكريا وعمران أختين، فكانت أم يحيى عند زكريا وكانت أم مريم عند عمران، فهلك عمران وأم مريم حامل بمريم،

فهي جنين في بطنها. قال: وكانت فيما يزعمون قد أمسك عنها الولد حتى أسنت، وكانوا أهل بيت من الله جل ثناؤه بمكان، فبينما هي في ظل شجرة نظرت إلى طائر يطعم فرخ له، فتحركت نفسها للولد، فدعت الله أن يهب لها ولداً فحملت بمريم، وهلك عمران، فلما عرفت أن في بطنها جنيناً جعلته لله نذيرة، والنذيرة: أن تعبد الله فتجعله حبساً في الكنيسة، لا ينتفع به بشيء من أمور الدنيا. قال الشعبي في قوله: ﴿إني نذرت لك ما في بطني محرراً﴾ جعلته في الكنيسة وفرغته للعبادة. وقال الكلبي: قالت: اللهم لك عليّ إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس، فيكون من سدنته وخدمته.

وقال الربيع: كانت امرأة عمران حررت لله ما في بطنها، وكانت على رجاء أن يهب لها غلاماً، لأن المرأة لا تستطيع ذلك — يعني القيام على الكنيسة، لا تبرحها وتكنسها — لما يصيبها من الأذى. وقال السدي: ظنت أن ما في بطنها غلاماً فوهبته لله، فلما وضعت إذ هي جارية فقالت تعتذر إلى الله ﴿رب إني وضعتها أنثى وليس الذكر كالأنثى﴾ تقول: إنما يحرر الغلمان بقول الله ﴿والله أعلم بما وضعت﴾، فقالت: إني سميتها مريم. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «كل مولود من ولد آدم له طعنة من الشيطان وبها يستهل الصبي، إلا ما كان من مريم ابنة عمران وولدها، فإن أمها قالت حين وضعتها: إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم، فضرب دونها حجاب فطعن في الحجاب»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣٩/٣)، وفي سنده ضعف، إلا أنه روي من طرق أخرى عن أبي هريرة — رضي الله عنه — بها يصح الحديث. والحديث أصله في البخاري (ح/٤٥٤٨)، ومسلم (ح/٢٣٦٦) بلفظ: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه حين =

قوله عز وجل: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٧).

قال ابن جرير^(١): قال الله عز وجل: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ تقبل الله من أمها ما أرادت بها الكنيسة وأجرها فيها وأنبتها، قال: نبتت في غذاء الله، وقال السدي: قال الله عز وجل: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ فانطلقت بها أمها في خرقها حين ولدتها إلى المحراب، وكان الذين يكتبون التوراة إذا جاءوا إليهم بإنسان يجربونه، اقترعوا عليه أيهم يأخذه فيعلمه، وكان زكريا أفضلهم يومئذ وكان بينهم، وكانت خالة مريم تحته، فلما أتوا بها اقترعوا عليها، وقال لهم زكريا: أنا أحقكم^(٢) بها، تحتي خالتها، فأبوا فخرجوا إلى نهر الأردن، فألقوا أقلامهم التي يكتبون بها، أيهم يقوم قلمه، فيكفلها. فجرت الأقلام، وقام قلم زكريا على قرنته كأنه في طين، فأخذ الجارية. وذلك قول الله عز وجل ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ فجعلها زكريا معه في بيته وهو المحراب.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾، قال الربيع: جعل زكريا دونها سبعة أبواب، فكان يدخل عليها فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ

= يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه، إلا مريم وابنها، ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: «إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم». واللفظ للبخاري.

(١) انظر «جامع البيان» (٣/٢٤١).

(٢) في (الأصل) «أحتكم»، وهو خطأ.

من يشاء بغير حساب﴿٣٨﴾، أي: بغير إحصاء ولا عد، لأن فضله واسع وخزائنه لا تغضب.

قوله عز وجل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿٣٨﴾ فَدَافَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾.

قال السدي: فلما رأى زكريا من حالها ذلك، يعني فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف قال: إن رباً أعطاهما هذا في غير حينه لقادر على أن يرزقني ذرية طيبة. ورغب في الولد، فقام فصلى ثم دعا ربه سرّاً فقال: ﴿رب إنني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً وإنني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيعاً﴾. وقوله: ﴿رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾. وقال: ﴿رب لا تدرنى فرداً وأنت خير الوارثين﴾^(١). وقال عكرمة: فدخل المحراب وغلق الأبواب وناجى ربه فقال: ﴿رب إنني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً﴾ إلى قوله: ﴿رب رضيعاً فدافته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله﴾ الآية. قال قتادة: إنما سمي يحيى لأن الله أحياه بالإيمان.

وقوله تعالى: ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ قال مجاهد: قالت امرأة زكريا: يا مريم إنني أجد الذي في بطني يتحرك للذي في بطني. قال: فوضعت امرأة زكريا يحيى، ومريم عيسى، ولذا قال: ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ قال: يحيى مصدقاً

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٩.

بعيسى. وقال الضحاك: كان يحيى أول من صدق بعيسى وشهد أنه كلمة من الله، وكان يحيى ابن خالة عيسى، وكان أكبر من عيسى.

وقوله تعالى: ﴿وسيداً﴾ قال قتادة: إي واللّه، سيد في العبادة، والحلم، والعلم، والورع.

وقوله تعالى: ﴿وحصوراً ونبيّاً من الصالحين﴾ قال مجاهد: الحصور الذي لا يأتي النساء — قال بعض المفسرين: وفيه دليل على أن ترك النكاح كان أفضل في تلك الشريعة — .

وقال الشيخ ابن سعدي: ﴿وسيداً﴾، أي: عظيماً عند الله وعند الخلق، لما جبله الله عليه من الأخلاق الحميدة والعلوم العظيمة والأعمال الصالحة. ﴿وحصوراً﴾، أي: ممنوعاً بعصمة الله وحفظه ووقايته، من مواقعة المعاصي، فوصفه الله بالتوفيق لجميع الخيرات والحماية من السيئات والزلات، وهذا غاية كمال العبد.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ ءَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَأَذْكُرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالنَّعْشِيِّ وَالْإِنْجَكِرِ ﴿٤١﴾ .

قال ابن كثير^(١): فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة، أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر، قال: ﴿رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقرة﴾ قال: ﴿قال﴾، أي: الملك ﴿كذلك يفعل الله ما يشاء﴾، أي: هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء ولا يتعاضمه أمر. ﴿قال رب اجعل لي آية﴾، أي: علامة

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٦٢).

أستدل بها على وجود الولد مني ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾، أي: إشارة، لا تستطيع النطق مع أنك سوئي صحيح، كما في قوله: ﴿ثلاث ليال سوياً﴾^(١)، ثم أمر بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح في هذه الحال، فقال تعالى: ﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾، انتهى. وقال الحسن في قوله: ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾ قال: أمسك بلسانه، فجعل يومئذ بيده إلى قومه أن سبحوا بكرة وعشياً. والله أعلم.



(١) سورة مريم: الآية ١٠.

الدرس الأربعون

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرَيْمُ اقْنِطِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَيُّهُمُ يَكْفُلُ مَرْيَمُ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَتُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَوْيَاتِهِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۝

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ
وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرُؤُا اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ
الرَّكَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

في الصحيحين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد»^(١). وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»^(٢). رواه الترمذي وصححه. وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون. وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(٣). رواه البخاري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ قال مجاهد: لما قيل لها ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قامت حتى ورمت قدميها.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، أي: كوني منهم.

قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٤٣٢)، ومسلم (ح/٢٤٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/١٣٥)، والترمذي (ح/٣٨٧٨)، وابن جرير (٣/٢٦٣)، وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٣٤١٠)، ومسلم (ح/٢٤٣١).

يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ .

يقول تعالى: ﴿ذلك﴾ الذي ذكرت من حديث امرأة عمران وزكريا ويحيى ومريم وعيسى: ﴿من أنباء الغيب﴾، أي: من أخبار الغيب: ﴿نوحيه إليك﴾ وهذا من أعظم البراهين على نبوة محمد ﷺ، لأنه أخبره بها وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ، كما قال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾، أي: في كفالتها. قال قتادة: تساهموا على مريم أيهم يكفلها فقرعهم زكريا.

قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ .

قال ابن جرير^(٢): يعني بقوله جل ثناؤه ﴿إذ قالت الملائكة﴾ ﴿وما كنت لديهم إذ يتخصمون﴾ ﴿وما كنت لديهم﴾ أيضاً: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾، يعني برسالة من الله. وعن قتادة قوله: ﴿بكلمة منه﴾ قال قوله: كُنْ، فسماه الله عز وجل كلمة، لأنه كان عن كلمته، كما يقال لما قدر الله من شيء: هذا قدر الله وقضاؤه. وقيل: إنما سمي المسيح لأنه مسح بالبركة.

قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾، أي: هكذا كان أمره، لا ما يقولون فيه ﴿وجيهاً﴾. قال: وجيهاً في

(١) سورة هود: الآية ٤٩.

(٢) انظر: «جامع البيان» (٣/٢١٩).

الدنيا والآخرة عند الله. وقال قتادة: قوله: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ يقول: من المقربين عند الله يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾. قال ابن عباس: ﴿وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ قال: مضجع الصبي في رضاعه. وقال مجاهد: الكهل الحليم. وقال قتادة: يكلمهم صغيراً وكبيراً. وقال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: يخبرهم بحالاته التي يتقلب بها في عمله، كتقلب بني آدم في أعمالهم صغاراً وكباراً، إلا أن الله خصه بالكلام في مهده آية لنبوته وتعريفاً للعباد موقع قدرته. وقال ابن زيد: قد كلمهم عيسى في المهد، وسيكلمهم إذا قتل الدجال، وهو يومئذ كهل.

قوله عز وجل: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (٤٧).

قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يصنع ما أراد ويخلق ما يشاء من بشر أو غير بشر، أي: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ مما يشاء وكيف يشاء، فيكون ما أراد.

قوله عز وجل: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُزَيِّدُ الْآكُمَةَ وَأُؤَبِّرُكُمْ وَأُخَيِّمُ الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ .

قال البغوي^(١): ﴿ويعلمه الكتاب﴾ الكتابة والخط ﴿والحكمة﴾ العلم والفقه. قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: أخبر الله مريم ما يريد به فقال: ﴿ونعلمه الكتاب والحكمة والتوراة﴾ التي كانت فيهم من عهد موسى، والإنجيل كتاباً آخر أهدته إليه، لم يكن عندهم علمه إلا ذكره أنه كائن من الأنبياء قبله.

وقوله تعالى: ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم﴾، أي: ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم﴾، أي: يحقق بها نبوتي، وإني رسول منه إليكم.

وقوله: ﴿أنني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾ قال ابن إسحاق: إن عيسى — صلوات الله وسلامه عليه — جلس يوماً مع غلمان من الكتاب فأخذ طيناً، ثم قال: أجعل لكم من هذا الطين طائراً، قالوا: وتستطيع ذلك؟ قال: نعم بإذن ربي. ثم هيأه حتى إذا جعله في هيئة الطائر فنفخ فيه، ثم قال: كن طائراً بإذن الله، فخرج يطير بين كفيه، فخرج الغلمان بذلك من أمره، فذكروه لمعلمهم فأفشوه في الناس وترعرع، فهتمت به بنوا إسرائيل، فلما خافت أمه عليه حملته على حمير لها ثم خرجت به هاربة.

وقوله: ﴿وأبرئ الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله﴾ قال ابن عباس: الأكمه الذي يولد وهو أعمى.

قال ابن كثير^(٢): [قال كثير^(٣)] من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٣٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٦٤).

(٣) ما بين المعقوفتين إضافة من تفسير ابن كثير.

يناسب أهل زمانه، فبعث عيسى عليه السلام في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه.

وقوله: ﴿وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قال السدي: لما كبر عيسى أسلمته أمه ليتعلم التوراة، فكان يلعب مع الغلمان، غلمان القرية التي كان فيها، فيحدث الغلمان بما يصنع أبائهم. وقال عطاء بن أبي رباح: قوله: ﴿وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال: الطعام والشيء يدخرونه في بيوتهم، غيباً علّمه الله إياه. وقال قتادة: كان القوم لما سألوا المائدة، فكانت جراباً، ينزل عليه أينما كانوا ثمرات من ثمار الجنة، فأمر القوم أن لا يخونوا فيه، ولا يخبثوا، ولا يدخروا لغد، بلاء ابتلاهم الله به، فكانوا إذا فعلوا من ذلك شيئاً أنبأهم به عيسى بن مريم، فقال: ﴿وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ قال: ابن جريج: قال: ﴿وَلَأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ قال: لحوم الإبل والشحوم، لما بعث عيسى أحلها لهم، وبعث إلى اليهود فاختلفوا وتفرقوا.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِنْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، قال ابن إسحاق: عن محمد بن جعفر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِنْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ تبرياً من الذين يقولون فيه، يعني ما يقول فيه النصارى، واحتجاجاً لديه عليهم: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، أي: هذا الذي قد حملتكم عليه وجئتكم به. والله أعلم.



الدرس الحادي والأربعون

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
 الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا
 ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا
 وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْقُطْ
 وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ
 الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَخَذُكُمْ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا
 الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَبُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾
 وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
 الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى
 عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا
 تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ
 أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ
 اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِن إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ
 لَهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَتَّاهِلُ الْكَذَّابُ
 تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا
 يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا

مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ
وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَذَا نُمُوتُكُمْ فِي مَا لَكُمْ بِهِ
عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِي مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ
إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ
أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ قال مجاهد: كفروا وأرادوا قتله، فذلك حين استنصر قومه: ﴿قال من أنصاري إلى الله قال الخواريون نحن أنصار الله﴾. قال الضحاك: الخواريون أصفياء الأنبياء. قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ والعدوان ﴿قال من أنصاري إلى الله قال الخواريون نحن أنصار الله آمنا بالله﴾، وهذا قولهم الذي أصابوا به الفضل من ربهم ﴿وأشهد بأننا مسلمون﴾ لا كما يقوله هؤلاء الذين نحاجونك فيه، يعني وفد نصارى نجران.

قوله عز وجل: ﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ ﴿٥٤﴾﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

قال السدي: إن بني إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلاً من الخواريين في بيت، فقال عيسى لأصحابه: من يأخذ صورتي فيقتل وله الجنة؟ فأخذها رجل منهم، وصعد بعيسى إلى السماء، فذلك قوله: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾.

وقال الربيع في قوله: ﴿إني متوفيك﴾ قال يعني: وفاة المنام، ورفع الله في منامه. قال الحسن: قال رسول الله ﷺ لليهود: «إن عيسى لم يمت، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة»^(١). رواه ابن جرير. وقال الحسن في قوله: ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ قال: طهره من اليهود والنصارى والمجوس، ومن كفار قومه.

وقوله تعالى: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾. قال قتادة في قوله: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾: هم أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرته وملته وسنته، فلا يزالون ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة. وقال ابن زيد في قول الله: ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ قال: الذين كفروا من بني إسرائيل. ﴿وجاعل الذين اتبعوك﴾ قال: الذين آمنوا به من بني إسرائيل وغيرهم. ﴿فوق الذين كفروا﴾ النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة. قال: فليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق يهود، في شرق ولا غرب، هم في البلدان كلها مستدلون.

قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَبُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾^(٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ^(٥٧) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ^(٥٨).

قال ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾ القاطع الفاصل، الحق الذي لم يخلطه الباطل من الخبر عن عيسى، وعما اختلفوا فيه من أمره، فلا تقبلن خبراً غيره.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨٩/٣)، وابن أبي حاتم (٢٩/٢/ب). عن الحسن مرسلًا.

قوله عز وجل: ﴿إِن مِّثْلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا وَنَحْنُ هَاهُنَا غَائِبُونَ ﴿٦١﴾ فَأَخْبِرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ ﴿٦٢﴾ إِن هَٰذَا لَهُوَ الْفَتْنُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٣﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾.

قال ابن عباس: قوله: ﴿إِن مِّثْلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ قال له كن فيكون، وذلك: «أن رهطاً من أهل نجران قدموا على محمد ﷺ، وكان فيهم السيد والعاقب فقالوا لمحمد: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال: من هو؟ قالوا: عيسى، تزعم أنه عبد الله. فقال محمد: أجل إنه عبد الله. قالوا له: فهل رأيت مثل عيسى أو أنبئت به؟ ثم خرجوا من عنده، فجاءه جبريل ﷺ بأمر ربنا السميع العليم فقال: قل لهم إذا أتوك: ﴿إِن مِّثْلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ إلى آخر الآية»^(١).

وقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾. قال قتادة: يعني فلا تكن في شك من عيسى، أنه كمثّل آدم عبد الله ورسوله، وكلمة الله وروحه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ: تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا وَنَحْنُ هَاهُنَا غَائِبُونَ﴾ «بلغنا أن نبي الله ﷺ خرج ليداعي القوم، فلما رأوه خرج هابوا وفرقوا فرجعوا». وفي حديث ابن إسحاق عن محمد بن جعفر: «فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك، وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا، ولكن

(١) أخرجه ابن جرير (٣/٣٩٥)، وابن أبي حاتم (٢/٣١/أ)، بسند ضعيف.

ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء قد اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضى».

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنْ اللَّهُ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾. قال ابن زيد: إن هذا القصص الحق في عيسى، ما ينبغي لعيسى أن يتعدى هذا، ولا يجاوز أن يتعدى أن يكون كلمة الله، ألقاها إلى مريم وروحاً منه، وعبد الله ورسوله.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَذِبُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (١٦).

قال ابن جرير^(١): يعني بذلك جل ثناؤه ﴿قل﴾ يا محمد لأهل الكتاب وهم أهل التوراة والإنجيل: ﴿تعالوا﴾ هلموا ﴿إلى كلمة﴾ يعني إلى كلمة عدل ﴿بيننا وبينكم﴾ والكلمة العدل هي أن يوحد^(٢) الله فلا يعبد غيره، ويرأى من كل معبود سواه، فلا يشرك به شيئاً.

وقوله: ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً﴾ ولا يدين بعضنا لبعض بالطاعة فيما أمر به من معاصي الله، ويعظمه بالسجود له كما يسجد لربه. وقال ابن جريج: ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ يقول: لا يطع بعضنا بعضاً في معصية الله. وفي حديث «أبي سفيان في قصته حين دخل على قيصر، وسأله عن النبي ﷺ قال: ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم

(١) انظر «جامع البيان» (٣/٣٠١ - ٣٠٢).

(٢) في تفسير ابن جرير: «أن نوحده... ونبرأ... فلا نشرك».

الأريسيين. و ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١٥) هَذَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ^(١٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ^(١٧).

قال ابن عباس: «اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلّا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلّا نصرانياً. فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ وبعده كانت اليهودية والنصرانية»^(٢).

وقال قتادة: قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾، يقول: لما تحاجون في إبراهيم وتزعمون أنه كان يهودياً أو نصرانياً وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلّا من بعده؟ فكانت اليهودية بعد التوراة، وكانت النصرانية بعد الإنجيل، أفلا تعقلون؟

وقوله تعالى: ﴿هَآ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. قال السدي: أما الذي لهم به علم فما حرم عليهم وما أمروا به، وأما الذي ليس لهم به علم فشأن إبراهيم.

(١) أخرجه البخاري (ح/٢٩٤١)، ومسلم (ح/١٧٧٣).

(٢) أخرجه ابن جرير (٣/٣٠٥)، وفي سنده ضعف.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٨).

قال قتادة: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه﴾ على ملته وسنته ومنهاجه
وفطرته ﴿وهذا النبي﴾ وهو نبي الله محمد ﷺ، ﴿والذين آمنوا﴾ معه وهم
المؤمنون الذين صدقوا نبي الله واتبعوه. كان محمد رسول الله ﷺ والذين معه من
المؤمنين أولى الناس بإبراهيم. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال
رسول الله ﷺ: ﴿إن لكل نبي ولاية من النبيين، وإن وليي منهم أبي وخليل ربي،
ثم قرأ: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي
المؤمنين﴾^(١). رواه ابن جرير وغيره. والله أعلم.



(١) أخرجه أحمد (٤٠١/١ و ٤٣٠)، والترمذي (٢٩٩٥/٤)، والبزار (٣٤٥/٥)، والشاشي

(٤٠٣/١)، وابن جرير (٣٠٨/٣)، وابن أبي حاتم (٣٤/٢ ب)، وهو حديث

صحيح.

الدرس الثاني والأربعون

﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ ٦٩ ﴿ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِتَايَدِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ ٧٠ ﴿ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ٧١ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ٧٢ وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكَرُكُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتِيَهُ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُمَاجُوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٧٣ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ٧٤ ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّعُهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّعُهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ سَكِينٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ٧٥ بَلَىٰ مَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ٧٦ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ٧٧ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ آلِسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ٧٨ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي

مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ
تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ
أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ يَتَّأْهِلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَّأْهِلِ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ .

قوله تعالى: ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلوكم﴾، أي: عن الحق حسداً وبغياً ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾، أي: إنما يعود وبال ذلك عليهم ﴿وما يشعرون﴾، ما يدرون أنه عائد عليهم، قال تعالى: ﴿ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾، قال قتادة: يقول: تشهدون أن نعت محمد نبي الله ﷺ في كتابكم، ثم تكفرون به وتنكرونها، ولا تؤمنون به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل؛ النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته.

وقوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾، قال ابن زيد في قول الله عز وجل: ﴿لم تلبسون الحق بالباطل﴾، قال: الحق التوراة التي أنزل الله على موسى، والباطل الذي كتبه بأيديهم، وقال قتادة: قوله: ﴿وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾، كتموا شأن محمد، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل: يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَاْمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ

(١) سورة فاطر: الآية ٤٣.

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ۚ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ ۚ قُلْ إِنْ الْهُدَىٰ هَدَىٰ اللَّهُ أَن يُوَفَّىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ۚ قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ .

قال قتادة في قوله: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره﴾، فقال بعضهم لبعض: أعطوهم الرضى بدينهم أول النهار، واكفروا آخره، فإن أجدر أن يصدقوكم، ويعلموا أنكم^(١) قد رأيتم منهم ما تكرهون، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم.

وقوله: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾، قال قتادة: هذا قول بعضهم لبعض.

وقوله تعالى: ﴿قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾، قال مجاهد في قوله: ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾، حسداً من يهود أن تكون النبوة في غيرهم وإرادة أن يتبعوا على دينهم.

قال ابن كثير^(٢): قوله: ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾، يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فيتعلمون منكم ويساوونكم فيه ويمتازون به عليكم، لشدة الإيمان به، ﴿أو يحاجوكم به عند ربكم﴾، أي^(٣): يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم، فتقوم به عليكم الدلالة، وتركب الحجة في الدنيا والآخرة انتهى.

(١) في (الأصل): «لكم»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٧٣/١).

(٣) في (الأصل): «أن»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن كثير.

وذكر ابن جرير^(١) عن ابن جريج قوله: ﴿إِن الْهَدَىٰ هَدَىٰ اللَّهُ أَن يُوْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾، يقول: هذا الأمر الذي أنتم عليه. ﴿أَن يُوْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، قال: قال بعضهم لبعض: لا تخبروهم بما بين الله لكم في كتابه ليحاجوكم، قال: «ليخاصموكم»^(٢) به عند ربكم قل إن الهدى هدى الله، معترض به، وسائر الكلام متسق على سياق^(٣) واحد.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مِنْ يَشَاءِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، قال ابن جريج في قوله: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ﴾، قال: الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، قال الربيع: يختص بالنبوة من يشاء، وقال ابن جريج: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، قال: القرآن والإسلام، ويشهد لها قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلِفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٤).

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنٌ إِنْ تَأَمَّنْهُ يَقْنَطُ أَنْ يُؤْذِيَهُ إِيَّاكَ وَمِنْهُمْ مَنٌ إِنْ تَأَمَّنْهُ يَبْدُونَ إِيَّاكَ إِيَّاكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

قال مجاهد: في قوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾، قال: مطالباً، وقال السدي: يعترف بأمانته ما دمت قائماً على رأسه.

وقال قتادة: ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾، قالت اليهود:

(١) انظر (٣/٣١٥).

(٢) في (الأصل): «ليحاجوكم»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٣) في (الأصل): «ميثاق» وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٤) سورة يونس: الآية ٥٨.

ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل، وقال ابن جريج: بايع اليهود رجال من المسلمين في الجاهلية، فلما أسلموا تقاضوهم ثمن بيعوهم فقالوا: ليس لكم علينا أمانة، ولا قضاء لكم عندنا، لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، فقال الله عز وجل: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾، وعن صعصعة: قلت لابن عباس: إنا نقرأ أهل الكتاب فنصيب من ثمارهم، قال: وتقولون كما قال أهل الكتاب: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾.

وقوله تعالى: ﴿بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾، أي ليس كما قالوا، بل عليهم سبيل، ثم ابتداء فقال: ﴿من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾، أي الذين ائتمروا بأوامر الله واجتنبوا محارمه.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قال عكرمة: نزلت في رؤوس اليهود، وكنتموا ما عهد الله إليهم في التوراة، في شأن محمد ﷺ وبدلوه، وكتبوا بأيديهم غيره، وحلفوا أنه من عند الله، لئلا يفوتهم المأكول والرشا التي كانت لهم من أتباعهم، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان، وقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾»^(١) الآية.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ

(١) أخرجه البخاري (ح/٢٣٥٦ و ٢٣٥٧)، ومسلم (١/١٢٣)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

عِنْدَ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ .

قال قتادة: هم أعداء الله اليهود حرفوا كتاب الله وابتدعوا فيه، وزعموا أنه من عند الله .

قوله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّاتِنِ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ۝ .

قال ابن عباس: قال أبو رافع القرظي: «حين اجتمعت الأخبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام قالوا: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعوننا؟ أو كما قال: فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني الله ولا بذلك أمرني، أو كما قال، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة... ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿ بعد إذ أنتم مسلمون ﴾^(١) .

وقال قتادة: قوله: ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة، ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ﴾، يقول: ما كان ينبغي لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة، يأمر عباده أن يتخذوه رباً من دون الله .

وقوله تعالى: ﴿ ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾، قال الحسن في قوله: ﴿ كونوا ربانيين ﴾، قال: كونوا فقهاء علماء،

(١) أخرجه ابن جرير (٣/٣٢٥)، وفي سنده ضعف .

وقال سعيد بن جبير: حكماء أتقياء، وقال ابن زيد: الربانيون الذين يربون الناس ولادة هذا الأمر، وقال المبرد: هم أرباب العلم، سموا به لأنهم يربون العلم ويقومون به، ويربون المتعلمين بصغار العلم قبل كبارها.

قلت: والعالم الرباني هو الذي يعلم الناس أصول العلم قبل فروعه، وواضحاته قبل مشكلاته، وهذا هو معنى ما تقدم.

وقال مجاهد: الربانيون الفقهاء العلماء، وهم فوق الأحبار.

وقال ابن جرير^(١): والرباني الجامع إلى العلم والفقه، البصير بالسياسة والتدبير، والقيام بأمور الرعية وما يصلحهم في دنياهم ودينهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، قال ابن جريج: ولا يأمركم النبي ﷺ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا.

قال ابن كثير^(٢): ﴿يَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، أي: لا يفعل ذلك إلا مَنْ دعا إلى عبادة غير الله، ومن دعا إلى عبادة غير الله، فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرُونَ بِالْإِيمَانِ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وبالله التوفيق.

! • • •

(١) انظر «جامع البيان» (٣/٣٢٧).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٧٧).

الدرس الثالث والأربعون

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَعْجُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ يُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ إِلَّا الْأَرْضُ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ؕ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾. قال ابن جرير^(١): تأويل الآية. واذكروا يا معشر أهل الكتاب ﴿إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ﴾ أيها النبيون ﴿مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ من عندي ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ يقول: لتصدقن به ولتنصرنه. وقال قتادة: ﴿أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ أن يصدق بعضهم بعضاً. وقال علي بن أبي طالب: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ الله عليه الميثاق، لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولننصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولننصرنه.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾. قال ابن عباس: ﴿إِصْرِي﴾ عهدي. وقال ابن إسحاق: أي ثقل ما حملتم من عهدي، أي ميثاقي الشديد المؤكد، وقال علي بن أبي طالب في قوله: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ يقول: فاشهدوا على أممكم بذلك ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ عليكم وعليهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. قال علي بن

(١) انظر «جامع البيان» (٣/ ٣٣٠ و ٣٣٢).

أبي طالب: ﴿فمن تولى﴾ عنك يا محمد بعد هذا العهد من جميع الأمم ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ العاصون في الكفر.

قوله عز وجل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

قال أبو العالية في قوله: ﴿وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾. قال: كل آدمي قد أقر على نفسه بأن الله ربي وأنا عبده، ممن أشرك في عبادته، فهذا الذي أسلم كرهاً، ومن أخلص من العبودية فهو الذي أسلم طوعاً. وقال مجاهد: سجد المؤمن طائعاً، وسجد ظل الكافر وهو كاره.

وقال ابن كثير^(١): فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً، فإنه تحت التسخير، والقهر، والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع. وقوله تعالى: ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل﴾ الآية.

قال ابن كثير^(٢) في قوله: ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا﴾، يعني القرآن ﴿وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب﴾، أي من الصحف والوحي ﴿والأسباط﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل — وهو يعقوب — الاثني عشر. ﴿وما أوتي موسى وعيسى﴾، يعني بذلك التوراة والإنجيل.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٧٨).

(٢) المصدر السابق (١/٣٧٩).

﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة. ﴿لَا نَفْرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾، يعني بل نؤمن بجميعهم. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك، بل هم يصدقون بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

قال ابن جرير^(١): يعني بذلك جل ثناؤه: ومن يطلب ديناً غير دين الإسلام ليدين به، فلن يقبل الله منه، وهو في الآخرة من الخاسرين.

وروى الإمام أحمد عن الحسن قال: حدثنا أبو هريرة إذ ذاك ونحن بالمدينة قال: قال رسول الله ﷺ: «تجيء الأعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة فتقول: يا رب أنا الصلاة، فيقول: إنك على خير. وتجيء الصدقة فتقول: يا رب أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير. ثم يجيء الصيام فيقول: يا رب أنا الصيام، فيقول: إنك على خير. ثم تجيء الأعمال، كل ذلك يقول الله: إنك على خير. ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام وأنا الإسلام، فيقول الله تعالى: إنك على خير، بك اليوم آخذ وبك أعطي». قال الله في كتابه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢).

قوله عز وجل: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦) **أُولَئِكَ** جَزَاءُ هُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكُوتَ وَالْئَاثِمَ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ **خَلِيدِينَ** فِيهَا لَا

(١) انظر: «جامع البيان» (٣/٣٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٣٦٢)، والطبراني في الأوسط كما في «مجمع البحرين» (٨/٩٨ — ٩٩)، وفي سنده انقطاع.

يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ .

قال قتادة: كان الحسن يقول في قوله: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾ الآية: هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، رأوا نعت محمد ﷺ في كتابهم، وأقروا به، وشهدوا أنه حق، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فأنكروه، وكفروا بعد إقرارهم، حسداً للعرب حين بعث من غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . قال مجاهد: جاء الحارث بن سويد، فأسلم مع النبي ﷺ، ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه، فأنزل الله عز وجل في القرآن ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾ إلى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال: فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه، فقال الحارث: إنك والله ما علمت^(١) لصدوق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله عز وجل لأصدق الثلاثة. قال: فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه.

وقال عكرمة: نزلت في أبي عامر الراهب والحارث بن سويد ووحوش بن الأسلت، وفي اثني عشر رجلاً رجعوا عن الإسلام، ولحقوا بقريش، ثم كتبوا إلى أهلهم: هل لنا من توبة؟ فنزلت ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الآيات. واختار ابن جرير^(٢): جواز نزولها في الفريقين، وعمومها في كل مرتد.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّاكُونَ ﴿٩١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ

(١) في (الأصل): «ما علمت»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٢) انظر «جامع البيان» (٣/ ٣٤٢).

يَقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾ .

قال قتادة: قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ هم أعداء الله اليهود كفروا بالإنجيل ﴿ثُمَّ ازدادوا كفراً﴾ حين بعث محمد ﷺ، فأنكروا وكذبوا به. وقال أبو العالية في قوله: ﴿لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ﴾. قال: تابوا من بعض، ولم يتوبوا من الأصل.

وقال ابن جرير^(١): حدثنا ابن المثنى قال: حدثنا عبد الأعلى قال: حدثنا داود قال: سألت أبا العالية عن هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازدادوا كفراً لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾. قال: هم اليهود والنصارى والمجوس، أصابوا ذنباً في كفرهم، فأرادوا أن يتوبوا منها، ولن يتوبوا من الكفر، لأنه يقول: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾. روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يَقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ أَبِيكَ آدَمَ أَنْ لَا تَشْرِكَ بِي شَيْئاً، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ»^(٢) والله أعلم.

• • •

(١) انظر: «جامع البيان» (٣/٣٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٣٣٣٤)، ومسلم (ح/٢٨٠٥).

الدرس الرابع والاربعون

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿قُلْ يَتَّاهِلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿قُلْ يَتَّاهِلُ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٠٣﴾

وَلَسَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (١٧).

قال عمرو بن ميمون: البرُّ الجنة. وقال قتادة: يقول ﴿لَنْ تَنَالُوا﴾ برّ ربكم ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا﴾ مما يعجبكم ومما تهوون من أموالكم. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ يقول: محفوظ لكم ذلك. وعن أنس بن مالك قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله إن الله يسألنا من أموالنا، أشهد أنني قد جعلت أرضي بيرحا لله. فقال رسول الله ﷺ: اجعلها في قرابتك. فجعلها بين حسان بن ثابت وأبي بن كعب»^(١). رواه ابن جرير وغيره. وفي رواية الصحيحين: إن الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليّ بيرحا، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تعالى»^(٢). الحديث.

قوله عز وجل: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣) ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٤) ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٥).

قال البغوي^(٣): قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ

(١) أخرجه مسلم (٢/٦٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (ح/١٤٦١ و ٥٦١١)، ومسلم (ح/٩٩٨).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٥٤).

إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ﴿سبب نزول هذه الآية «أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم، وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانها، وأنت تأكلها فلست على ملته. فقال رسول الله ﷺ: كان ذلك حلالاً لإبراهيم عليه السلام. فقالوا: كل ما نحرمة اليوم كان ذلك حراماً على نوح وإبراهيم حتى أنتهى إلينا». فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل﴾ يريد سوى الميتة والدم، فإنه لم يكن حلالاً قط. ﴿إلا ما حرم إسرائيل على نفسه﴾ وهو يعقوب عليه السلام. ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ يعني ليس الأمر على ما قالوا من حرمة لحوم الإبل وألبانها على إبراهيم، بل كان الكل حلالاً له ولبني إسرائيل، وإنما حرمها إسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة، يعني ليست في التوراة حرمتها) انتهى.

وقال ابن عباس في: ﴿إلا ما حرم إسرائيل على نفسه﴾ قال: حرم العروق ولحوم الإبل. قال: كان به عرق النساء فأكل من لحومها فبات بليلة يزفوا - يعني: يصيح - فحلف أن لا يأكله أبداً.

قوله تعالى: ﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ نزلت في اليهود، وهي عامة في كل من كذب على الله. وقوله تعالى: ﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾، أي: اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

قال الحسن في قوله: ﴿إِنْ أُولَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْكَةً مَبَارَكًا وَهَدَى لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: هو أول مسجد عبد الله فيه في الأرض. وقال قتادة: هو أول بيت وضعه الله عز وجل فطاف به آدم ومن بعده. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، أي: مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة. قلت: ثم أي؟ قال: ثم حيث أدركتك الصلاة فصلّ، فكلها مسجد»^(١). متفق عليه.

قال ابن حجر في شرح البخاري^(٢): (وهذا الحديث يفسر المراد بقوله تعالى: ﴿أَنْ أُولَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْكَةً﴾ ويدل على أن المراد بالبيت بيت العبادة لا مطلق البيوت، وقد ورد ذلك صريحاً عن عليّ، أخرجه إسحاق بن راهويه وابن أبي حاتم وغيرهما بإسناد صحيح عنه قال: كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله.

إلى أن قال: ويؤيد قول^(٣) من قال: إن آدم هو الذي أسس كلاً من المسجدين ما ذكر ابن هشام في كتاب «التيجان»: أن آدم لما بنى الكعبة أمره الله بالسير إلى بيت المقدس وأن يبنيه فبناه، ونسك فيه، وبناء آدم للبيت مشهور، وقد تقدم قريباً حديث عبد الله بن عمرو: أن البيت رفع زمن الطوفان حتى بوأه الله لإبراهيم) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿بَيْكَةً﴾، أي: مكة قيل: سميت مكة لقلة مائها، وبكة: لازدحام الناس فيها. قال قتادة: بكة: بك الناس بعضهم بعضاً، الرجال والنساء يصلي بعضهم بين يدي بعض، لا يصلح ذلك إلا بمكة.

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٤٢٥)، ومسلم (ح/٥٢٠).

(٢) انظر (٦/٤٧٠ و ٤٧١ ح/٣٣٦٦).

(٣) في (الأصل): «قوله» والمثبت من «الفتح».

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾، كما قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾^(١) وقال قتادة: قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وهذا كان في الجاهلية، كان الرجل لو جرّ كل جريرة على نفسه ثم لجأ إلى حرم الله لم يتناول ولم يطلب، فأما في الإسلام: فإنه لا يمنع من حدود الله، من سرق فيه قطع، ومن زنى فيه أقيم عليه الحد، ومن قتل فيه قتل. وقال مجاهد في الرجل يقتل ثم يدخل الحرم قال: يؤخذ فيخرج من الحرم، ثم يقام عليه الحد.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. قال ابن عباس: والسبيل أن يصح بدن العبد، ويكون له ثمن: زاد وراحلة من غير أن يجحف به. وقال ابن الزبير في قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال: على قدرة القوة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، أي: من جحد وجوب الحج فقد كفر. قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ من زعم أنه ليس بفرض عليه.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾^(١٨) قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١٩).

قال قتادة: قوله: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يقول^(٢): لم تصدّون عن الإسلام وعن نبي الله من آمن بالله؟ وأنتم شهداء فيما تقرأون من

(١) سورة النكبات: الآية ٦٧.

(٢) في (الأصل): «يقولون»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

كتاب الله أن محمداً رسول الله، وأن الإسلام دين الله الذي لا يقبل غيره، ولا يجزي إلا به، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل؟

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ۖ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ .

قال مجاهد: كان جماع قبائل الأنصار بطنين: الأوس، والخزرج، وكان بينهما في الجاهلية حرب ودماء وشنآن، حتى من الله عليهم بالإسلام وبالنبي ﷺ، فأطفأ الله الحرب التي كانت بينهم، وألّف بينهم بالإسلام. قال: فبينما^(١) رجل من الأوس ورجل من الخزرج قاعدان يتحدثان، ومعهما يهودي جالس، ولم يزل يذكرهما أيامهما والعداوة التي كانت بينهم، حتى استبأ، ثم اقتتلا، قال: فنادى هذا قومه وهذا قومه، فخرجوا بالسلاح، وصف بعضهم لبعض. قال: رسول الله ﷺ شاهد يومئذ بالمدينة، فجاء رسول الله ﷺ فلم يزل يمشي بينهم إلى هؤلاء وإلى هؤلاء، ليسكنهم^(٢) حتى رجعوا ووضعوا السلاح، فأنزل الله عز وجل القرآن في ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ . قال قتادة: علما بَيِّنَانُ وَجَدَانُ نبي الله ﷺ، وكتاب الله، فأما نبي الله فمضى ﷺ، وأما كتاب الله فأبقاه الله بين أظهركم، رحمة من الله ونعمه، فيه حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته.

(١) في (الأصل): «فينا»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٢) في (الأصل): «فسكنهم»، والمثبت من تفسير ابن جرير، وابن أبي حاتم والدر المنثور.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٥/٤) عن مجاهد مرسلًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، أي: واضح وسيمنه من كل سوء.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾.

قال ابن مسعود: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر. ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾. قال طاوس: على الإسلام وعلى حرمة الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ قال ابن مسعود في قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ قال: الجماعة. وقال قتادة: حبل الله المتين، أمر أن يعتصم به، هذا القرآن. وقال أبو العالية: يقول: اعتصموا بالإخلاص لله وحده. وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل افرقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفرق على اثنين وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا واحدة. قال: فقيل: يا رسول الله وما هذه الواحدة؟ قال: فقبض يده وقال: الجماعة، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾»^(١). رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾. قال السدي: أما إذ كنتم أعداء ففي حرب، فألف بين قلوبكم بالإسلام. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «لا تحاسدوا ولا

(١) أخرجه أحمد (١٤٥/٣)، وابن ماجه (٣٩٩٣)، وابن أبي عاصم (ح/٦٤)، وله شواهد، وهو حديث صحيح.

تناجشوا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً^(١). قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً قال لابن مسعود: كيف أصبحتم؟ قال: أصبحنا بنعمة الله إخواناً.

وقوله تعالى: ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ قال قتادة: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاء^(٢) عيشاً، وأبينه ضلالة، وأعراهم جلوداً، وأجوعه بطوناً، معكومين على رأس حجر بين الأسدين: فارس والروم، لا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات يردى في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله لا نعلم قبيلاً يومئذ من حاضر الأرض، كانوا فيه أصغر حظاً، وأدق فيها شأنًا منهم، حتى جاء الله عز وجل بالإسلام، فورثكم به الكتاب، وأحل لكم به دار الجهاد، ووضع لكم به من الرزق، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشاكرين، وإن أهل الشكر في مزيد الله، فتعالى ربنا وتبارك.

قال البغوي^(٣): ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار﴾، أي: على طرف حفرة مثل شفا البئر، معناه: وكنتم على طرف حفرة من النار، ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا [أن]^(٤) تموتوا على كفركم، فأنقذكم الله منها بالإيمان.

قوله عز وجل: ﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ^(١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ^(١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٠٦٦)، ومسلم (٤/١٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (الأصل): «وأشقاءهم»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (١/٢٦٣).

(٤) ما بين المعقوفتين إضافة من تفسير البغوي.

وَسَوْدُ وُجُوهِ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾.

قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾، أي: الإسلام. ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾، أي: يأمرون بطاعة الله وينهون عن المعاصي ﴿وأولئك هم المفلحون﴾. وقال أبو جعفر الباقر: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾، ثم قال: الخير اتباع القرآن وسنتي». رواه ابن مردويه^(١). وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾. قال ابن عباس: أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات في دين الله.

وقوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ قال ابن عباس: «تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدعة»^(٣) ﴿فأما الذين اسودت وجوههم

(١) كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٣٩٠/١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١١٢/٢).

(٢) أخرجه مسلم (ح/٤٩)، ووهب ابن كثير — رحمه الله — وتبعه على ذلك المصنف — رحمه الله — فجعل الحديث من حديث أبي هريرة — رضي الله عنه — وليس كذلك، إنما هو من حديث أبي سعيد الخدري — رضي الله عنه — فليتنبه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/٥٤/ب)، والخطيب (٣٧٩/٧)، واللالكائي (١/٧٢)، والسهمي في «تاريخ جرجان» (ص ١٣٢ — ١٣٣) بسند موضوع.

أكفرتم بعد إيمانكم ﴿ قال الحسن: هم المنافقون. ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون. ﴿

قال ابن كثير^(١): وهذا الوصف يعم كل كافر. ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴿ يعني: الجنة. ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلاماً للعالمين ﴿ بل هو الحاكم العدل الذي لا يجور. ﴿ والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور ﴿ فيجزي كلاً بعمله. والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٣٩٠).

الدرس الخامس والأربعون

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ١١٠ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتَلُوا يَكُونُوا يُولُوكُمْ أَدْبَارًا ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿ ١١١ ﴾ ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿ ١١٢ ﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿ ١١٣ ﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ ١١٤ ﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿ ١١٥ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ ١١٦ ﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿ ١١٧ ﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخِلُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبْرًا وَلَا وِدًّا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ ١١٨ ﴾ هَاسِتُمْ أَوْلَاءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ

وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ إِلَّا نَمْلٌ مِنْ
الْفَيْضِ قَلٌ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ سَوَّاهُمْ
وَلِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا تَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا
إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذىً وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذْيَارُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قال مجاهد: في قوله: ﴿كُنتُمْ خير أمة أخرجت للناس﴾ يقول: على هذا الشرط: أن تأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر، وتؤمنوا بالله. وقوله تعالى: ﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ قال قتادة: ذم الله أكثر الناس.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أذىً وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأَذْيَارُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، قال قتادة قوله: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أذى﴾ قال: أذى تسمعون منه.

قوله عز وجل: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُثْقَفُوا إِلَّا يُحِبِّلَ مِنَ اللَّهِ وَحِبِّلَ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوهُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

قال الحسن: في قوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُثْقَفُوا إِلَّا يُحِبِّلَ مِنَ اللَّهِ وَحِبِّلَ مِنَ النَّاسِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ قال: أدركتهم هذه الأمة، وأن المجوس لتجبيهم الجزية.

وقوله: ﴿إِلَّا يُحِبِّلَ مِنَ اللَّهِ وَحِبِّلَ مِنَ النَّاسِ﴾ قال قتادة: إلا بعهد من الله وعهد من الناس.

الإسلام، ومنحوا فيه، قالت أحبار يهود، أهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غير، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله﴾ إلى قوله: ﴿وأولئك من الصالحين﴾ وقال قتادة: قوله: ﴿أمة قائمة﴾ يقول: قائمة على كتاب الله وفرائضه وحدوده.

وقوله تعالى: ﴿يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾، أي: يصلون. قال قتادة: يتلون آيات الله آناء الليل، أي: ساعات الليل: ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ قال ابن كثير^(١): ﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾، أي: لا يضيع عند الله بل يجزيهم به أوفر الجزاء ﴿والله عليم بالمتقين﴾، أي: لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١١٧﴾.

قال البغوي^(٢): ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، أي: لا تنفع أموالهم بالفدية، ولا أولادهم بالنصرة من الله شيئاً، أي: من عذاب الله.

وقال مجاهد في قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٩٧/١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٢٦٩/١).

قال: نفقة الكافر في الدنيا وصدقاته، كمثل ربح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته. قال ابن عباس: ربح فيها صرير شديد وزمهير.

قال ابن كثير^(١): فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه.

وقوله تعالى: ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾، أي: بالكفر والمعصية.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآأَن تُمْ أَوْلَآءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَآبِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَٰلَيْكُمْ ٱلْأَنَآئِلَ مِنَ ٱلْفَيْضِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ سُّوْهُمَ وَإِن تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصِيرُواْ تَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

قال ابن عباس: كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود، لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية، فأنزل الله عز وجل فيهم، فنهاهم عن مباطنتهم تخوف الفتنة عليهم منهم: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾ إلى قوله: ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾^(٢)، وقال قتادة: نهى الله عز وجل المؤمنين أن يستدخلوا المنافقين أو يواخوهم، أي: يتولاهم من دون المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم﴾.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣٩٨/١).

(٢) أخرجه ابن جرير (٦١/٤)، وفي سنده ضعف.

قال البغوي^(١): ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾، أي: لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد، والخبال: الشر ﴿ودوا ما عنتم﴾، أي: يودون ما يشق عليكم من الضر والشر والهلاك، والعنت: المشقة.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخَفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ قال الربيع: يقول: ما تكن صدورهم أكبر مما قد أبدوا بالستهم: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ هَآأُنْتُمْ أَوْلَاءُ تَحِبُّونَهُمْ وَلَا يَحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ قال ابن عباس: أي بكتابكم وكتابهم مما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قال قتادة: إذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا. ليس بهم إلا مخافة على دمائهم وأموالهم، فصانعوهم بذلك. ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ يقول: مما يجدون في قلوبهم من الغيظ والكراهة لما هم عليه لو يجدون ريحاً لكانوا على المؤمنين.

قال البغوي^(٢): ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾، أي: أبقوا إلى الممات بغيطكم. ﴿إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، أي: بما في القلوب من خير وشر.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنْ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ يرشد سبحانه إلى الصبر والتقوى، والتوكل عليه. فلا حول ولا قوة إلا بالله، فمن صبر نصره، ومن توكل عليه كفاه. ودفع عنه كيد عدوه وأذاه. والله المستعان.



(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٦٩).

(٢) المصدر السابق (١/٢٧٠).

الدرس السادس والأربعون

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَلِيفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي السَّارِ وَالضَّرَاءِ وَالْكُظُمِ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ

يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ تَجْرِي مِّن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾.

قال قتادة: تبوى تهىء وتنزل. غدا نبي الله ﷺ من أهله إلى أحد ييوى المؤمنين مقاعد للقتال، قال مجاهد: يمشي على رجله، فجعل يصف (١) أصحابه للقتال.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. قال قتادة: وذلك يوم أحد، والطائفتان: بنو سلمة، وبنو حارثة، حيان من الأنصار هموا بأمر فعصمهم الله من ذلك. وقد ذكر لنا أنه لما نزلت هذه الآية قالوا: لم يسرنا إنا لم نهم بالذي هممنا به، وقد أخبرنا الله أنه ولينا. وقال السدي: خرج رسول الله ﷺ إلى أحد في ألف رجل، وقد وعدهم الفتح إن صبروا، فلما رجع عبد الله بن أبي بن سلول في ثلاثمائة، فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم، فلما غلبوه وقالوا له: ما نعلم قتالاً، ولئن أطعنا لترجعن معنا، وقال: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ وهم بنو سلمة وبنو حارثة هموا بالرجوع حين رجع عبد الله بن أبي فعصمهم الله، وبقي رسول الله ﷺ في سبعمائة. قال ابن عباس: الفشل الجبن.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْ

(١) في (الأصل): «يحف»، وهو خطأ، والمثبت من تفسير البغوي.

الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ .

قال ابن إسحاق: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾، يقول: وأنتم أقل عدداً وأضعف قوة، فاتقوا الله لعلكم تشكرون، أي فاتقون؛ فإنه شكر نعمتي. قال قتادة: وبدر ماء بين مكة والمدينة التقى عليه نبي الله ﷺ والمشركون، وكان أول قتال قاتله نبي الله ﷺ والمشركون. وذكر لنا أنه قال لأصحابه يومئذ: «أنتم اليوم بعدة أصحاب طالوت يوم لقي^(١) جالوت. فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون يومئذ ألف أو راهقوا ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾، عن ابن عباس قال: حدثني رجل من بني غفار قال: أقبلت أنا وابن عم لي حتى أصعدنا في جبل يشرف على بدر، ونحن مشرکان ننتظر الوقعة على من تكون الدائرة، فنتهب مع من ينتهب. قال: فبينما نحن في الجبل إذ دنت منا سحابة فسمعنا فيها حمحمة الخيل، فسمعت قائلاً يقول: أقدم حيزوم. قال: فأنا ابن عمي فانكشف قناع قلبه فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك، ثم تماسكت. قال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة في يوم من الأيام سوى يوم بدر، وكانوا يأتون فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يضربون.

وقوله تعالى: ﴿ويأتوكم﴾، أي: المشركون. وقال قتادة: ﴿من فورهم هذا﴾، يقول: من وجههم هذا. قال: كان يوم بدر أمدهم الله تعالى بألف من

(١) في (الأصل): «يوم كفى»، والمثبت من تفسير ابن جرير، والدر المنثور.

الملائكة، كما قال: ﴿فاستجاب لكم ربكم أني ممدكم بألف من الملائكة﴾، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف، وقال الضحاك: كان هذا موعداً من الله يوم أحد عرضه على نبيه محمد ﷺ أن المؤمنين إن اتقوا وصبروا أمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، ففر المسلمون يوم أحد وولوا مدبرين، فلم يمدهم الله. وقال عكرمة في قوله: ﴿ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة﴾. قال: فورهم ذلك كان يوم أحد، غضبوا ليوم بدر مما لقوا — يعني الكفار —. وقال الضحاك في قوله: ﴿ويأتوكم من فورهم هذا﴾، يقول: من وجههم وغضبهم.

وقوله تعالى: ﴿بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾، أي: معلمين. قال قتادة: كان سيما خيلهم صوفاً في نواصيها. قال الربيع: كانوا يومئذ على خيل بلق. وقال ابن عباس: كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمراء. ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر.

وقوله تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾، أي: ولما أنزل الله الملائكة ولعلمكم بذلك إلا بشارة لكم، وما النصر إلا من عند الله. قال ابن إسحاق: ﴿وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به﴾، لما عرف من ضعفكم، وما النصر إلا من عندي بسلطاني وقدرتي، وذلك أني أعرف الحكمة لا إلى أحد من خلقي. قال ابن زيد: وما النصر إلا من عند الله، لو شاء الله أن ينصركم بغير الملائكة فعل. ﴿العزيز الحكيم﴾، أي: العزيز الذي لا يغالب. الحكيم في أقواله وأفعاله.

وقوله تعالى: ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين﴾. قال الحسن: هذا يوم بدر قطع الله طائفة منهم، وبقيت طائفة. وقال ابن إسحاق: ﴿أو يكتبهم فينقلبوا خائبين﴾، أو يردهم خائبين، أو يرجع من بقي منهم خائبين لم ينالوا شيئاً مما كانوا يأملون.

قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ .

عن أنس قال: «قاتل النبي ﷺ يوم أحد، وكسرت رباعيته، وشج، فجعل يمسح عن وجهه الدم ويقول: كيف يصلح قوم خضبوا نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم؟! فترلت ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾»^(١)، رواه ابن جرير وغيره. قال ابن إسحاق: أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم، أتوب عليهم برحمتي؛ فإن شئت فعلت، أو أعذبهم بذنوبهم فإنهم ظالمون، أي قد استحقوا ذلك بمعصيتهم إياي. وعن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة نفر، فأنزل الله عز وجل ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾». قال: وهداهم الله للإسلام»^(٢). رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. قال ابن إسحاق: أي يغفر الذنوب، ويرحم العباد على ما فيهم.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ .

(١) أحمد (٢٥٣/٣)، ومسلم (١٧٩١/٤)، والترمذي (ح/٣٠٠٢ و ٣٠٠٣)، والنسائي في الكبرى (٣١٤/٦)، والطبراني (٨٦/٤ و ٨٧).
(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٠٦٩) وغيره.

قال عطاء: كانت ثقيف تداين في بني المغيرة في الجاهلية، فإذا حلّ الأجل قالوا: نزيدكم وتؤخرون. فنزلت ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾. وقال ابن زيد في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ كان أبيّ يقول: إنما كان الربا في الجاهلية في التضعيف، وفي السنن^(١)، يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حلّ الأجل، فيقول له: تقضيني وتزيدني. فإن كان عنده شيء يقضيه قضى، وإلاّ حوله إلى السنن التي فوق ذلك.

قوله عز وجل : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣٢) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْفَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٤﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٥﴾ .

قال ابن إسحاق: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾، أي: ذلك لمن أطاعني وأطاع رسولي. قال قتادة: كانوا يرون الجنة فوق السموات السبع تحت العرش، وأن جهنم تحت الأرضين السبع.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ يقول: في

(١) أي: سنُ الإبل، وغيرها من البهائم، أن يقول: انظرنني إلى السنة القادمة، وأعطيك بنت مخاض، فلما حلت تلك السنة، لم يستطع الوفاء بدينه، فيقول: انظرنني إلى السنة التي بعدها وأعطيك بنت لبون، ثم حقة، ثم جذعة، ثم رباعياً وهكذا، انظر "تفسير ابن جرير" (٩٠/٤).

اليسر والعسر. وقال قتادة: قوله: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ قوم أنفقوا في العسر واليسر، والجهد والرخاء، فمن استطاع أن يغلب الشر بالخير فليفعل، ولا قوة إلا بالله فنعمت^(١) والله يا ابن آدم الجرعة تجرعهما من صبر وأنت مغیظ، وأنت مظلوم. وعن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأه الله أمناً وإيماناً»^(٢) رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ الفاحشة: الزنا، والكبائر.

وقوله: ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ أي بالصغائر. قال ابن مسعود: كانت بنو إسرائيل إذا أذنبوا ذنباً أصبح مكتوباً على بابه الذنب وكفارته، فأعطينا خيراً من ذلك هذه الآية. قال ابن إسحاق: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾، أي: إن أتوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم بمعصية ذكروا نهي الله عنها، وما حرم عليهم، فاستغفروا لها، وعرفوا أنه لا يغفر الذنوب إلا هو.

وقال قتادة في قوله: ﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ فإياكم والإصرار فإنما هلك المصرون الماضون قدماً، لا ينهاهم مخافة الله عن حرام حرمه الله عليهم، ولا يتوبون من ذنب أصابوا حتى أتاهم الموت وهم على ذلك.

(١) في (الأصل): «فنعمة» وهو خطأ.

(٢) أخرجه ابن جرير (٩٤/٤)، وفي سنده ضعف، وينحوه من حديث معاذ بن أنس — رضي الله عنه — أخرجه أحمد (٤٣٨/٣)، وأبو داود (ح/٤٧٥٦)، والترمذي (ح/٢٠٩٠ و٢٦١١) وحسنه، وابن ماجه (ح/٤١٨٦)، والطبراني في الكبير (١٨٨/٢٠) بلفظ «من كظم غيظاً وهو يقدر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخير من حور العين أيتن شاء» واللفظ للطبراني، وهو حديث حسن.

وفي الحديث الصحيح يقول الله عز وجل: «يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك»^(١).

وقوله تعالى: ﴿أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾. قال ابن إسحاق: أي ثواب المطيعين. والله أعلم.



(١) أخرجه أحمد (١٥٤/٥ و ١٧٢)، والدارمي (٣٢٢/٢)، والترمذي (ح/٣٥٤٠) من حديث أنس بن مالك — رضي الله عنه — وقال: «حديث غريب»، وهو حديث حسن.

الدرس السابع والأربعون

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَنْهَوُا وَلَا
 تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ
 الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ
 جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ
 فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ
 مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا
 وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا
 مُوَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا
 وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَجْوَى قُتِلَ مَعَهُ رَيْثُونٌ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا
 أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ
 قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا
 عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ۞

قوله عز وجل: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ١٣٧ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٣٩ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَجْءٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَجْءٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ١٤١ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ ١٤٢ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ١٤٣

قال مجاهد في قوله: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾. يقول في الكفار والمؤمنين، والخير والشر. قال ابن إسحاق: استقبل ذكر المصيبة التي نزلت بهم، يعني بالمسلمين يوم أحد، والبلاء الذي أصابهم، والتمحيص لما كان فيهم، واتخاذهم الشهداء منهم، فقال تعزية لهم وتقريعاً لهم فيما صنعوا، وما هو صانع بهم ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾، أي: قد مضت مني وقائع نقمة في أهل الكذب لرسلي، والشرك في عاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، فسيروا في الأرض تروا مثلات قد مضت فيهم، ولمن كان على مثل ما هم عليه مثل ذلك مني، وإن أمكنت لهم.

وقوله تعالى: ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾. قال قتادة: هذا بيان للناس، وهو هذا القرآن جعله الله بياناً للناس عامة، وهدى وموعظة للمتقين خاصة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. قال قتادة: يعزي أصحاب محمد ﷺ كما تسمعون، ويحثهم على قتال عدوهم، وينهاهم عن العجز والوهن في طلب عدوهم في سبيل الله. وقال ابن إسحاق: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾، أي: لا تضعفوا. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ ولا تأسوا على ما أصابكم ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾، أي: لكم تكون العاقبة والظهور. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إِنْ كُنْتُمْ صَدَقْتُمْ، يعني بما جاءكم به عني.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسِكُكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾. قال قتادة: والقَرْح الجراحة، وذاكم يوم أحد فشا في أصحاب نبي الله ﷺ يومئذ القتل والجراحة، فأخبرهم الله عز وجل أن القوم قد أصابهم من ذلك مثل الذي أصابكم، وإن الذي أصابكم عقوبة.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾. قال الربيع: فأظهر الله عز وجل نبيه ﷺ وأصحابه على المشركين يوم بدر، وأظهر عليهم عدوهم يوم أحد، وقد ينال الكافر من المؤمن، ويبتلي المؤمن بالكافر؛ ليعلم الله من يطيعه ممن يعصيه، ويعلم الصادق من الكاذب، وأما من ابتلى منهم من المسلمين يوم أحد: فكانت عقوبة بمعصيتهم رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. قال قتادة: فكرم الله أوليائه بالشهادة بأيدي عدوهم، ثم تصير حوامل الأمور وعواقبها لأهل طاعة الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾. قال ابن إسحاق: وليمحص الله الذين آمنوا، أي: يختبر الذين آمنوا حتى يخلصهم بالبلاء الذي نزل بهم، وكيف صبرهم ويقينهم. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وَيَمْحَقُ الْكَافِرِينَ﴾: قال: يمحى من محق في الدنيا، وكان بقية من يمحى في الآخرة في النار.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ﴾ قال ابن إسحاق: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وتصيبوا من ثوابي الكرامة، ولم أختبركم بالشدة وأبتليكم بالمكاره حتى أعلم أصدق ذلك منكم الإيمان بي، والصبر على ما أصابكم بي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنُونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾. قال مجاهد: غاب رجل عن بدر فكانوا يتمنون مثل يوم بدر أن يلقيه، فيصيبوا من الخير والأجر مثل ما أصاب أهل بدر، فلما كان يوم أحد ولّى من ولّى منهم، فعاتبهم الله على ذلك.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كُنَّا مُؤَجِّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١١٥﴾ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١١٧﴾ فَكَانَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٨﴾.

قوله: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين﴾. قال قتادة: ذلكم يوم أحد حين أصابهم القرع والقتل، ثم تنازعوا نبي الله ﷺ بقية ذلك، فقال أناس لو كان نبياً ما قتل، وقال ناس من عليه أصحاب

نبي الله ﷺ: قاتلوا على ما قاتل عليه محمد نبيكم حتى يفتح الله لكم، أو تلحقوا به. فقال الله عز وجل: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾. يقول: إن مات نبيكم أو قتل ارتددتم كفاراً بعد إيمانكم.

قوله تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾، أي: لا يموت أحد حتى يستوفي المدة التي أجل الله له.

﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين﴾. قال ابن إسحاق: أي فمن كان منكم يريد الدنيا ليست له رغبة في الآخرة نؤته منها ما قسم له منها من رزق، ولاحظ له في الآخرة، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ما وعده مع ما يجري عليه من رزقه في دنياه، ﴿وسنجزى الشاكرين﴾، أي: ذلك جزاء الشاكرين، يعني بذلك إعطاء الله إياه ما وعده في الآخرة مع ما يجري عليه من الرزق في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير﴾. قال ابن عباس: جموع كثيرة^(١): وقال ابن زيد: الربيون الأتباع، والربانيون الولاة.

وقوله تعالى: ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾. قال ابن إسحاق: فما وهنوا لفقد نبيهم، وما ضعفوا عن عدوهم وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم، وذلك الصبر. والله يحب الصابرين.

وقوله تعالى: ﴿وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾ قال مجاهد في قول الله ﴿وإسرافنا في أمرنا﴾ قال: خطايانا، وظلمنا أنفسنا. وقال ابن إسحاق: أي فقولوا

(١) في (الأصل): «كثير»، والمثبت من تفسير ابن جرير.

كما قالوا، أو اعلّموا أنما ذلك بذنوب منكم، واستغفروا كما استغفروا، وامضوا على دينكم كما مضوا، ولا ترتدوا على أعقابكم راجعين، واسألوه كما سألوه أن يثبت أقدامكم، واستنصروه كما استنصروه على القوم الكافرين، فكل هذا من قولهم قد كان، وقد قتل نبيهم فلم يفعلوا كما فعلتم.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، قال قتادة: أي والله، لآتاهم الله الفتح والظهور والتمكين، والنصر على عدوهم في الدنيا ﴿وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ﴾ يقول: حسن الثواب في الآخرة هي الجنة. والله أعلم.



الدرس الثامن والأربعون

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ
 آَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ
 النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ
 مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾
 وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ
 وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ
 مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ
 لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴿١٥٣﴾ إِذْ
 تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي
 أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا بَعَثَ لِكَيْلًا تَحَزِنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا
 مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٤﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً
 نَّاسًا يَفْشَى طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ
 الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ
 يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا
 هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ
 اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٥﴾

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا
كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرْدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

قال ابن إسحاق: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾، أي: عن دينكم، فتذهب دنياكم وآخرتكم، بل الله مولاكم إن كان ما تقولون بالستتكم صدقاً في قلوبكم، وهو خير الناصرين، أي: فاعتصموا به ولا تستنصروا بغيره، ولا ترجعوا على أعقابكم مرتدين عن دينكم.

وقوله تعالى: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مَثْوَى الظالمين﴾، قال السدي: لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين نحو مكة، انطلق أبو سفيان حتى بلغ بعض الطريق، ثم أنهم ندموا، فقالوا: بشس ما صنعتم أنكم قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم، ارجعوا فاستأصلوهم، فقذف الله عز وجل في قلوبهم الرعب فانهزموا، فلقوا أعرابياً فجعلوا له جُعللاً، وقالوا له: إن لقيت محمداً فأخبرهم بما قد جمعنا لهم، فأخبر الله عز وجل رسوله ﷺ، فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد، فأنزل الله عز وجل في ذلك، فذكر أبا سفيان حين أراد أن يرجع إلى النبي ﷺ، وما قذف في قلبه من الرعب، فقال: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۚ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۚ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرُّسُلُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَبِكُمْ فَأَتْبَعَكُمْ عَمَّا يَعْمُرُ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ .

عن ابن عباس: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه﴾، فإن أبا سفيان أقبل في ثلاث ليال خلون من شوال حتى نزل أحداً، وخرج رسول الله ﷺ، فأذن في الناس فاجتمعوا، وأمر على الخيل الزبير بن العوام ومعه يومئذ المقداد بن الأسود الكندي، وأعطى رسول الله ﷺ اللواء رجلاً من قريش، يقال له: مصعب بن عمير، وخرج حمزة بن عبد المطلب بالجيش^(١)، وبعث حمزة بين يديه، وأقبل خالد بن الوليد على خيل المشركين ومعه عكرمة بن أبي جهل، فبعث رسول الله ﷺ الزبير وقال: استقبل خالد بن الوليد فكن بإيذائه حتى أؤذنك، وأمر بخيل أخرى فكانوا من جانب آخر، فقال: لا تبرحوا حتى أؤذنكم، وأقبل أبو سفيان يحمل اللات والعزى، فأرسل النبي ﷺ إلى الزبير أن يحمل فحمل على خالد بن الوليد فهزمه ومن معه، فقال: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه﴾، يقول: تقتلونهم ﴿حتى إذا فشلت وتنازعت في الأمر وعصيت من بعد ما أراكم ما تحبون﴾، وأن الله وعد المؤمنين أن ينصرهم^(٢).

(١) في (الأصل): «بالجسر» وفي تفسير ابن جرير «بالحسر» والمثبت من: «الدر المنثور».

(٢) أخرجه ابن جرير (٤/ ١٢٥ - ١٢٦) بسند ضعيف.

قال ابن إسحاق: ﴿حتى إذا فشلتم﴾، أي: تجادلتم، ﴿وتنازعتم في الأمر﴾، أي: اختلفتم في أمري ﴿وعصيتم﴾، أي: تركتم أمر نبيكم ﷺ وما عهد إليكم، يعني الرماة، ﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾، أي: الفتح لا شك فيه، وهزيمة القوم عن نسائهم وأموالهم، وقوله تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾، قال الضحاك: فإن نبي الله ﷺ أمر يوم أحد طائفة من المسلمين، فقال: «كونوا مسلحة»^(١) للناس، بمنزلة أمرهم أن يثبتوا بها، وأمرهم أن لا يبرحوا مكانهم حتى يأذن لهم، فلما لقي نبي الله ﷺ يوم أحد أبا سفيان ومن معه من المشركين هزمهم نبي الله ﷺ، فلما رأى المسلمة أن الله عز وجل هزم المشركين، انطلق بعضهم وهم يتنادون: الغنيمة الغنيمة لا تفتكم، وثبت بعضهم مكانهم وقالوا: لا نريم^(٢) موضعنا حتى يأذن لنا نبي الله ﷺ، ففي ذلك نزل منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة، فكان ابن مسعود يقول: ما شعرت أن أحداً من أصحاب النبي ﷺ كان يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحد.

وقوله تعالى: ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾، قال ابن إسحاق: ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، أي صرفكم عنهم ليختبركم، وذلك ببعض ذنوبكم.

وقال ابن جريج: في قوله: ﴿ولقد عفا عنكم﴾، قال: لم يستأصلكم، قال الحسن: هؤلاء مع رسول الله ﷺ، وفي سبيل الله، غضاب الله، يقاتلون أعداء الله، نهوا عن شيء فصنعوه، فوالله ما تركوا حتى غموا بهذا الغم، فأفسق الفاسقين اليوم يفعل كل كبيرة ويركب كل داهية ويسحب، عليها ثيابه، ويزعم أن لا بأس عليه فسوف يعلم.

(١) في (الأصل): «مسلمة» وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير.

(٢) في (الأصل): «لا نريمهم» وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير.

وقال ابن إسحاق في قوله: ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾، يقول: وكذلك من الله على المؤمنين: إن عاقبتهم ببعض الذنوب في عاجل الدنيا أدباً وموعظة، فإنه غير مستأصل لكل ما فيهم من الحق له عليهم لما أصابوا من معصيته، رحمة لهم، وعائدة عليهم لما فيهم من الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم﴾، قال قتادة: ذاكم يوم أحد صعدوا في الوادي ونبي الله ﷺ يدعوهم في أخراهم، قال: «إليّ عباد الله»، قال السدي: لما شد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم، دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها، وجعل رسول الله ﷺ يدعو الناس: «إليّ عباد الله، إليّ عباد الله». قال ابن إسحاق: أنبئهم الله بالفرار عن نبيهم ﷺ وهو يدعوهم لا يعطفون عليه لدعائه إياهم، فقال: ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم﴾.

وقوله تعالى: ﴿فأنا بكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون﴾، قال قتادة: ﴿فأنا بكم غماً بغم﴾، كانوا تحدثوا يومئذ أن نبي الله ﷺ أصيب، وكان الغم الآخر قتل أصحابهم والجراحات التي أصابتهم. وقال الربيع: الغم الأول: الجراح والقتل، والغم الآخر حين سمعوا أن رسول الله ﷺ قد قتل، فأنساهم الغم الآخر ما أصابهم من الجراح والقتل، وما كانوا يرجون^(١) من الغنيمة، وذلك حين يقول: ﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدِّ الْغَمِّ أَمَنَةٌ نَّاصِيَةٌ يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ

(١) في (الأصل): «يرجعون» وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير، والدر المشور.

الْجَاهِلِيَّةَ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ .

قال قتادة: في قوله: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم...﴾ الآية، وذاكم يوم أحد كانوا يومئذ فريقين، فأما المؤمنون: فغشاهم النعاس أمانة منه ورحمة، والطائفة الأخرى المنافقون: ليس لهم همٌّ إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعبه، وأخذله للحق، يظنون بالله غير الحق، ظن الجاهلية ظنوناً كاذبة، إنما هم أهل شك وريبة في أمر الله، ﴿يقولون: لو كان لنا من الأمر من شيء ما قتلنا ههنا، قل: لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾.

قال ابن جريج: قيل لعبد الله بن أبي: قتل بنو الخزرج اليوم، قال: وهل لنا من الأمر من شيء؟ وعن الزبير قال: والله إني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني ما أسمعه إلا كالحلم حين قال: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا.

وقوله تعالى: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾، قال ابن إسحاق: ذكر الله تلاوم المنافقين وحسرتهم على ما أصابهم، ثم قال لنبية ﷺ قل: لو كنتم في بيوتكم لم تحضروا هذا الموضع الذي أظهر الله جل ثناؤه فيه منكم ما أظهر من سرائركم؛ لأخرج الذين كتب عليهم القتل إلى مواطن غيره يصرعون فيه؛ حتى يتلي به ما في صدوركم ولیمحص ما في قلوبكم، ﴿والله عليم بذات الصدور﴾، أي لا يخفى عليه شيء مما في صدوركم

﴿وليمحص ما في قلوبكم، والله عليم بذات الصدور﴾، أي: لا يخفى عليه شيء مما في صدورهم مما استخفوا به منكم.

وقال ابن جرير في تفسير^(١) قوله تعالى: ﴿لبرز الذين كتب عليهم القتل﴾، يقول: لظهر للموضع الذي كتب عليه مصرعه فيه من قد كتب عليه القتل منهم.

وقال ابن كثير^(٢): أي هذا قدر قدره الله عز وجل، وحكم حق لا محيد عنه ولا مناص منه.

وقال في جامع البيان، أي: لخرج الذين قدر عليهم القتل إلى مصارعهم منكم، فلم يستطيعوا الإقامة في المدينة.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلِيم﴾، قال قتادة: وذلك يوم أحد، ناس من أصحاب رسول الله ﷺ تولوا عن القتال، وعن نبي الله يومئذ، وكان ذلك من أمر الشيطان وتخويفه، فأنزل الله عز وجل ما تسمعون أنه قد تجاوز لهم عن ذلك وعفا عنهم، والله أعلم.



(١) انظر: «جامع البيان» (٤/١٤٣).

(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (١/٤١٨).

الدرس التاسع والأربعون

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَيُمَيِّتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ لَكُمْ فَتَا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا تَفْضَحُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمَ وَيُتَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ لَقَدَّ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلِ لَيْلٍ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٣﴾ أَوْ لَمَّا أَصَبَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٤﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَٰذِينَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٥﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا

لَوْ نَعْلَمُ قَتَالَا لَا تَتَّبِعَنَّكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ
يَأْفُوهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا
لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا
تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا
آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا
يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ
جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾
فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ
عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ *

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

قال ابن إسحاق: في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا الآية، أي: لا تكونوا كالمنافقين الذين ينهون إخوانهم عن الجهاد في سبيل الله، والضرب في الأرض في طاعة الله وطاعة رسوله، ويقولون إذا ماتوا أو قتلوا: لو أطاعونا: ﴿ما ماتوا أو قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾ لقلّة اليقين بربهم جل ثناؤه: ﴿والله يحيي ويميت﴾، أي: يجعل ما يشاء، ويؤخر ما يشاء من آجالهم بقدرته: ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فيجازي كل عامل بعمله.

وقوله تعالى: ﴿وَلئن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾، أي: الموت كائن لا بد منه، فموت في سبيل الله أو قتل خير مما يجمعون في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَلئن مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ قال ابن إسحاق: ﴿وَلئن مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾، أي: ذلك كان: ﴿لإلى الله تحشرون﴾، أي: أن إلى الله المرجع فلا تغرنكم الدنيا ولا تغتروا بها.

قوله عز وجل: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ كُنْتُمْ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفِضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قوله: ﴿فبما رحمة من الله﴾ ما مزيدة للتأكيد. قال قتادة: في قوله: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ يقول: فبرحمة من الله لنت لهم. ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾، أي: والله طهره من الفظاظة والغلظة، وجعله قريباً رحيماً بالمؤمنين رؤوفاً. قال ابن عباس: ﴿لانفضوا من حولك﴾ قال: انصرفوا عنك.

وقوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ قال ابن إسحاق: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾، أي: فتجاوز عنهم: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ذنوب من قارف من أهل الإيمان منهم.

وقال قتادة في قوله: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ فإذا عزم فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴿أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يشاور أصحابه في الأمور وهو يأتيه وحى السماء، لأنه أطيّب لأنفس القوم، وأن القوم إذا شاور بعضهم بعضاً وأرادوا بذلك وجه الله، عزم لهم على أرشده.﴾

وقوله: ﴿فإذا عزم فتوكل على الله﴾ قال الربيع: أمره الله إن عزم على أمر أن يمضي فيه ويتوكل عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: النصر والخذلان بيده، يعز من يشاء، ويذل من يشاء.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرِكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

قال ابن عباس: «إن هذه الآية نزلت: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر قال: فقال بعض الناس: أخذها رسول الله ﷺ. قال: فأكثروا في ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾»^(١). وقال الكلبي: «نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز للغنيمة وقالوا: نخشى أن يقول النبي ﷺ: من أخذ شيئاً فهو له. وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر. فتركوا المركز ووقعوا في الغنائم. فقال لهم النبي ﷺ: ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري؟ قالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً. فقال النبي ﷺ: بل ظننتم أن نغل ولا نقسم. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾، أي: سواء كان من الغنيمة، أو الصدقة، أو غير ذلك، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر، ينادي: يا محمد يا محمد. فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك»^(٢).

(١) أخرجه ابن جرير (٤/١٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٣٠٧٣)، ومسلم (ح/١٨٣٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والمؤلف — رحمه الله — ذكر الحديث بمعناه.

وفي الحديث الآخر: «يا أيها الناس، من بعثناه على عمل ففعل شيئاً، جاء يوم القيامة على عنقه يحمله»^(١).

وقوله تعالى: ﴿ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ قال ابن إسحاق: ثم يجزي بكسبه غير مظلوم ولا معتدى عليه.

وقوله تعالى: ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ قال الضحاك: وقوله: ﴿أفمن اتبع رضوان الله﴾ قال: من لم يغل كمن باء بسخط من الله؟ كمن غل؟ وقال ابن إسحاق: يقول: أفمن كان على طاعتي فتوابه الجنة ورضوان من ربه، كمن باء بسخط من الله، فاستوجب غضبه، وكان مأواه جهنم وبئس المصير؟ أسوأ المثلان؟ أي فاعرفوا.

وقوله تعالى: ﴿هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون﴾ قال ابن عباس: ﴿هم درجات عند الله﴾ يقول: بأعمالهم. ﴿والله بصير بما يعملون﴾ قال ابن إسحاق: يقول إن الله لا يخفى عليه أهل طاعته من أهل معصيته.

وقوله تعالى: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ قال ابن إسحاق: أي لقد من الله عليكم يا أهل الإيمان، إذ بعث فيكم رسولا من أنفسكم ﴿يتلو عليكم آياته ويزكيكم﴾ فما أخذتم وفيما عملتم ﴿ويعلمكم﴾ الخير والشر: الخير لتعرفوا فتعملوا به، والشر فتتقوه، ويخبركم برضاه عنكم إذ أطعتموه لتستكثروا من طاعته، وتجتنبوا ما سخط منكم من معصيته، فتخلصوا بذلك من نقمته، وتدرکوا بذلك ثوابه من جنته. ﴿وإن كنتم من قبل لفي ضلال مبين﴾، أي: في عمى من الجاهلية لا تعرفون حسنة، ولا

(١) أخرجه بنحوه البخاري (ح/٢٥٩٧)، ومسلم (٣/١٤٦٤)، من حديث حميد الساعدي رضي الله عنه.

تستغيثون من سيئة، صم عن الحق، عمي عن الهدى.

قوله عز وجل: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنَاقُ الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

قال قتادة: أصيب المسلمون يوم أحد مصيبة، وكانوا قد أصابوا مثليها يوم بدر، ممن قتلوا وأسروا، فقال الله عز وجل: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها﴾ وقال عكرمة: قتل المسلمون من المشركين يوم بدر سبعين وأسروا سبعين، وقتل المشركون يوم أحد من المسلمين سبعين، فذلك قوله: ﴿قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا﴾ إذ نحن مسلمون نقاتل غضباً لله، وهؤلاء مشركون! ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ عقوبة لكم بمعصيتكم النبي ﷺ حين قال ما قال. وقال الحسن: معصيتهم أنه قال لهم: لا تتبعوهم يوم أحد، فاتبعوهم.

وقوله تعالى: ﴿وما أصابكم يوم التنقي الجمعان فيا ذين الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا﴾ قال ابن إسحاق: أي ما أصابكم حيث التقيتم أنتم وعدوكم، فبإذني كان ذلك، حين فعلتم ما فعلتم بعد أن جاءكم نصري وصدقتم^(١)، وعدي؛ ليميز بين المنافقين والمؤمنين: ﴿وليعلم الذين نافقوا منكم﴾، أي: ليظهروا ما فيهم.

(١) في (الأصل): «وصدقكم» وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَم قِتَالًا لَا تَبْعَنَّاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ قال ابن إسحاق: «خرج رسول الله ﷺ إلى أحد في ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كانوا بالشوط بين أحد والمدينة، انخزل عنهم عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث الناس، فقال: أطاعهم فخرج وعصاني، والله ما ندري على ما تقتل أنفسنا ههنا أيها الناس! فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه من أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حزم أخو بني سلمة يقول: يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكننا لا نرى أن يكون قتال، فلما استعصوا عليه، وأبو إلا الانصراف عنهم قال: أبعدكم الله أعداء^(١) الله فسيغني الله عنكم. ومضى رسول الله ﷺ. يقول الله عز وجل: ﴿هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾، أي: يخفون. وقال السدي في قوله: ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾ يقول: أو كثروا^(٢).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا قُلُوبًا فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال ابن إسحاق: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ الذين أصيبوا معكم من عشائريهم وقومهم: لو أطاعونا ما قتلوا. ﴿قُلُوبًا فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي: أنه لا بد من الموت، فإن استطعتم أن تدفعوه عن أنفسكم فافعلوا. قال السدي: هم عبد الله بن أبي وأصحابه.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿١٦٩﴾ ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ

(١) في (الأصل): «أغنى»، وهو خطأ.

(٢) في (الأصل): «أو أكثروا»، وهو خطأ.

يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ
بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ .

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا، لئلا يزهّدوا في الجهاد ولا يتركوا عن الحرب. فقال الله عز وجل أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ هؤلاء الآيات»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ
الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ
قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾
فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى دِفْئِهِمْ فَبَدَّلَ اللَّهُ دِفْئَهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَذُوقُوا
عَذَابَهُ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخْوَفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ .

قال ابن إسحاق: «كان يوم أحد السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، وأذن مؤذن: لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس. فكلّمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام فقال: يا رسول الله إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع وقال لي: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء

(١) أخرجه ابن جرير (٤/١٧٠)، وفي سنده ضعف، لكن روي بنحوه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة...» الحديث أخرجه مسلم (ح/١٨٨٧).

النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلف على إخوانك فتخلفت عليهن، فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه، وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم، ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم».

وقوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ قال قتادة: «انطلق رسول الله ﷺ وعصابة من أصحابه بعدما انصرف أبو سفيان وأصحابه من أحد خلفهم، حتى كانوا بذي الحليفة، فجعل الأعراب والناس يأتون عليهم فيقولون: هذا أبو سفيان مائل عليكم بالناس فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾».

وقوله تعالى: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ قال ابن إسحاق: ﴿والله ذو فضل عظيم﴾ لما صرف عنهم من لقاء عدوهم. وقال ابن عباس: أطاعوا الله وابتغوا حاجتهم ولم يؤذهم أحد: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾.

وقوله تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾، أي: يخوفكم بأوليائه ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ قال مجاهد: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ قال: يخوف المؤمنين بالكفار.

وقال ابن كثير^(١): ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾، أي: يخوفكم أولياءه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة. قال الله تعالى: ﴿فلا تخافوهم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٣١/١).

وخافون أن كنتم مؤمنين﴿١﴾، أي: إذا سول لكم وأوهمكم، فتوكلوا عليّ والجأوا إليّ، فإنني كافيكم وناصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلّل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴿١﴾، والله أعلم.



(١) سورة الزمر: الآيات ٣٦ — ٣٨.

الدرس الخمسون

﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَتَابِعُونُوا بِاللَّهِ وَرُسُلَهُ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَآءِ أَنفُسِهِمُ أَنَّ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ الْبَلِيبَتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَلِيبَتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن دُحِّنَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ

فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٨٨﴾ * لَتَجْلُوكَ فِي
 أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
 وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ
 عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٩﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا
 تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبَيْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٩٠﴾
 لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ
 بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٩١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطَّاً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٧) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّامُ نَمْلِي لَهُمْ خَيْراً لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١٧٨).

قال مجاهد: في قوله: ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾، أي: المنافقون ﴿إنهم لن يضرروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾. قال ابن إسحاق: أن يحبط أعمالهم ﴿ولهم عذاب عظيم﴾. ﴿إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان﴾، أي المنافقين ﴿لن يضرروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم﴾، أي: موجه.

وقوله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم أما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾ كقوله: ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وترهق أنفسهم وهم كفرون﴾ (١).

وقوله: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين﴾ (٢).

قوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ

(١) سورة التوبة: الآية ٥٥.

(٢) سورة القلم: الآيتان ٤٤ و ٤٥.

يَشَاءُ فَاَمِنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِۦٓ ۚ وَاِنْ تُؤْمِنُوْا وَتَتَّقُوْا فَلَكُمْ اَجْرٌ عَظِيْمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ
الَّذِيْنَ يَبْخُلُوْنَ بِمَاۤ اٰتٰهُمْ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهٖ ۚ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْۢ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۢ سَيُطَوَّقُوْنَ مَا
بَٰخُلُوْا بِهٖ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ ۗ وَاللّٰهُ مِيْرٰثُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ ۗ وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ
خَبِيْرٌ ﴿١٨٠﴾ .

قال مجاهد: في قول الله: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ قال: ميز بينهم يوم أحد، المنافق من المؤمن.

وقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ فتعرفوا المنافق من غيره قبل التمييز ﴿ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾. قال مجاهد يخلصهم لنفسه.

وقوله تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتلقوا﴾ قال ابن إسحاق: أي ترجعوا وتوبوا ﴿فلكم أجر عظيم﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير﴾. قال السدي: هم الذين آتاهم الله من فضله، فبخلوا أن يتفقوها في سبيل الله، ولم يؤدوا زكاتها. وقال ابن مسعود في قوله: ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ قال: ثعبان ينقر رأس أحدهم يقول: أنا مالك الذي بخلت به. وقال رسول الله ﷺ: «ما من أحد لا يؤدي زكاة ماله، إلّا مثل له شجاع أقرع يطوقه»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

(١) أخرجه أحمد (٣٧٧/١)، والترمذي (ح/٣٠١٢)، والنسائي في «المجتبى» (١١/٥) - (١٢)، وأيضاً في الكبرى (٣٤٦/١)، وابن ماجه (ح/١٧٨٤)، والطبري (٤/١٩٢)، وابن خزيمة (ح/٢٢٥٦)، والبيهقي (٤/٨١)، وهو حديث صحيح.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١) ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (١٨٢) ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٨٣) ﴿إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (١٨٤) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْجِحَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ (١٨٥) ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ نَصَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٨٦).

قال الحسن: لما نزلت ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ عجبت اليهود فقالت: إن الله فقير يستقرض. فنزلت: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمتم أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد الذين قالوا إن الله عهدهم إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾. قال الكلبي: «نزلت في كعب بن الأشرف وأناس معه من اليهود، أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا محمد تزعم أن الله تعالى بعثك إلينا رسولاً، وأنزل عليك الكتاب، وأن الله تعالى قد عهدهم إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار. قال الله تعالى: ﴿قل يا محمد قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم﴾ من القربان ﴿فلم تقتلتموهم إن كنتم صادقين﴾؟

قال البغوي^(١): معناه تكذيبهم إياك، مع علمهم بصدقك، كقتل آبائهم الأنبياء، مع الإتيان بالقربان والمعجزات. ثم قال معزياً لنبيه ﷺ: ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾، أي: الواضح المضيء.

قال: في فتح البيان^(٢). ﴿البينات﴾ المعجزات ﴿والزبر﴾ الكتب المقصورة على الحكم والمواعظ ﴿والكتاب المنير﴾ الواضح المعنى، المتضمن للشرائع والأحكام.

﴿كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ كمتاع يدلس به على المبتاع فيفر ويشتره، فمن اغتار بها وآثرها فهو مغرور. قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾^(٣)، أي: الشيطان.

وقوله تعالى: ﴿تلبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾. قال عطاء: من حقيقة الإيمان.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ ١٨٧ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٢٩٩).

(٢) في (الأصل): «غير جامع البيان»، ولعل ما أثبتته أولى.

(٣) سورة فاطر: الآية ٥٠.

فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ .

قال ابن جريج في قوله: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ليبينه للناس ولا يكتُمونه. قال: وكان فيه أن الإسلام دين الله الذي افترضه على عباده، وأن محمداً يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. وقال قتادة: هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم، فمن علم شيئاً فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم، فإن كتمان العلم هلكة، ولا يتكلفن رجل ما لا علم له به، فيخرج من دين الله، فيكون من المتكلفين؛ كأن يقال: مَثَلُ عِلْمٍ لَا يُقَالُ بِهِ كَمَثَلِ كَنْزٍ لَا يَنْفَقُ مِنْهُ، ومثل حكمة لا تخرج كمثال صنم قائم لا يأكل ولا يشرب. وكان يقال: طوبى لعالم ناطق، وطوبى لمستمع واع، هذا رجل علم علماً فعلمه وبذله ودعا إليه، ورجل سمع خيراً فحفظه ووعاه وانتفع به.

وقال الشعبي: في قوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ قال: إنهم قد كانوا يقرأون: إنما نبذوا العمل به.

وقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ فلا تحسبنهم بمفازة، أي: منجاة ﴿مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. قال الضحاك: فرح اليهود باجتماعهم على كفرهم بمحمد ﷺ وقالوا: قد جمع الله كلمتنا. وقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن أهل الصلاة والصيام، وكذبوا، بل هم أهل كفر وشرك وافتراء على الله. وقال ابن زيد: هؤلاء المنافقون يقولون للنبي ﷺ: لو قد خرجت لخرجنا معك، فإذا خرج النبي ﷺ تخلفوا وكذبوا، ويفرحون بذلك، ويرون أنها حيلة احتالوا بها.

وقال البغوي^(١): ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ قال الفراء: بما فعلوا.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣٠٢/١).

وقال ابن كثير^(١): وقوله تعالى: ﴿لَا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ الآية، يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا، وذكر أقوال المفسرين ثم قال: ولا منافاة، لأن الآية عامة في جميع ما ذكر. والله أعلم). انتهى.

وقوله تعالى: ﴿والله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير﴾، أي: فهو الغني القادر لا يحتاج إلى أحد، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد إن يشاء يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز﴾^(٢). والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٣٦/١).

(٢) سورة فاطر: الآيتان ١٥ و ١٦.

الدرس الحادي والخمسون

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي
 الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي
 خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَتَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾
 رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا
 سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
 وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْآبِرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَايِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا
 تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ
 عَمِلٍ مِنكُم مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنتِي بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَأَلَّذِينَ هَا جَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِينِهِمْ
 وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقْتَلُوا لَا كُفِّرَن عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَذْخَلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ
 تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا
 يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَفِيهَا
 أَلْمَهُادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
 نَزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن
 يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَآيِنِ اللَّهِ
 ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿١٩٩﴾ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ﴿٢٠٠﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ
 لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّكَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ
وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا
عَذَابَ النَّارِ ۝١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
أَنْصَارٍ ۝١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا
فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۝١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَايِنَا مَا
وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝١٩٤﴾ .

قال ابن جريج في قوله: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾
قال: هو ذكر الله في الصلاة وفي غير الصلاة، وقراءة القرآن.

وقوله تعالى: ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا
باطلاً سبحانه﴾ قال ابن عوف: الفكرة: تذهب الغفلة، وتحدث
للقلب الخشية، كما يحدث الماء للزرع النماء.

وقوله: ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتهم وما للظالمين من أنصار﴾ عن
الأشعث الجمل قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد أرايت ما تذكر من الشفاعة حق
هو؟ قال: نعم حق. قلت: يا أبا سعيد أرايت قول الله تعالى: ﴿ربنا إنك من تدخل
النار فقد أخزيتهم﴾ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها؟ فقال لي:
إنك والله لا تستطيع على شيء، إن للنار أهلاً لا يخرجون منها، كما قال الله.
قلت: يا أبا سعيد فيم دخلوا ثم خرجوا؟ قال: كانوا أصابوا ذنوباً في الدنيا فأخذهم
الله بها، فأدخلهم بها، ثم أخرجهم بما يعلم في قلوبهم من الإيمان والتصديق به.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾، المنادي: هو القرآن. قال محمد بن كعب القرظي: هو الكتاب، ليس كلهم لقي النبي ﷺ.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رِسْلِكَ وَلَا تَخْزُنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، أي لا بد من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك، وهو القيام بين يديك ﴿فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴾، ولا تخزنا فإننا قد آمنا بك وبكتابك ونبيك.

قوله عز وجل: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ بِعَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلْزَمَ الْكُفْرَ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا لَا تُكْفِرْنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا تَدْخُلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله تذكر الرجال في الهجرة ولا تذكر النساء، فنزلت: ﴿إِنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى﴾^(١) الآية. وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾. قال الكلبي: في الدين والنصرة والموالات. وقال ابن كثير^(٢): أي جميعكم في ثوابي سواء.

وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا لَا تُكْفِرْنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا تَدْخُلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا

(١) أخرجه ابن جرير (٢١٥/٤)، وابن أبي حاتم (٩٩/٢ ب)، والحاكم (٣٠٥/٢ - ٣٠٦ و ٤١٦)، وصححه ووافقه الذهبي، وهو صحيح، وقد روي من وجه آخر يزيده قوة، والله أعلم.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٤١/١).

من عند الله والله عنده حسن الثواب ﴿١٩٦﴾، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ثلة تدخل الجنة الفقراء المهاجرون الذين يتقي بهم المكاره، إذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى السلطان لم تقض حتى يموت وهي في صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول: أي عبادي الذين قتلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، وجاهدوا في سبيلي؟ أدخلوا الجنة، فيدخلونها بغير عذاب ولا حساب»^(١). رواه ابن جرير.

قوله عز وجل: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَتَسَاءَلُونَ الْجَاهِدَ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾.

قال ابن جرير^(٢) في قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾، فنهى الله تعالى ذكره نبيه ﷺ عن الاغترار بضربهم في البلاد، وإمهال الله إياهم مع شركهم وجحودهم نعمه وعبادتهم غيره. وخرج الخطاب بذلك للنبي ﷺ، والمعني به غيره من أتباعه. وقال قتادة: والله ما غروا نبي الله، ولا وكل إليهم شيئاً من أمر الله حتى قبضه الله على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾. قال ابن زيد: لمن يطيع الله. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إنما سماهم الله الأبرار؛ لأنهم بروا الآباء والأبناء.

(١) أخرجه أحمد (١٦٨/٢)، وابن جرير (٢١٦/٤) وهو حديث حسن.

(٢) انظر «جامع البيان» (٢١٧/٤).

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

قال قتادة في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الآية، نزلت في النجاشي وفي ناس من أصحابه، آمنوا بنبي الله ﷺ وصدقوا به. قال: وذكر لنا «أن نبي الله ﷺ استغفر للنجاشي وصلى عليه حين بلغه موته. قال لأصحابه: صلوا على أخ لكم قد مات بغير بلادكم. فقال أناس من أهل النفاق: يصلي على رجل مات ليس من أهل دينه؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(١). وقال ابن جريج: نزلت في عبد الله بن سلام ومن معه. وقال مجاهد: هم مسلمة أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

قال ابن جرير^(٢): وقد تنزل الآية في الشيء، ثم يعم بها كل من كان في معناه، فالآية وإن كانت نزلت في النجاشي، فإن الله تبارك وتعالى قد جعل الحكم

(١) صلاة النبي ﷺ على النجاشي ثابتة في الصحيحين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنه نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلّى فصَفَّ بهم، وكبر عليه أربع تكبيرات». البخاري (ح/١٢٤٥)، ومسلم (ح/٩٥١)، وفي لفظ لمسلم (ح/٩٥٣) عن عمران بن حصين مرفوعاً: «إن أخاً لكم قد مات فقوموا فصلوا عليه». يعني: النجاشي. أما قوله: «فقال أناس من أهل النفاق»، فأخرجه ابن أبي حاتم (٢/١٠٠/ب)، وابن مردويه كما عزا له ابن كثير في تفسيره (١/٤٤٣) عن أنس رضي الله عنه بلفظ: «نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة».

(٢) انظر «جامع البيان» (٤/٢٢٠).

الذي حكم به للنجاشي، حكماً لجميع عباده الذين هم بصفة النجاشي في اتباعهم رسول الله ﷺ، والتصديق بما جاءهم به من عند الله، بعد الذي كانوا عليه قبل ذلك، من اتباع أمر الله فيما أمر به عباده في الكتابين: التوراة والإنجيل.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. قال قتادة: ﴿أي اصبروا﴾ على طاعة الله ﴿وصابروا﴾ أهل الضلالة ﴿ورابطوا﴾ في سبيل الله ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «ألا أدلكم على ما يحط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء عند المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»^(١). رواه مسلم وغيره.

وقال محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ واتقوا الله فيما بيني وبينكم؛ لعلكم تفلحون غداً إذا لقيتموني. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب﴾. ثم قام فتوضأ واستن، ثم صلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلّى ركعتين، ثم خرج فصلّى بالناس الصبح»^(٢). متفق عليه. وفي رواية لمسلم: «ثم قرأ العشر آيات الخواتم من سورة آل عمران»^(٣). وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: «من قرأ آخر آل عمران في ليلة كتب له قيام ليلة»^(٤). رواه الدارمي. والله أعلم.



- (١) أخرجه مسلم (ح/٢٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
- (٢) أخرجه البخاري (ح/١٨٣ و ٩٦٨ و ٤٥٧٠)، ومسلم (ح/٧٦٣).
- (٣) أخرجه مسلم (١/٥٢٧).
- (٤) أخرجه الدارمي (٢/٣٢٥)، وفي سنده ضعف، والله أعلم.

الدرس الثاني والخمسون

﴿سورة النساء﴾

مدنية، وهي مائة وست وسبعون آية

قال ابن مسعود: خمس آيات من النساء أحب إليّ من الدنيا جميعاً ﴿إن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾.

وقوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

وقوله: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾.

وقوله: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولمن يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدَلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّبِيبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنْ

وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ فَلَنْ خِفْتُمْ أَلَّا نَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْمَلُوا ﴿٢﴾
 وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٣﴾ وَلَا
 تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا
 مَعْرُوفًا ﴿٤﴾ وَابْلُغُوا إِلَيْنِي حَقِّي إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ
 أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ
 فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللهِ
 حَسِيبًا ﴿٥﴾ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ
 الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿٦﴾ وَإِذَا حَضَرَ
 الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا
 مَعْرُوفًا ﴿٧﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ
 فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا
 إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿٩﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾ .

قال السدي: أسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ، فإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه فسألها: من أنت؟ قال: امرأة قال: ولم خلقت؟ قالت: تسكن إليّ ﴿وبث﴾ خلق ﴿منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ يقول: اتقوا الله واتقوا الأرحام لا تقطعوها. وقال ابن عباس: واتقوا الله في الأرحام فصلوها، ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾. قال مجاهد: حفيظاً. وقال ابن زيد: ﴿رقيباً﴾ على أعمالكم يعلمها ويعرفها.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا تَوْأَلُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْحَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّكُمْ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنْ وَتِلْكَ أَدْعَاؤُنَا لِلْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَالْإِتْقَانِ وَالْإِتْقَانُ أَكْبَرُ مِنْكُمْ وَلَكِنْ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ وَمَا تَوْأَلُوا النِّسَاءَ صَدَقْتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَنَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيئًا ۝﴾ .

قال مجاهد في قول الله تعالى: ﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ قال: الحلال بالحرام. قال السدي: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينه من غنم اليتيم ويجعل مكانها الشاة المهزولة ويقول: شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيد ويطرح مكانه الزيف ويقول: درهم بدرهم. وقال ابن زيد: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار، يأخذه الأكبر.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ يقول: لا تأكلوا أموالكم وأموالهم تخلطوها، فتأكلوها جميعاً ﴿إِنَّهُ كَانَ حُبّاً كَبِيراً﴾ قال ابن عباس: إثماً عظيماً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرِبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن هذه الآية فقالت: يا ابن أخي، هي اليتيمة تكون في حجر وليها، فيرغب في مالها وجمالها، ويريد أن ينكحها بأدنى صداقها، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يسقطوا لهن في كمال الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما سواهن من النساء. وفي رواية: هي اليتيمة تكون عند الرجل وهي ذات مال، فلعله ينكحها لمالها وهي لا تعجبه، ثم يضربها ويسيء صحبتها. وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرِبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ لَا تَعُولُوا﴾ يقول: كما خفتم الجوار في اليتامى، همكم ذلك، فكذلك فخافوا في جميع النساء. وكان الرجل في الجاهلية يتزوج العشر فما دون ذلك، فأحل الله جل ثناؤه أربعاً، ثم الذي صيرهن إلى أربع قوله: ﴿مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرِبَاعَ﴾. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ وإن خفت أن لا تعدل في أربع، فثلاث، وإلا فائنتين، وإلا فواحدة، وإن خفت أن لا تعدل في واحدة فما ملكت يمينك. وقال ابن عباس في قوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ لَا تَعُولُوا﴾ يعني أن لا تميلوا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نَحْلَةً فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾. قال قتادة في قوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نَحْلَةً﴾ يقول: فريضة. وقال ابن عباس: يعني بالنحلة المهر. ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾ يقول: إذا كان غير إضرار ولا خديعة، فهو هنيء مريء، كما قال الله جل ثناؤه. وعن أبي صالح قال: كان الرجل إذا زوج أيماً أخذ صداقها

دونها، فنهاهم الله تبارك وتعالى عن ذلك، ونزلت ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ الآية. وقال ابن زيد: النحلة في كلام العرب الواجب، يقول: لا ينكحها إلا بشيء واجب لها صدقة، يسميها لها واجبة، وليس ينبغي لأحد أن ينكح امرأة بعد النبي ﷺ، إلا بصداق واجب، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذباً بغير حق.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ﴿٦﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ ﴿٦﴾.

قال الحسن في قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ لا تعطوا الصغار والنساء. وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ أمر الله بهذا المال أن يخزن فيحسن خزانته، ولا يملكه المرأة السفهية والغلام السفهية.

وقوله تعالى: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾. قال ابن عباس: يقول الله سبحانه: لا تعتمد إلى مالك وما خولك الله، وجعله لك معيشة، فتعطيه امرأتك أو بنيك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه، وكن أنت الذي تنفق عليهم في كسوتهم، ورزقهم ومؤونتهم. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال: أمروا أن يقولوا لهم قولا معروفاً في البر والصلة. وقال ابن جريج: عدة تعدوهم.

وقوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ قال ابن عباس: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ اختبروهم، ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾. قال: عند الحلم، ﴿فَإِنْ

آنستم قال: عرفتم ﴿منهم رشدا﴾ في حالهم والإصلاح في أموالهم، ﴿فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا﴾، يعني: أكل مال اليتيم مبادراً أن يبلغ، فيحول بينه وبين ماله. وقوله تعالى: ﴿ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾، أي: بالتي هي أحسن. قال إبراهيم: ليس بلبس الكتان ولا الحلل، ولكن ما سد الجوع ووارى العورة. وجاء أعرابي إلى ابن عباس فقال: إن في حجري أيتاماً، وإن لهم إبلاً ولي إبل، وأنا أمنح في إبلي وأقفر، فماذا يحل من ألبانها؟ قال: إن كنت تبغي ضالتها، وتهنأ جرباها، وتلوط حوضها، وتستقي عليها، فاشرب غير مضر بنسل، ولا ناهك في الحلب.

قوله تعالى: ﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً﴾ قال ابن عباس: إذا دفع إلى اليتيم مال فليدفعه إليه بالشهود، كما أمره الله تعالى.

وقال ابن كثير^(١): ﴿وكفى بالله حسيباً﴾، أي: وكفى بالله محاسباً وشاهداً ورقياً على الأولياء، في حال نظرهم للأيتام، وحال تسليمهم لأموالهم، هل هي كاملة موفرة أو منقوصة مبخوسة^(٢)، مروج حسابها، مدلس أمرها؟ الله عالم بذلك كله.

قوله عز وجل: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ٧ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ٨ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٥٤).

(٢) في (الأصل): «منحوسة» وهو خطأ.

عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١١﴾.

قال قتادة: كانوا لا يرثون النساء، فنزلت ﴿وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾. قال الشعبي: هي محكمة، وقال: واجب، ما طابت به نفس أهل الميراث. وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين عند قسمة مواريتهم أن يصلوا أرحامهم ويتأامهم بالوصية، إن كان أوصى، وإن لم تكن وصية وصل إليهم من مواريتهم. وقال سعيد بن جبير والحسن: ذلك عند قسمة الميراث، إن كان الميراث لمن قد أدرك، فله أن يكسوا منه، وأن يطعم الفقراء والمساكين، وإن كان الميراث ليتامى صغار، فيقول الولي: إنه ليتامى صغار، ويقول لهم قولاً معروفاً.

وقوله تعالى: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾. قال ابن عباس: يعني الذي يحضره الموت فيقال له: تصدق من مالك، وأعتق وأعط منه في سبيل، فنهوا أن يأمره بذلك، يعني: أنه من حضر منكم عند الموت، فلا يأمره أن ينفق ماله في العتق، أو الصدقة، أو في سبيل الله، ولكن يأمره أن يبين ماله، وما عليه من دين، ويوصي في ماله لذوي قرابته الذين لا يرثون، ويوصي لهم بالخمس أو الربع. يقول: أليس يكره أحدكم إذا مات وله ولد ضعاف، يعني صغار أن يتركهم بغير مال. فيكونوا عيالاً على الناس؟ فلا ينبغي أن تأمروا بما لا ترضون به لأنفسكم ولا أولادكم، ولكن قولوا الحق من ذلك. وقال قتادة في قوله: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً﴾ يقول: فليأمره بالعدل والإحسان، ولينه عن الحيف والجور في وصيته، وليخش على عياله ما كان خائفاً على عياله لو نزل به الموت.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ قال السدي: إذا قام الرجل بأكل مال اليتيم ظلماً، يبعث يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه، ومن مسامعه ومن أذنيه، وأنفه وعينه، يعرفه من رآه بأكل مال اليتيم.

وقال ابن عباس: «لما نزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمَصْلِحِ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم»^(١). والله أعلم.



(١) أخرجه أبو داود (ح/٢٨٧١)، والنسائي (٦/٢٥٦)، وابن جرير (٢/٣٧٠)، والحاكم (٢/٢٧٨ — ٢٧٩) وصححه ووافقه الذهبي. قلت: بل سنده ضعيف.

الدرس الثالث والخمسون

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ إِن كَانَ نِسَاءً
فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ
وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ
فَلِلَّأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلَّأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ
مَّا أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ
وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ
يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ
فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ
تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ
أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ
فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا
خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

قوله عز وجل: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين والأقربين، فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس مع الولد، وللزوج الشطر والربع، وللزوجة الربع والثلث.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾، يعني للبتين فما فوق الثلثان، وللنت الواحدة النصف. وعن جابر رضي الله عنه قال: «جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا ينكحان إلأى ولهما مال. قال: فقال: يقضي الله في ذلك. فترلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: اعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثلث، وما بقي فهو لك»^(١). رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

قوله عز وجل: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٥٢)، وأبو داود (ح/٢٨٩١)، والترمذي (ح/٢٠٩٣) وصححه، وابن ماجه (ح/٢٧٢٠) وفي سنده عبد الله بن محمد بن عقيل: فيه لين، وقد تغير بآخره.

السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ .

الأبوان لهما في الإرث أحوال: أحدهما: أن يجتمعا مع الأولاد فيفرض لكل واحد منهما السدس، فإن لم يكن للميت إلا بنت واحدة فرض لها النصف وللأبوين لكل واحد منهما السدس، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب.

الحال الثاني: أن ينفرد الأبوان بالميراث، فيفرض للأم الثلث، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب، فلو كان معهما زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف، والزوجة الربع، وأخذت الأم ثلث الباقي، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب.

والحال الثالث: وهو اجتماعهما مع الأخوة سواء كانوا من الأبوين، أو من الأب، أو من الأم، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس، ولا يحجبها الواحد عن الثلث.

وقوله تعالى: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾، عن علي رضي الله عنه قال: «إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ وأن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية»^(١) رواه ابن جرير وغيره.

قال ابن كثير^(٢): (أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية، وذلك عند إمعان النظر فيهم من فحوى الآية الكريمة) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾. قال ابن زيد: أيهم خير لكم في الدين والدنيا، الوالد والولد الذين يرثونكم لم يدخل عليكم غيرهم فرض لهم الموارث لم يأت بأخرين يشركونهم في أموالكم.

(١) أخرجه أحمد (١/٧٩ و ١٣١ و ١٤٤)، والترمذي (٤/٢٠٩٤ و ٢٠٩٥)، وابن ماجه

(ح/٢٧١٥)، والبيهقي (٦/٢٣٢ - ٢٣٣) وغيرهم، وفي سنده ضعف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٥٩).

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ قال ابن كثير^(١): أي هذا الذي ذكرناه من تفضيل الميراث وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض، هو فرض من الله حكم به، وقضاه ﴿إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِيَنَّ بِهِمَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصُونَ بِهِمَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب، سواء كان الولد واحداً أو جماعة، ذكراً أو أنثى، يحجبون الزوج من النصف إلى الربع، ويحجبون الزوجة من الربع إلى الثمن، وإذا كان للرجل أكثر من زوجة اشتركن في الربع أو الثمن.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصَى بِهِمَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَاعَافٍ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً﴾. قال ابن عباس: الكلاله من لا ولد له ولا والد. وقال قتادة: قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً﴾، والكلالة الذي لا ولد له، ولا والد، [و]^(٢) لا أب، ولا جد، ولا ابن،

(١) المصدر السابق (١/٤٥٩).

(٢) ما بين المعقوفتين إضافة من تفسير ابن جرير.

ولا ابنة، فهؤلاء الإخوة من الأم. إن كان واحداً فله السدس، وإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث، ذكرهم وأنثاهم فيه سواء.

وقوله تعالى: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضار﴾. قال قتادة: إن الله تبارك وتعالى كره الضراء في الحياة وعند الموت، ونهى عنه، وقدم فيه فلا تصلح مضارة في حياة ولا موت، وقال ابن عباس: الضرار والحيث في الوصية من الكبائر.

وقوله تعالى: ﴿وصية من الله والله عليم حكيم﴾، أي: علم بالمضار وغيره، حكيم لا يعاجل بالعقوبة.

قال ابن جرير^(١): وأما قوله: ﴿وصية﴾ فإن نصبه من قوله: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾، وسائر ما أوصى به في الأنثيين^(٢). ثم قال: ﴿وصية من الله﴾ مصدراً من قوله ﴿يوصيكم﴾ انتهى.

قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١٣) وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ^(١٤).

قال ابن عباس: قوله: ﴿تلك حدود الله﴾، يعني طاعة الله، يعني الموارث التي سمى الله. وقال قتادة: تلك حدود الله التي حد لخلقه، وفرائضه بينهم من الميراث والقسمة، فانتهاوا إليها ولا تعدوها إلى غيرها.

(١) انظر «جامع البيان» (٤/٢٨٩).

(٢) في (الأصل) «الآيتين» وهو خطأ، والمثبت من تفسير ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾.

قال ابن جرير^(١): فإن قال قائل: أو يخلد في النار من عصى الله ورسوله في قسمة الموارث؟ قيل: نعم إذا جمع إلى معصيتهما في ذلك شكاً في أن الله فرض عليه ما فرض على عباده في هاتين الآيتين، أو علم ذلك فحاداً الله ورسوله في أمرهما، على ما ذكر ابن عباس من قول من قال: حين نزل على رسول الله ﷺ: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ إلى تمام الآيتين، أيورث من لا يركب الفرس، ولا يقاتل العدو، ولا يحوز الغنيمة، نصف المال أو جميع المال؟ استنكاراً منهم قسمة الله ما قسم لصغار ولد الميت، ونسائه وإناث ولده، والله أعلم.



(١) انظر «جامع البيان» (٤/٢٩١).

الدرس الرابع والخمسون

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَاهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَقْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَدْحَشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمُ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَةُ مِنْ دِيسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٥ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝١٦﴾.

قال ابن عباس: كانت المرأة إذا زنت حُبست في البيت حتى تموت، ثم أنزل الله تبارك وتعالى بعد ذلك: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾^(١)، فإن كانا محصنين رجما، فهذا سبيلهما الذي جعل الله لهما. وفي حديث عبادة عن النبي ﷺ: «خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً: البكران يجلدان وينفيان سنة، والثيبان يجلدان ويرجمان»^(٢).

قال ابن جرير^(٣): وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله تعالى: ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾، قول من قال: السبيل التي جعلها الله جل ثناؤه للثيبين المحصنين: الرجم بالحجارة، وللبكرين: جلد مائة ونفي سنة، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ: أنه رجم ولم يجلد.

وقوله تعالى: ﴿واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنها﴾ إن الله كان تواباً رحيماً، قال ابن عباس: يؤذى بالتعيير، وضرب النعال.

(١) سورة النور: الآية ٢.

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٦٩٠).

(٣) انظر «جامع البيان» (٤/٢٩٤).

قال البغوي^(١): (فإن قيل: ذكر الحبس في الآية الأولى، وذكر في هذه الآية الإيذاء، فكيف وجه الجمع؟ قيل: الآية الأولى في النساء، وهذه في الرجال، وهو قول مجاهد، وقيل: الآية الأولى في الثيب، وهذه في البكر) انتهى.

وقيل: نزل ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا﴾، في اللذين يعملان عمل قوم لوط، قال مجاهد: كل ذلك نسخه الآية التي في النور بالحد المفروض.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ لَأَفَنَّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

قال مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة﴾، من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع من معصيته.

وقوله تعالى: ﴿ثم يتوبون من قريب﴾، قال الضحاك: كل شيء قبل الموت فهو قريب له التوبة ما بينه وبين أن يعاين ملك الموت، فإذا تاب حين ينظر إلى ملك الموت فليس له ذاك، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(٢). رواه ابن جرير وغيره.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾، قال: إذا تبين الموت فيه لم يقبل الله له توبة، وقال ابن عباس: ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أبعد من التوبة. قال

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٢١).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٢/٢ و ١٥٣)، والترمذي (ح/٣٥٣٧) وحسنه، وابن ماجه (ح/٤٢٥٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وهو حديث حسن.

ابن كثير^(١): يعني، أن الكافر إذا مات على كفره وشركه، لا ينفعه ندمه، ولا توبته ﴿أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝١١﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۝١٢﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝١٣﴾.

قال ابن عباس: في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾، كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بأمراته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، وهم أحق بها من أهلها. فنزلت هذه الآية في ذلك، وقال مجاهد: كان إذا توفي الرجل كان ابنه الأكبر هو أحق بأمراته ينكحها إذا شاء إذا لم يكن ابنها، أو ينكحها من شاء أخاه أو ابن أخيه.

وقوله تعالى: ﴿ولا تعضلوهن لتذهبن ببعض ما آتيتموهن﴾ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، قال ابن عباس: يعني، الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبته، ولها عليه مهر فيضرها لتفتدي، وقال أبو قلابة: إذا رأى الرجل من امرأته فاحشة فلا بأس أن يضارها، ويشق عليها حتى تختلع منه، وقال ابن عباس: ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾، وهو البغض والنشوز، فإذا فعلت ذلك فقد حل منها الفدية.

وقوله تعالى: ﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾.

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٦٤).

قال ابن جرير: يعني بذلك تعالى ذكره: لا تعضلوا نساءكم لتذهبوا ببعض ما آتیتموهن من غیر رية ولا نشوز منهن؛ ولكن عاشروهن بالمعروف. وإن کرهتموهن، فلعنکم أن کرهوهن فتمسکوهن، فيجعل الله في إمساککم إياهن خيراً كثيراً، من ولد یرزقکم منهن، أو عطفکم عليهن بعد کراهتکم إياهن.

وقوله تعالى: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتیتم إحداهن فنظاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتانا وإثماً مبيناً﴾، قال مجاهد: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج﴾: طلاق امرأة مكان أخرى، فلا يحل له من مال المطلقة شيء وإن کثر.

وقوله تعالى: ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضکم إلى بعض وأخذن منکم میثاقاً غليظاً﴾، قال ابن عباس: الإفضاء الجماع، ولكن الله کریم یکنی. وقال قتادة: ﴿وأخذن منکم میثاقاً غليظاً﴾، والميثاق الغليظ الذي أخذه للنساء على الرجال: إمساک بمعروف أو تسريح بإحسان. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «اتقوا الله في النساء فإنکم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»^(١)، رواه مسلم. وقال الربيع بن أنس: كلمة الله هي التشهد في الخطبة، والله أعلم.



(١) أخرجه مسلم (ح/١٢١٨)، من حديث جابر رضي الله عنه.

الدرس الخامس والخمسون

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ ٢٢ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْنَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ٢٣ ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا تَرْضَاهُنَّ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ٢٤ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ

ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِيكُمْ وَيُطَهِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ
ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٢٢).

قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يحرمون ما يخرم إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين، فأنزل الله ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ «وأن تجمعوا بين الأختين» وقال أيضاً: كل امرأة تزوجها أبوك وابنك، دخل أو لم يدخل فهي عليك حرام. وعن البراء بن عازب: «أن رسول الله ﷺ بعث أبا بردة إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله، ويأخذ ماله»^(١). رواه الإمام أحمد وأهل السنن.

قوله عز وجل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ أَلْفِئَةِ أَرْضَعْتُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنْ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ أَلْفِئَةِ فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ أَلْفِئَةِ دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلِيلُ آبَائِكُمْ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٢٣) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ

(١) أخرجه أحمد (٢٩٢/٤)، وأبو داود (٤٤٥٧/ح)، والترمذي (ح/١٣٦٢)، وحسنه، والنسائي (١٠٩/٩ و ١١٠)، وابن ماجه (ح/٢٦٠٧).

مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ^٤ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ^٥ فَرِيضَةً^٦
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ مِنْهُ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ^٧ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٢٤﴾.

قال ابن عباس: حرم من النسب سبع، ومن الصهر سبع، ثم قرأ: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ حتى بلغ ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾ قال: والسابعة ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء.

قال البغوي^(١): وجملة المحرمات في كتاب الله تعالى أربع عشرة: سبع بالنسب، وسبع بالسبب.

فأما السبع بالسبب: فمنها اثنتان بالرضاع، وأربع بالصهرية، والسابعة المحصنات، وهن من ذوات الأزواج.

وأما السبع بالنسب: فقوله تعالى: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ ويدخل فيهن الجدات وإن علون، ﴿وبناتكم﴾ ويدخل فيهن بنات الأولاد وإن سفلن، ﴿وأخواتكم﴾ سواء كانت من قبل الأب أو الأم، ﴿وعماتكم﴾ ويدخل فيهن جميع أخوات آبائك وأجدادك وإن علوا، ﴿وخالاتكم﴾ ويدخل فيهن جميع أخوات أمهاتك وجداتك، ﴿وبنات الأخ وبنات الأخت﴾ ويدخل فيهن بنات أولاد الأخ والأخت وإن سفلن.

وأما المحرمات بالرضاع: فقوله تعالى: ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾ وجملته أن يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب.

وأما المحرمات بالصهرية: فقوله: ﴿وأمهات نسائكم﴾ وجملته أن كل من عقد النكاح على امرأة فتحرم على الناكح أمهات المنكوحة وجداتها وإن علون من

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٢٥).

الرضاعة والنسب بنفس العقد، ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن﴾ الربائب: جمع ربيبة، وهي بنت المرأة ﴿دخلتم بهن﴾ دخلتم بهن أي جامعتموهن، ويحرم عليه أيضاً بنات المنكوحة، وبنات أولادها وإن سفلن من الرضاع، والنسب بعد الدخول بالمنكوحة حتى لو فارق المنكوحة قبل الدخول بها أو ماتت، جاز له أن ينكح بنتها، ولا يجوز له أن ينكح أمها؛ لأن الله تعالى أطلق تحريم الأمهات، وقال في تحريم الربائب: ﴿فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ يعني: أزواج أبنائكم. جملة: أنه يحرم على الرجل حلائل أبنائه، وأبناء أولاده، وإن سفلوا من الرضاع والنسب بنفس العقد. وإنما قال ﴿من أصلابكم﴾ ليعلم أن حليلة المتبنى لا تحرم على الرجل الذي تبناه، فإن النبي ﷺ تزوج امرأة زيد بن حارثة، وكان زيد قد تبناه رسول الله ﷺ.

والرابع من المحرمات بالصهرية: حليلة الأب والجد وإن علا، فتحرم على الولد، وولد الولد بنفس العقد، سواء كان الأب من الرضاع أو النسب؛ لقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ وكل امرأة تحرم عليك بعقد النكاح تحرم بالوطء في ملك اليمين، والوطء بشبهة.

قوله تعالى: ﴿وإن تجمعوا بين الأختين﴾ لا يجوز للرجل أن يجمع بين الأختين في النكاح سواء كانت الأخوة بينهما بالنسب، أو بالرضاع، وكذلك لا يجوز أن يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها.

قوله تعالى: ﴿إلا ما قد سلف﴾ يعني: لكن ما معني فهو معفو عنه: ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾.

قوله تعالى: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيما نكح﴾ يعني ذوات الأزواج، لا يحل للغير نكاحهن قبل مفارقة الأزواج، وهذه السابعة من النساء

اللاتي حرمن بالسبب. قال أبو سعيد الخدري: «نزلت في نساء كنَّ يهاجرن إلى رسول الله ﷺ ولهن أزواج، فتزوجهن بعض المسلمين، ثم قدم أزواجهن مهاجرين، فنهى الله المسلمين عن نكاحهن، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعني السبايا اللواتي سبين ولهن أزواج في دار الحرب، فيحل لمالكهن وطؤهن بعد الاستبراء) انتهى ملخصاً.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ كل امرأة لها زوج فهي عليك حرام إلا أمة ملكتها ولها زوج بأرض الحرب؛ فهي لك حلال إذا استبرأتها.

وقوله تعالى: ﴿كَتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، أي: كتب الله عليكم تحريم هؤلاء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ عن ابن جريج قال: سألت عطاء عنها، فقال: ﴿وَأَحْلَلْ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ قال: ما وراء ذات القرابة.

وقال ابن جرير^(١): إن الله جل ثناؤه يبين لعباده المحرمات، بالنسب والمصهر، ثم المحرمات من المحصنات من النساء، ثم أخبرهم جل ثناؤه أنه قد أحل لهم ما عدا هؤلاء المحرمات، الميِّنات في هاتين الآيتين أن يبتغيه بأموالنا نكاحاً، وملك يمين لا سفاحاً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ قال ابن عباس: إذا تزوج الرجل منكم المرأة ثم نكحها مرة واحدة، فقد وجب صداقها كله. والاستمتاع هو النكاح. وقال مجاهد: نزلت في نكاح المتعة. وفي

(١) انظر «جامع البيان» (١٠/٥).

الصحيحين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة يوم خيبر، وعن لحوم الحمر الأهلية»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيزَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

قال ابن جرير^(٢): وذلك نظير قوله جل ثناؤه: ﴿وَاتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نَحْلَةً فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾.

وقال ابن كثير^(٣): وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك.

وقال البغوي^(٤): ذهب عامة أهل العلم أن نكاح المتعة حرام، والآية منسوخة. وعن سبرة^(٥) بن معبد الجهني: «أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقال: يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً»^(٦). رواه مسلم.

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ

(١) أخرجه البخاري (ح/٥١١٥)، ومسلم (ج/١٤٠٧).

(٢) انظر المصدر السابق (١٤/٥).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٧٤).

(٤) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٢٨).

(٥) في (الأصل): «سيرة» وهو خطأ.

(٦) أخرجه مسلم (٢/١٠٢٥).

أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا
أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ
ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ .

قال ابن عباس في قوله: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً﴾ قال: من لم يكن له
سعة. وقال مجاهد: الغني أن ينكح المحصنات المؤمنات: ﴿فما ملكت أيمانكم
من فتياتكم المؤمنات﴾ قال سعيد ابن جبير: أما من لم يجد ما ينكح الحرة تزوج
الامة.

وقوله تعالى: ﴿والله أعلم بأيمانكم بعضكم من بعض﴾، أي: كلكم من
نفس واحدة، ودينكم واحد، والله يعلم سرائركم، فلينكح بعضكم من بعض.

وقوله تعالى: ﴿فانكحوهن﴾، أي: الأماء ﴿ياذن أهلهن﴾، أي: مواليهن
﴿وآتوهن أجورهن﴾، أي: مهورهن ﴿بالمعروف﴾ على ما تراضيتن به من غير
مطل ولا ضرار ﴿محصنات﴾ عفاف غير مسافحات ولا متخذات أخدان قال
ابن عباس: والمسافحات: المعلنات بالزنا ﴿ولا متخذات أخدان﴾ ذات الخليل
الواحد. كان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنا، ويستحلون ما خفى.
يقولون: أما ما ظهر منه فهو لوم، وأما ما خفى فلا بأس بذلك. فأنزل الله تبارك
وتعالى: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾.

وقوله تعالى: ﴿فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على
المحصنات من العذاب﴾ ليس المراد أن التزويج شرط لوجوب الحد؛ بل المراد
منه التنبيه على أن المملوك وإن كان محصناً فلا رجم عليه، إنما حدّه خمسون
جلدة. قال قتادة في قوله: ﴿فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات
من العذاب﴾ خمسون جلدة، ولا نفي ولا رجم. وفي الصحيحين، عن النبي ﷺ
قال: «إذا زنت أمة أحدكم فتيبن زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زنت

فليجلدها الحدّ ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبيعها ولو بحبل من شعره»^(١). وفي رواية: «سئل النبي ﷺ عن الأمة إذا زنت ولم تحصن قال: إن زنت فاجلدوها»^(٢) الحديث. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه خطب فقال: «يا أيها الناس أقيموا الحد على إمائكم من أحصن منهن ومن لم يحصن»^(٣). رواه مسلم وعند أبي داود مرفوعاً: «أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنْتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال ابن عباس: العنت الزنا. وقال السدي: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرَ لَكُمْ﴾ يقول: وإن تصبروا ولا تنكح الأمة فيكون ولدك مملوكين فهو خير لك.

قوله عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِيكُمْ وَيُطَهِّرَ الَّذِينَ فِيكُمْ وَيُؤْتِيَ بَعْضَكُمْ أَجْرَهُمْ﴾^(٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا^(٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا^(٢٨).

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِيكُمْ﴾ أي: يريد الله أن يوضح لكم شرائع دينكم، ومصالح أموركم ﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ يعني طرائقهم الحميدة ﴿ويتوب عليكم﴾ من الإثم والمحارم ﴿والله عليم﴾ بمصالح عباده في أمر دينهم ودنياهم ﴿حكيم﴾ فيما دبر من أمورهم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُؤْتِيَ بَعْضَكُمْ أَجْرَهُمْ﴾

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٨٣٩)، ومسلم (ح/١٧٠٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٣/١٣٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (ح/٦٨٣٩).

(٤) أخرجه أحمد (١/٩٥ و ١٣٥ و ١٤٥)، وأبو داود (ح/٤٤٧٣)، بسنده ضعيف.

تميلوا ميلاً عظيماً ﴿٢٦﴾ قال مجاهد: ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ أن تكونوا مثلهم تزنون كما يزنون. وقال ابن زيد: يريد أهل الباطل، وأهل الشهوات في دينهم أن تميلوا في دينكم ميلاً عظيماً، تتبعون أمر دينهم، وتتركون أمر الله وأمر دينكم.

وقوله تعالى: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ قال مجاهد: يريد الله أن يخفف عنكم في نكاح الأمة، وفي كل شيء فيه يسر. وقال ابن كيسان: خلق الإنسان ضعيفاً يستميله هواه وشهوته، وقال طاووس: ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في النساء. والله أعلم.



الدرس السادس والخمسون

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ
تَكُونَ بَحْكَرَةً عَنْ فَرَاغٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ
رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ
سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ
بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ
وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلِّ
جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ
فَأَنَّهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ الرِّجَالُ
قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ
أَمْوَالِهِمْ قَالَ الصَّدِيقُ قَنِينْتُ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي تَخَافُونَ
شُرُوهُمْ فَعِظُوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَصَاحِجِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ
أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ
خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا
إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٥﴾ ۞

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُّدْخَلَ كَرِيمٍ ۝٣١﴾.

قال السدي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾، نهوا عن أكلهم أموالهم بينهم بالباطل، وبالربا والقمار، والبخس والظلم، ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾، ليربح في الدرهم ألفاً إن استطاع. قال قتادة: والتجارة رزق من رزق الله، وحلال من حلال الله، لمن طلبها بصدقها وبرها. وقد كنا نحدث أن التاجر الأمين الصدوق، مع السبعة في ظل العرش يوم القيامة.

وقال مجاهد في قول الله تبارك وتعالى: ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ في تجارة بيع، أو عطاء يعطيه أحد أحداً. وقال الشعبي في البيعين: إنهما بالخيار ما لم يتفرقا، فإذا تصادرا فقد وجب البيع. وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إذا تباع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار، ما لم يتفرقا وكانا جميعاً، أو يخير أحدهما الآخر، فإن خير أحدهما الآخر فتابعا على ذلك فقد وجب البيع، وإن تفرقا بعد أن تباعا ولم يترك واحد منهما البيع، فقد وجب البيع»^(١). متفق عليه واللفظ لمسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، عن عمرو بن

(١) أخرجه البخاري (ج/٢١١٢)، ومسلم (ج/١٥٣١)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

العاص قال: «احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمنت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ قلت: يا رسول الله إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، فتيمنت ثم صليت. فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً^(١). رواه أحمد وغيره. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «كان رجل ممن كان قبلكم، وكان به جرح، فأخذ سكيناً فجَزَّ بها يده، فما رقاً^(٢) الدم حتى مات. قال الله عز وجل: عبي بادرني بنفسه، حرّمت عليه الجنة»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا ظَلَمًا فُسُوفَ نَصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

قال ابن كثير^(٤): أي ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعدياً فيه ظالماً في تعاطيه، أي عالماً بتحريمه متجاسراً على انتهاكه ﴿فسوف نصليه ناراً﴾ الآية، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾، في الصحيحين عن النبي أنه قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم

(١) أخرجه أحمد (٢٠٣/٤ - ٢٠٤)، وأبو داود (ح/٣٣٤)، والحاكم (١/١٧٧)، وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه البخاري معلقاً بصيغة التمرّض.

(٢) في (الأصل): «دفاً» وهو خطأ.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٣٤٦٣)، ومسلم (ح/١١٣) من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٨٠).

الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(١). وعن ابن مسعود قال: «سألت النبي ﷺ ما الكبائر؟ قال: أن تدعو الله ندأ وهو خلقك، وأن تقتل ولدك من أجل أن يأكل معك، أو تزني بحليلة جارك. وقرأ علينا رسول الله ﷺ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾»^(٢). رواه ابن جرير وغيره. وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراف بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»^(٣). قال ابن عباس: الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب. وقال: هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع. وفي رواية: هن إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٣٣﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَتَاوَهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّا اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٣٣﴾.

عن مجاهد قال: «قالت أم سلمة: يا رسول الله تغزو الرجال ولا تغزو، وإنما لنا نصف الميراث! فنزلت ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾، ونزلت ﴿إِن الْمُسْلِمِينَ

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٨٥٧)، ومسلم (ح/٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٧٥٣٢ و٤٤٧٧)، ومسلم (١/٩١).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٦٦٧٥).

والمسلمات»^(١). وقال ابن عباس: لا يتمنى الرجل يقول: ليت لي مال فلان وأهله، فهى الله سبحانه عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله. وقال ابن سيرين: نهيتهم عن الأمانى، ودللتهم على ما هو خير منه «واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً».

قال ابن كثير^(٢): أي هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق الفقر فيفقره، وعليم بمن يستحق الآخرة فيوفقه لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه، وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يسأل، وإن أفضل العبادات انتظار الفرج»^(٣). رواه الترمذي.

وقوله تعالى: «ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً». قال ابن عباس: «ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون». قال: الموالى العصبه يعنى الورثة. «والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً». قال الحسن: كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب، فيرث أحدهما الآخر، فنسخ الله ذلك في الأنفال فقال: «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم»^(٤). وقال ابن عباس: كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر، فأنزل الله «وأولوا الأرحام بعضهم أولى

(١) أخرجه أحمد (٣٢٢/٦)، ح (٥٠١١)، وابن جرير (٤٦/٤)، والحاكم (٣٠٥/٢ - ٣٠٦).

وصححه ووافقه الذهبي، وهو صحيح.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٨٨/١).

(٣) أخرجه الترمذي (ح/٣٨٠٥)، وابن أبي الدنيا في «القناعة والتعفف» (ح/٨٠)، وأيضاً في

«الفرج بعد الشدة» (ح/٢)، والطبراني (١٠/١٢٥)، بسند ضعيف جداً.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٧٥.

بعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً، يقول: إلا أن يوصوا إلى أوليائهم الذين عاقدوا وصية، فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، وذلك هو المعروف. وقال مجاهد: ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ كان حلف في الجاهلية، فأمروا في الإسلام أن يعطوهم نصيبهم من العقل والنصرة والمشورة، ولا ميراث. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وكل حلف كان في الجاهلية فلم يزد الإسلام إلا شدة، وما يسرني أن لي حمر النعم، وإنني نقضت الحلف الذي كان في دار الندوة»^(١). رواه ابن جرير.

وقال ابن كثير^(٢) في قوله: ﴿ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون﴾، أي: ورثة من قراباته من أبويه وأقربائه، وهم يرثون دون سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر»^(٣).

قوله عز وجل: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ شُرُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ

(١) أخرجه مسلم - دون قوله: «ما يسرني أني... إلخ» - (ح/٢٥٣٠) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٦١/٥)، والطبراني في الكبير (٨٦٤/١٨) عن قيس بن عاصم رضي الله عنه وهو حديث صحيح. أما حديث ابن عباس: فأخرجه ابن جرير (٥٥/٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٨٩).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥).

أَهْلِيهَا إِنْ يُرِيدَ أَنْ يَصْلَحَ مَا يَوْفِقُ اللَّهُ يَنْتَهِمَنَّ عَنْ اللَّهِ أَنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٥﴾ .

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾، يعني أمراء عليها أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة إلى أهله، حافظة لماله، وفضله عليها بنفقتة وسعيه. وقال الضحاك: الرجل قائم على المرأة يأمرها بطاعة الله، فإن أبت فله أن يضربها ضرباً غير مبرح، أي غير مؤثر. وقال السدي: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ يأخذون على أيديهن ويؤدبنهن. وقال قتادة: «صك رجل امرأته فأنت النبي ﷺ، فأراد أن يقيدها منه، فأنزل الله ﴿الرجال قوامون على النساء﴾»^(١). وقال الزهري: لو أن رجلاً شج امرأته أو جرحها لم يكن عليه في ذلك قود، وكان عليه العقل يعني الدية، إلا أن يعدو عليها فيقتلها فيقتل بها.

وقوله تعالى: ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾. قال سفيان: ﴿فالصالحات﴾ يعملن بالخير ﴿قانتات﴾ قال مجاهد: مطيعات. وقال قتادة: أي مطيعات لله ولأزواجهن. ﴿حافظات للغيب بما حفظ الله﴾. قال السدي: تحفظ على زوجها ماله وفرجها حتى يرجع كما أمرها الله. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها وماله»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ الآية^(٢). رواه ابن جرير. قال ابن جرير^(٣): وفي الكلام متروك استغني بدلالة الظاهر من الكلام عليه عن ذكره ومعناه، ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾ فأحسنوا إليهن وأصلحوا.

(١) أخرجه ابن جرير (٥٨/٥)، عن قتادة مرسلًا.

(٢) أخرجه أحمد (٢٥١/٢ و ٤٣٢ و ٤٣٨) والطيالسي (٣٠٦)، وابن جرير (٦٠/٥)،

والحاكم (١٦١/٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، وهو حديث صحيح.

(٣) انظر «جامع البيان» (٦١/٥).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾. قال ابن زيد: النشوز معصية الزوج وخلافه. وقال مجاهد: إذا نشزت المرأة عن فراش زوجها يقول لها: اتقي الله وارجعي إلى فراشك، فإن أطاعته فلا سبيل عليها. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿واهجروهن في المضاجع﴾، يعني بالهجران، أن يكون الرجل وامرأته على فراش واحد لا يجامعها. وقال قتادة: إذا خاف نشوزها وعظها، فإن قبلت، وإلا هجر مضجعها. وعن معاوية بن حيدة «أنه قال: يا رسول الله ما حق امرأة أهدنا عليه؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت». وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿واهجروهن في المضاجع واضربوهن﴾ قال: تهجرها في المضجع، فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضرباً غير مبرح، ولا تكسر لها عظماً، فإن أقبلت، وإلا فقد حل لك منها الفدية ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾. قال: إذا ضاجعته. وقال سفيان بن عيينة: إذا فعلت ذلك لا يكلفها أن تحبه، لأن قلبها ليس في يديها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾. قال ابن كثير^(١): فيه تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليهن، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تضربوا إماء الله، فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: ذئرن النساء على أزواجهن. فرخص رسول الله ﷺ في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ: لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن، ليس أولئك بخياركم»^(٢). رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٩٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/٢١٤٦)، والنسائي في الكبرى (٥/٣٧١)، وابن ماجه (ح/١٩٨٥) من حديث إياس بن عبد الله بن أبي ذباب، وهو حديث صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدان إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً﴾. قال السدي في قوله تعالى: ﴿وإن خفتن شقاق بينهما﴾ إن ضربها فأبت أن ترجع وشاقته، يقول: عادته. وقال سعيد بن جبير: يعظها، فإن انتهت وإلاً هجرها، فإن انتهت وإلاً ضربها، فإن انتهت وإلاً رفع أمرها إلى السلطان، فيبعث حكماً من أهله وحكماً من أهلها، فيقول الحكم الذي من أهلها: يفعل بها كذا، ويقول الحكم الذي من أهله: تفعل به كذا، فأيهما كان الظالم رده السلطان، وأخذ فوق يديه، وإن كانت ناشراً أمره أن يخلع. وقال ابن عباس في قوله: ﴿إن يريدان إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ وذلك الحكمان، وكذلك كل مصلح يوفقه الله للحق والصواب.

وقال البخاري^(١)، باب الشقاق، وهل يشير بالخلع عند الضرورة؟ وقوله تعالى: ﴿وإن خفتن شقاق بينهما﴾ الآية.

قال ابن بطال^(٢): أجمع العلماء على أن المخاطب بقوله تعالى: ﴿وإن خفتن شقاق بينهما﴾ الحكام، وأن المراد بقوله: ﴿إن يريدان إصلاحاً﴾ الحكمان، وأن الحكمين يكون أحدهما من جهة الرجل، والآخر من جهة المرأة، إلا أن لا يوجد من أهلها من يصلح، فيجوز أن يكون من الأجانب ممن يصلح لذلك، وأنهما إذا اختلفا لم ينفذ قولهما، وإن اتفقا نفذ في الجميع بينهما من غير توكيل. واختلفوا فيما إذا اتفقا على الفرقة: فقال مالك والأوزاعي وإسحاق: ينفذ بغير توكيل ولا إذن من الزوجين. وقال الكوفيون والشافعي وأحمد: يحتاجان إلى الإذن. فأما مالك ومن تابعه فألحقوه بالعنّين والمولي، فإن الحاكم يطلق عليهما، فكذلك هذا وأيضاً، فلما كان المخاطب بذلك الحكام، وأن الإرسال إليهم دل على أن بلوغ

(١) انظر (٣١٤/٩ - مع الفتح - ح/٥٢٧٨).

(٢) انظر «الفتح» (٣١٤/٩ - ٣١٥).

الغاية من الجمع أو التفريق إليهم، وجرى الباكون على الأصل، وهو أن الطلاق بيد الزوج، فإن أذن في ذلك وإلاً طلق عليه الحاكم) انتهى.

وقال الشيخ ابن سعدي^(١): ومهما وجدا طريقاً إلى الإصلاح والاتفاق والملاءمة بينهما لم يعدلا عنها إما بتنازل عن بعض الحقوق، أو ببذل مال أو غير ذلك، فإن تعذرت الطرق كلها، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح لتعذر الملائمة، فرقا بينهما بما تقتضيه الحال، بعوض أو بغير عوض، ولا يشترط في هذا رضى الزوج، لأن الله سماهما حكيمين لا وكيلين. ومن قال: أنهما وكيلان اشترط في التفريق رضى الزوج، ولكن هذا القول ضعيف. ولمحة الباري للاتفاق بينهما، وترجيحه على الآخر قال: ﴿إن يريدوا إصلاً يوفق الله بينهما﴾ (انتهى).

وقوله تعالى: ﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾.

قال ابن جرير^(٢): يعني جل ثناؤه ﴿إن الله كان عليماً﴾ بما أراد الحكمان من إصلاح بين الزوجين وغيره، ﴿خبيراً﴾ بذلك وبغيره من أمور غيرهما، لا يخفي عليه شيء منه، حافظ عليهم حتى يجازي كلًّا منهم جزاءه، بالإحسان إحساناً وبالإساءة غفراناً أو عقاباً. وبالله التوفيق.



(١) انظر «تيسير الكريم الرحمن» (٢/٦٢) نحوه.

(٢) انظر «جامع البيان» (٥/٧٠).

الدرس السابع والخمسون

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ
بِالْجُنُبِ وَأَنَّى السَّيْلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (٣٦) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ
وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا
مُّهِينًا ﴾ (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا
بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ (٣٨) وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ (٣٩) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا وَتُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ
إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٣٦) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾.

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿واعبدوا الله﴾، أي: وحدوه وأطيعوه ﴿ولا تشركوا به شيئا﴾ ثم ساق بسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «كنت رديف النبي ﷺ فقال: هل تدري يا معاذ ما حق الله على الناس؟ قال قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا. أتدري يا معاذ ما حق الناس على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن حق الناس على الله أن لا يعذبهم. قال قلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: دعهم يعملون»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ برأ بهما وعظفاً عليهما ﴿وبذي القربى﴾، أي: أحسنوا ﴿بذي القربى واليتامى والمساكين﴾ ثم ساق بسنده عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة»

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٢٨٥٦)، ومسلم (ح/٣٠).

هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرق بينهما شيئاً^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾. قال ابن عباس: يعني ذا الرحم.
وقال مجاهد: جارك وهو ذا قرابتك.

وقوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ الْجَنْبِ﴾ قال ابن عباس: الذي ليس بينك وبينه قرابة. وقال مجاهد: البعيد في النسب وهو جار.

وقوله تعالى: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾. قال مجاهد: صاحبك في السفر.
وقال علي: هي المرأة. وقال ابن عباس: ﴿الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ الملازم.

قال ابن جرير^(٢): وقد يدخل في هذا الرفيق في السفر، والمرأة، والمنقطع إلى الرجل الذي يلزمه رجاء نفعه، لأن كلهم بجنب الذي هو معه وقريب منه، وقد أوصى الله تعالى بجميعهم، لوجوب حق الصاحب على المصحوب؛ وساق بسنده عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾. قال مجاهد: هو الذي يمر عليك وهو مسافر. وقال قتادة: هو الضيف.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعني الأرقاء. قال مجاهد: كل هذا أوصى الله به.

(١) أخرجه البخاري (ح/٥٣٠٤) من حديث سهل رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (ح/٢٩٨٣)، عن أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه.

(٢) انظر «جامع البيان» (٥/٨٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢/١٦٨)، والترمذي (ح/١٩٤٤) وحسنه، والحاكم (٤/١٦٤) وصححه ووافقه الذهبي، وهو حديث صحيح.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ مَنْ كَانَ مَخْتَالًا فَخُورًا﴾. قال مجاهد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ مَنْ كَانَ مَخْتَالًا﴾. متكبراً ﴿فَخُورًا﴾، قال: بعدما أعطي، وهو لا يشكر الله. قال أبو رجاء: لا تجد سيئء الملكة إلاَّ وجدته مختالاً فخوراً، وتلا ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ مَنْ كَانَ مَخْتَالًا فَخُورًا﴾ ولا عاقاً إلاَّ وجدته جبَّاراً شقيّاً، وتلا ﴿وَبِرًّا بِالذِّمَّةِ وَلَمْ يُجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. قال طاووس: البخل أن يبخل الإنسان بما في يديه، والشح، أن يشح على ما في أيدي الناس. قال: يحب أن يكون له ما في أيدي الناس بالحل والحرام لا يقنع. وقال قتادة في قوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ﴾ هم أعداء الله أهل الكتاب، بخلوا بحق الله عليهم، وكتموا الإسلام ومحمداً ﷺ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

قال ابن كثير^(٢): والظاهر أن السياق في البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى، فإن السياق في الإنفاق على الأقارب والضعفاء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

قال ابن كثير^(٣): فالبخيل جحود لنعمة الله، ولا تظهر عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾^(٤)، أي: بحاله وشمائله، وقال ههنا ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ولهذا نؤكدكم بقوله ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ والكفر: هو الستر والتغطية، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها

(١) سورة مريم: الآية ٣٢.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٤٩٦).

(٣) المصدر السابق (١/٤٩٦).

(٤) سورة العاديات: الآيتان ٦ و ٧.

ويجحدوها»، فهو كافر لنعمة الله عليه. وفي الحديث: «أن الله إذا أنعم نعمة على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه»^(١). وفي الدعاء النبوي: «واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك، قابليها، وأتممها علينا»^(٢). انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لِقُرَيْشًا فِئَسَاءَ قَرِينًا ۖ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ۝﴾.

قال السدي: نزلت في المنافقين. قال ابن كثير^(٣): ذكر الممسكين المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة، وأن يمدحوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله، وفي حديث الثلاثة الذين هم أول من تسجر بهم النار وهم: العالم، والغازي، والمنفق المراءون بأعمالهم. «يقول صاحب المال: ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت في سبيلك. فيقول الله: كذبت إنما أردت أن يقال جواد، فقد قيل أي فقد أخذت جزاءك في الدنيا وهو الذي أردت بفعلك»^(٤). وإن رسول الله ﷺ قال لعدي بن حاتم: «إن أباك أراد أمراً فبلغه»^(٥). وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ «سئل عن

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب»، (١٦٣/٥) والسهمي في «تاريخ جرجان» (ص ١٠١)، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (ح/٩٦٩)، والطبراني (٢٣٧/١٠)، وابن حبان — كما في الإحسان — (١٧٠/٢ — ١٧١)، والحاكم (٢٦٥/١) وصححه، ووافقه الذهبي!! قلت: وفي إسناده ضعف من جهة شريك بن عبد الله القاضي. تنبيه: وقع عند أبي داود (طبعة/الدعاس): «جامع — يعني بن شداد» وهو خطأ فليصح.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٩٦/١).

(٤) أخرجه مسلم (ح/١٩٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أحمد (٤/٢٥٨ و ٣٧٩) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه وفي سنده ضعف.

عبد الله بن جدعان: هل ينفعه إنفاقه وإعتاقه؟ فقال: لا إنه لم يقل يوماً من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين^(١). ولهذا قال: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، أي: إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح وعدولهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطان، فإنه سول لهم وأملى لهم، وقارنهم فحسن لهم القبايح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾، ولهذا قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

ثم قال تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ الآية، أي: وأي شيء يضرهم لو آمنوا بالله، وسلكوا الطريق الحميدة، وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله، رجاء موعوده في الدار الآخر لمن يحسن عمله، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها؟ [و] قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾، أي: وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم، ويلهمه رشده ويقبضه لعمل صالح يرضى به عنه، وبمن يستحق الخذلان والطرده عن جنبه الأعظم الإلهي، الذي من طرده عن بابه فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة، عياداً بالله من ذلك انتهى.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ١١ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ١٢ ﴿يَوْمَ يَذُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ١٣.

قال ابن عباس في قوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ قال: رأس نملة حمراء. وقال قتادة: كان بعض أهل العلم يقول: لأن تفضل حسناتي على سيئاتي ما يزن ذرة، أحب إليّ

(١) أخرجه مسلم (ح/٢١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

من أن تكون لي الدنيا جميعاً. وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها، الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة لم تكن له حسنة»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ قال: الجنة. وفي حديث الشفاعة الطويل عن رسول الله ﷺ: فيقول الله عز وجل: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقاً كثيراً. ثم يقول أبو سعيد: اقرؤوا إن شئتم ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ الآية^(٢)، متفق عليه.

وقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾. قال ابن جريج: قوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ قال: رسولها، فيشهد علينا أن قد أبلغهم ما أرسله الله إليهم. ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾. قال: «كان النبي ﷺ إذا أتى عليها فاضت عيناه». وعن ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال له: «اقرأ عليّ». قال: يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: إني أحب أن أسمعه من غيري. قال: فقرأت سورة النساء، حتى أتيت على هذه الآية ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾. فقال: حسبك الآن. فالتفت فإذا عيناه تذرفان»^(٣). متفق عليه.

وقوله تعالى: ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثاً﴾ عن سعيد بن جبير قال: أتى رجل إلى ابن عباس فقال:

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٨٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٧٤٣٩)، ومسلم (ح/١٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٤٥٨٢)، ومسلم (ح/٨٠٠).

سمعت الله يقول: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾، وقال في آية أخرى: ﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾، فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فإنهم لما رأوا الله لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: تعالوا فلنجحد، فقالوا: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم، فلا يكتُمون الله حديثاً. وقال الحسن: إنها مواطن: ففي موطن لا يتكلمون، ولا تسمع إلا همساً، وفي موطن يتكلمون ويكذبون، وفي موطن يسألون الرجعة، وآخر تلك المواطن أن يختم على أفواههم، وتتكلم جوارحهم، وهو قوله: ﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾، والله أعلم.



الدرس الثامن والخمسون

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن يُضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْحِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُلْطَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن يَجِدَ لَهُم

نَصِيرًا ﴿٥٧﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٨﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا ﴿٥٩﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَتُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٦٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾.

روى ابن جرير عن علي: أنه كان هو وعبد الرحمن ورجل آخر شربوا الخمر، فصلى ربهم عبد الرحمن فقرأ: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ فخلط فيها، فنزلت: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾. وعن أبي رزين قال: كانوا يشربون بعدما أنزلت التي في البقرة وبعد التي في النساء، فلما أنزلت التي في المائدة تركوها. وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نعت أحدكم وهو يصلي، فليصرف ولينم حتى يعلم ما يقول»^(١) رواه البخاري والنسائي. وفي بعض ألفاظه: «فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾ قال ابن عباس: قوله: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ قال: المسافر. يقول: لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب إذا وجدتم الماء، فإن لم تجدوا الماء فقد أحللت لكم أن تمسحوا بالأرض. وقال إبراهيم: لا بأس أن يمر الجنب في المسجد إذا لم يكن له طريق غيره.

وقوله تعالى: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط

(١) أخرجه البخاري (ح/٢١٣).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٢١٢)، ومسلم (ح/٧٨٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً ﴿٤٣﴾ عن ابن أبي مليكة قال: دخل ابن عباس على عائشة فقالت: كنت أعظم المسلمين بركة على المسلمين، سقطت قلاطك بالأبواء فأنزل الله فيك آية التيمم. وقال ابن مسعود: المرض الذي قد أرخص له في التيمم هو الكسير الجريح، فإذا أصابت الجنابة الكسر اغتسل ولا يحل جراحته، إلا جراحة لا يخشى عليها. وقال سعيد بن جبير: إذا كان به جروح أو قروح يتيمم. وقال مجاهد: والمرض أن يصيب الرجل والجرح والقرح والجذري، فيخاف على نفسه من برد الماء وأذاه، يتيمم بالصعيد كما يتيمم المسافر الذي لا يجد الماء.

وقوله: ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ هو كناية عن حاجة الإنسان، والغائط في الأصل: الموضع المظلم من الأرض. قال مجاهد: ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ قال: الغائط الوادي.

وقوله تعالى: ﴿أو لامستم النساء﴾ قال ابن عباس: هو الجماع، ولكن الله كريم يكتفي. وقال ابن مسعود: «القبلة من اللبس، وفيها الوضوء. قال إبراهيم: اللبس من شهوة ينقض الوضوء. وعن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ ينال مني القبلة بعد الوضوء، ثم لا يعيد الوضوء»^(١). رواه ابن جرير. وعن ابن جريج: قلت لعطاء: «فتيمموا صعيداً طيباً» قال: الطيب ما حولك. قلت: مكان جرد غير بطح أيجزى عني؟ قال: نعم. قال ابن جرير^(٢) يعني «بالطيب»: طاهراً من الأقدار والنجاسات. وعن أبي مالك قال. وضع عمار بن ياسر كفيه في التراب، ثم رفعها فنفخها فمسح وجهه وكفيه ثم قال. هكذا التيمم. قال الحسن: يصلي المتيمم

(١) أخرجه أحمد (٢١٠/٦)، وأبو داود (ح/١٧٩)؛ والترمذي (ح/٨٦)، وابن ماجه

(ح/٥٠٢)، وهو حديث صحيح.

(٢) انظر «جامع البيان» (١٠٩/٥).

بتيمة ما لم يحدث. وعن علي رضي الله عنه أنه كان يقول: التيمم لكل صلاة.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وأعدل الأقوال: التيمم لوقت كل صلاة.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ
الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى
بِاللَّهِ نَصِيرًا ۚ﴾ ﴿٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا
وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنِّهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾.

قال ابن عباس: كان رفاعة بن زيد بن التابوت من عظماء اليهود، إذا كلم
رسول الله ﷺ لوى لسانه وقال: راعنا سمعك يا محمد حتى نفهمك، ثم طعن في
الإسلام وعابه، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ
الضَّلَالَةَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ
الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ تبديل اليهود التوراة. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وَأَسْمَعُ غَيْرَ
مُسْمِعٍ﴾ قال: هذا قول أهل الكتاب يهود، كهيئة ما يقول الإنسان: اسمع
لاسمعت، أذى لرسول الله ﷺ وشتماً له^(١) واستهزاء.

وقوله تعالى: ﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنِّهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ قال الضحاك: كان
الرجل من المشركين يقول: أرعني سمعك، يلوي بذلك لسانه يعني يحرف معناه.
قال ابن زيد: والراعن: الخطأ من الكلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ
وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال ابن زيد في قوله: ﴿وَلَوْ

(١) في (الأصل): «واشتماله» وهو خطأ.

أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم ﴿ قال يقولون: اسمع منا فإننا قد سمعنا، وأطعنا، وانظرنا فلا تعجل علينا.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

قال ابن عباس: «كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود، منهم عبد الله بن صوريا وكعب بن أسد فقال لهم: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به لحق. فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، وجحدوا ما عرفوا وأصروا على الكفر، فأنزل الله فيهم: ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها﴾ الآية»^(١). قال إبراهيم: لما سمعها كعب الأحبار قال: يا رب آمنت، يا رب أسلمت. مخافة أن تصيبه، ثم رجع فأتى أهله باليمن، ثم جاء بهم مسلمين في زمان عمر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ قال ابن عمر: كنا معشر أصحاب النبي ﷺ لانشك في عذاب آكل مال اليتيم، وشاهد الزور، وقاطع الرحم، حتى نزلت هذه الآية، فأمسكنا عن الشهادة.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُورُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْنًا ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَقْرَوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكِتَابَ وَكَفَىٰ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾.

(١) أخرجه ابن جرير (١٩٤/٥)، وفي سنده ضعف.

قال الحسن في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ هم اليهود والنصارى قالوا: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾^(١)، وقالوا: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾^(٢) وقال التيمي: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ قال: ما فتلت بين أصبعيك. وقال مجاهد: الفتيل الذي في شق النواة. وقال ابن جريج: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ قال: هم اليهود والنصارى ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ وعن معاوية عن النبي ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإن هذا المال حلو خضر، فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه، وإياكم والتمادح فإنه الذبح»^(٣). رواه أحمد.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۚ﴾^(٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُم نَصِيرًا ۚ﴾^(٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلَكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۚ﴾^(٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۚ﴾^(٥٤) فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكُفِيَ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۚ﴾^(٥٥).

قال ابن عباس في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ الجبت: الأصنام، والطاغوت: الذين يكونون بين أيدي الأصنام يعبرون عنها الكذب ليضلوا الناس. وقال عمر: الجبت: السحر،

(١) سورة المائدة: الآية ١٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ١١١.

(٣) أخرجه أحمد (٩٢/٤ و ٩٣ و ٩٨ و ٩٩)، والطحاوي في المشكل (٢/٢٧٩)، وسنده حسن. وأوله: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» عند البخاري ومسلم من حديث معاوية رضي الله عنه أيضاً.

الطاغوت: الشيطان. قال ابن جرير: الجبت والطاغوت اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله، أو طاعة، أو خضوع من حجر، أو إنسان، أو شيطان.

وقوله تعالى: ﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾، قال مجاهد: نزلت في كعب بن الأشرف وكفار قريش، أنه قال: كفار قريش أهدى من محمد. وقال قتادة: قال كعب بن الأشرف وحبي بن أخطب ما قالوا، وهما يعلمان أنهما كاذبان، فأنزل الله تعالى: ﴿أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً﴾.

وقوله تعالى: ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نفيراً﴾ قال السدي: يقول: لو كان لهم نصيب من الملك إذا لم يؤتوا محمداً نفيراً، والنفير: النكتة التي في وسط النواة.

وقوله تعالى: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ قال قتادة: حسدوا هذا الحي من العرب على ما آتاهم الله من فضله، بعث الله منهم نبياً، فحسدوهم على ذلك. وقوله تعالى: ﴿فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً﴾ قال مجاهد: ﴿فمنهم من آمن به﴾ قال: بما أنزل على محمد من يهود ﴿ومنهم من صد عنه﴾.

وقال ابن كثير^(١): ﴿فمنهم من آمن به﴾، أي: بهذا الإتياء وهذا الإنعام ﴿ومنهم من صد عنه﴾، أي: كفر به، وأعرض عنه، وسعى في صد الناس عنه، وهو منهم، ومن جنسهم، فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد، ولست من بني إسرائيل؟ فالكفرة منهم أشد تكذيباً لك، ولهذا قال متوعداً لهم ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾، أي: وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥١٣ - ٥١٤).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

قال ابن عمر في قوله: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها﴾ قال: إذا احترقت جلودهم بدلناهم جلوداً بيضا أمثال القراطيس. قال الحسن: تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة.

وقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لهم فيها أزواج مطهرة﴾ قال: من الأقدار والأذى. وقال مجاهد: مطهرة من البول والحيض، والنخام والبزاق، والمني والولد. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، لا يقطعها شجرة الخلد»^(١). رواه ابن جرير. والله أعلم.

• • •

(١) أخرجه أحمد (٤١٨/٢)، والبخاري — دون قوله: «شجرة الخلد» — (ح/٤٨٨١)، ومسلم (ح/٢٨٢٦). وبهذا اللفظ الذي أورده المؤلف — رحمه الله — أخرجه: أحمد (٤٥٥/٢) و (٤٦٢)، والطيالسي (ح/٢٨٣٣)، وابن جرير (١٤٤/٥).

الدرس التاسع والخمسون

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ

تَنْبِيئًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَاتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ
وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ
مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَوَاقِعُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَعْنَٰنَ﴾
 حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ
 فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ
 تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾.

قال زيد بن أسلم: نزلت هذه آية ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أن تؤدوا الأمانات إلى
 أهلها ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: حق على الإمام أن
 يحكم بما أنزل الله، وأن يؤدي الأمانة، وإذا فعل ذلك فحق على الناس أن يسمعوا
 وأن يطيعوا، وأن يجيبوا إذا دعوا. وقال ابن جريج: قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾
 تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: مفتاح
 الكعبة ودخل بها البيت يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه الآية. فدعا عثمان فدفع
 إليه المفتاح^(١).

قال ابن جرير^(٢): جائز أن تكون نزلت فيه، وأريد به كل مؤتمن على أمانة،
 فدخل فيه ولاية أمور المسلمين، وكل مؤتمن على أمانة في دين أو دنيا.
 وقال ابن كثير^(٣): وهذا من المشهورات، إن هذه الآية نزلت في ذلك، يعني
 مفتاح الكعبة. وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا، فحكمها عام، ولهذا قال ابن

(١) أخرجه ابن جرير (١٤٥/٥).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٤٦/٥).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥١٦/١).

عباس: هي للبر والفاجر، أي: هي أمر كل أحد بأداء الأمانة. وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها، حتى يقتص للشيء الجماء من القرناء»^(١). وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»^(٢). رواه البغوي.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قال أبو هريرة: هم الأمراء. وقال ابن عباس: يعني أهل الفقه والدين.

قال ابن كثير^(٣): والظاهر والله أعلم، أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾. قال مجاهد في قوله: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. قال: كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ قال: أحسن جزاء. وقال قتادة: أحسن ثواباً وخيراً عاقبة.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمْ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٥٨٢) من أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/٢٥١) وابن أبي شيبة في «الإيمان» (ص ٥)، وابن حبان (كما في

الإحسان، (١/٢٠٨)، والبغوي في شرح السنة (١/٧٥ و ٩٠) وهو حديث صحيح.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥١٨).

إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنْتُمْ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ جَاءُوكَ فَاستَغْفِرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ .

قال الشعبي: كان بين رجل من اليهود؛ ورجل من المنافقين خصومة، فكان المنافق يدعو إلى اليهود لأنه يعلم أنهم يقبلون الرشوة، وكان اليهودي يدعو إلى المسلمين لأنه يعلم أنهم لا يقبلون الرشوة، فاصطلحا أن يتحاكما إلى كاهن من جهينة، فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك﴾ حتى بلغ ﴿ويسلموا تسليماً﴾ وقال قتادة: وذكر لنا أن اليهودي كان يدعو إلى النبي ﷺ ليحكم بينهما، وقد علم أن النبي ﷺ لن يجور عليه، فجعل الأنصاري يأبى عليه، وهو يزعم أنه مسلم، ويدعوه إلى الكاهن، فأنزل الله تبارك وتعالى ما تسمعون، فعاب ذلك على الذي يزعم أنه مسلم، وعلى اليهودي الذي هو من أهل الكتاب، فقال: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ إلى قوله: ﴿صدوداً﴾.

وقوله تعالى: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾، يعني: عقوبة حدودهم. ﴿ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا﴾ ما أردنا بالعدول ﴿إلا إحساناً وتوفيقاً﴾، أي: المدارة والمصانعة. ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ من النفاق ﴿فأعرض عنهم وعظمهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾. قال الحسن: القول البليغ أن يقول لهم: إن أظهرتم ما في قلوبكم من النفاق قتلتم.

وقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾. قال مجاهد:

واجب لهم أن يطيعهم من شاء الله، لا يطيعهم أحد إلا بإذن الله.

قال ابن جرير^(١): وإنما هذا تعريض من الله تعالى ذكره لهؤلاء المنافقين، بأن تركهم طاعة الله، وطاعة رسوله والرضى بحكمه، إنما هو للسابق لهم من خذلانه وغلبته الشقاء عليهم.

وقوله تعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجودوا الله تواباً رحيماً﴾. قال مجاهد: عني بذلك اليهود والمسلم اللذين تحاكما إلى كعب بن الأشرف.

قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾. قال مجاهد: هذا الرجل اليهودي والرجل المسلم اللذان تحاكما إلى كعب بن الأشرف. وعن الزبير بن العوام: «أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ، في شراج من الحرة كانا يسقيان به كلاهما النخل. فقال الأنصاري: سرح الماء يمر، فأبى عليه. فقال رسول الله ﷺ: استق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك. فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله إن كان ابن عمك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: استق يا زبير ثم احبس الماء حتى يصل إلى الجذر واستوعى^(٢) رسول الله ﷺ للزبير حقه. وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير، بل أي أراد فيه الشفقة له وللأنصاري، فلما أحفظ رسول الله ﷺ الأنصاري استوعب للزبير حقه في صريح الحكم. قال فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ الآية^(٣). رواه ابن جرير. وفي رواية: «ثم قال: يا زبير احبس الماء إلى الجدر أو إلى الكعبيين، ثم خل سيل الماء».

(١) انظر «جامع البيان» (١٥٧/٥).

(٢) قال ابن جرير - رحمه الله - في المصدر السابق: «والصواب: استوعب» (١٥٨/٥).

(٣) أخرجه البخاري (ح/٢٣٥٩ و ٤٥٨٥)، ومسلم (ح/٢٣٥٧)، وابن جرير (١٥٨/٥).

قال ابن جرير: غير مستحيل أن تكون الآية نزلت في قصة المحتكمين إلى الطاغوت، ويكون فيها بيان ما احتكم فيه الزبير وصاحبه الأنصاري، إذ كانت الآية دالة على ذلك.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ۖ وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِنَ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۖ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلِمًا ۖ﴾.

عن مجاهد ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم﴾ كما أمر أصحاب موسى أن يقتل بعضهم بعضاً بالخناجر لم يفعلوا ﴿إلا قليل منهم﴾. وقال أبو إسحاق السبيعي: «لما نزلت ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليلاً منهم﴾ قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: إن من أمتي لرجالاً، الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبل الرواسي»^(١).

وقوله تعالى: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ يؤمرون به من طاعة الرسول والرضى بحكمه، ﴿لكان خيراً لهم وأشد تثبيثاً﴾، أي: تصديقاً. قال السدي: ﴿وإذا لا تأتيَنَّهُمْ من لدنا أجراً عظيماً﴾، يعني: الجنة. ﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ عن مسروق قال:

(١) أخرجه ابن جرير (١٦١/٥)، بسند ضعيف.

قال أصحاب رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنا أن نفارقك في الدنيا، فإنك لو قدّمت رفعت فوقنا فلم نرك، فأنزل الله ﴿ومن يطع الله والرسول﴾ الآية. وعن ربيعة بن كعب الأسلمي قال: «كنت أبيّت عند النبي ﷺ، فأتيته بوضوءه وحاجته فقال لي: سل. فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة. فقال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك. قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود»^(١). رواه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿ذلك الفضل من الله﴾، أي: برحمته وفضله نالوا ذلك. ﴿وكفى بالله عليمًا﴾، أي: هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «قاربوا وسددوا، واعلموا أنه لا ينجو أحد منكم بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة»^(٢). رواه البغوي وغيره. وبالله التوفيق.



(١) أخرجه مسلم (ح/٤٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٦٤٦٤ و ٦٤٦٧)، ومسلم (ح/٢٨١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنه، وأخرجه البخاري أيضاً (ح/٦٤٦٣)، ومسلم (٤/٢١٦٩ — ٢١٧٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدرس الستون

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ۖ﴾
وَلَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّلَنَّ فَإِنْ أَصَبَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ
شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ
يَلِيَّتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ
أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ
مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا
وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ
الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا
الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً
وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنِعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ
وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ
فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا
هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا
أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ
بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ .

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ
 انْفِرُوا جَمِيعًا ۖ﴾ (٧١) وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيْبُطُنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ
 لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۖ﴾ (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ
 وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۖ فَلْيُقَاتِلْ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿خذوا حذرکم فانفروا ثبات﴾، يقول: عسبا
 يعني سرايا متفرقين. ﴿أو انفروا جميعاً﴾، يعني كلکم. وقال قتادة: الثبات
 الفرق.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَيَبُطُنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ
 عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾. قال ابن جريج: المنافق يبطئ المسلمين عن
 الجهاد في سبيل الله، قال الله: ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾. قال: بقتل العدو من
 المسلمين ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾. قال: هذا قول
 الشامت.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ
 مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

قال ابن جرير^(١): وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافقين، أن
 شهودهم الحرب مع المسلمين، إن شهدوها لطلب الغنيمة، وإن تخلفوا عنها

(١) انظر «جامع البيان» (١٦٦/٥).

فللشك الذي في قلوبهم، وأنهم لا يرجون لحضورها ثواباً ولا يخافون بالتخلف عنها من الله عقاباً. وكان قتادة وابن جريج يقولان: إنما قال من قال من المنافقين، إذا كان الظفر للمسلمين: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ حسداً منهم لهم.

وقال البغوي^(١): (قوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُطْشَنَ﴾ نزلت في المنافقين، وإنما قال: ﴿مِنْكُمْ﴾ لاجتماعهم مع أهل الإيمان في الجنسية، والنسب، وإظهار الإسلام، لا في حقيقة الإيمان. ﴿لِيُطْشَنَ﴾، أي: ليتأخرن، وليثاقلن، عن الجهاد. ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾، أي: قتل وهزيمة ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾ بالقعود ﴿إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً﴾، أي: حاضراً في تلك الغزاة فيصيني ما أصابهم. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ فتح وغنيمة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ هذا المنافق، وفيه تقديم وتأخير.

وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ متصل بقوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً﴾ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة، أي: معرفة، أي: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ في تلك الغزاة ﴿فَأَفُوزُ فَوْزاً عَظِيماً﴾، أي: آخذ نصيباً وافراً من الغنيمة). انتهى ملخصاً.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾. قال السدي يقول: يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة. ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾، أي: كل من قاتل في سبيل الله سواء قتل أو غلب، فله عند الله مثوبة عظيمة وأجر جزيل.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٥٩).

لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ
كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ .

قال السدي: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾، يقول: وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله وفي المستضعفين، وأما القرية: فمكة. وقال ابن شهاب: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾. قال: في سبيل الله وسبيل المستضعفين. قال ابن عباس: هم أناس مسلمون كانوا بمكة، لا يستطيعون أن يخرجوا منها ليهاجروا فعذرهم الله.

وقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾.

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله﴾، أي: في طاعته ﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾، أي: في طاعة الشيطان ﴿فقاتلوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أولياء الشيطان﴾، أي: حزبه، وجنوده، وهم الكفار ﴿إن كيد الشيطان﴾ مكره ﴿كان ضعيفاً﴾، كما فعل يوم بدر لما رأى الملائكة خاف أن يأخذه، فهرب وخذلهم.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعَ الدُّنْيَا

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٦٠).

قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قُلْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿الم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فقراً حتى بلغ ﴿إلى أجل قريب﴾ أناس من أصحاب رسول الله ﷺ، وهو يومئذ بمكة قبل الهجرة، تسرعوا إلى القتال، وسارعوا إليه، فقالوا لنبي الله ﷺ: ذرنا نتخذ معاول فنقتل بها المشركين بمكة، فنهاهم نبي الله ﷺ عن ذلك. قال: ثم أمر بذلك، فلما كانت الهجرة وأمر بالقتال كره القوم ذلك، فصنعوا فيه ما تسمعون، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلًا﴾^(١). وقال السدي في قوله: ﴿لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ هو الموت.

وقوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾. قال قتادة: في قصور محصنة.

قال ابن جرير^(٢): يقول: لا تجزعوا من الموت ولا تهربوا من القتال، وتضعفوا عن لقاء عدوكم، حذرا على أنفسكم من القتل والموت، فإن الموت بإزائكم أين كنتم، وواصل إلى أنفسكم حيث كنتم، ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعة.

(١) أخرجه ابن جرير (١٧١/٥)، بسند ضعيف.

(٢) انظر «جامع البيان» (١٧٢/٥).

وقال عدي بن زيد العبادي في أبياته المشهورة.

من رأيت المنون خلد أم من	ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى كسرى الملوك أنوشر	وان أم أين قبله سابور
وأخو الحضرة إذ بناه وإذ	دجلته تجبى إليه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلساً	فللطير في ذراه وكور
لم يهبه رب المنون فباد	الملك عنه فبابه مهجور

وقال آخر:

أرى الموت لا يبقي عزيزاً ولم يدع	لعاد ملاذاً في البلاد ومربعا
بيت أهل الحصن والحصن مغلق	ويأتي الجبال في شماريخها معا

وقوله تعالى: ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾.

قال البغوي^(١): نزلت في اليهود والمنافقين، وذلك أنهم قالوا لما قدم رسول الله ﷺ المدينة؟ ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾، فقرأ حتى بلغ ﴿وأرسلناك للناس رسولا﴾، قال: إن هذه الآيات نزلت في شأن الحرب فقرأ ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً﴾، فقرأ حتى بلغ ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من﴾ عند محمد عليه السلام، أساء التدبير وأساء النظر، ما أحسن التدبير ولا النظر. ﴿قل كل من عند الله﴾ النصر والهزيمة. وقال ابن عباس: ﴿قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾،

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٦١).

يقول: الحسنة والسيئة من عند الله، أما الحسنة فأنعم بها عليك، وأما السيئة فابتلاك بها.

وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾. قال السدي: من ذنبك. قال قتادة: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يصيب رجلاً خدش عودٍ، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»^(١). قال قتادة: ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ النعم والمصيبات. وعن أبي صالح في قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾. قال: بذنبك، وأنا قدَرْتُها عليك.

قال البغوي^(٢): والخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره نظيره. قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾^(٣).

وقونه تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، أي: على إرسالك، وصدقك، وتبليغك ما أنزل إليك. والله أعلم.



(١) أخرجه ابن جرير (١٧٥/٥)، بسند ضعيف.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٦١).

(٣) سورة الشورى: الآية ٣٠.

الدرس الحادي والستون

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ ٨٠ ﴿وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ٨١ ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ لَوْ جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ٨٢ ﴿فَقُنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَاعْرِضْ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ ٨٣ ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا﴾ ٨٤ ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِنَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ ٨٥ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ فِي يَوْمٍ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ٨٦ ﴿

* * *

قوله عز وجل: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَقَوْلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿٨١﴾ .

في الصحيحين عن النبي ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني»^(١). وعن ابن عباس قوله: ﴿ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ وهم ناس يقولون عند رسول الله ﷺ: آمنا بالله ورسوله، ليأمنوا على دمائهم وأموالهم، وإذا برزوا من عند رسول الله ﷺ خالفوا إلى غير ما قالوا عنده، فعابهم الله فقال: ﴿بيّت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ يقول: يغيرون ما قال النبي ﷺ.

وقال البغوي^(٢): ﴿فإذا برزوا﴾ خرجوا ﴿من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ قال قتادة والكلبي: ﴿بيّت﴾ أي غير وبذل الذي عهد إليهم النبي ﷺ، ويكون التبييت بمعنى التبديل. وقال أبو عبيدة والقتيبي: معناه قالوا وقدروا ليلاً غير ما أعطوك نهاراً، وكل ما قدر بليل فهو ميّت. وقال ابن كثير^(٣): ﴿بيّت طائفة منهم غير الذي تقول﴾، أي: استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه لك.

(١) أخرجه البخاري (ح/٢٩٥٥)، ومسلم (ح/١٨٣٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٦٢).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبْتَغَىٰ، أَي: يحفظه عليهم فيجازيهم.﴾
﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فإنه كافيك ﴿وَكُفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

قوله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢) ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٣) ﴿فَقَلِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (٨٤).

عن الضحاك في قوله: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ قال: يتدبرون النظر فيه.
وقال ابن زيد: إن القرآن لا يكذب بعضه بعضاً، ولا ينقض بعضه بعضاً، ما جهل الناس من أمر فإنما هو من تقصير عقولهم وجهالتهم، وقرأ: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾. وقال قتادة: أي قول الله لا يختلف، وهو حق ليس فيه باطل، وإن قول الناس يختلف.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾. قال السدي يقول: إذا جاءهم أمر أنهم قد أمنوا من عدوهم وأنهم خائفون منهم، أذاعوا بالحديث حتى يبلغ عدوهم أمرهم. ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ يقول: ولو سكتوا وردوا الحديث إلى النبي ﷺ وإلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ، حتى يتكلم هو به، ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ يعني عن الأخبار، وهم الذين ينفرون عن الأخبار. وقال ابن جريج: ﴿ولو ردوه إلى الرسول﴾ حتى يكون هو الذي يخبرهم ﴿وإلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ الفقه في الدين والعقل. وقال مجاهد: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ الذين يسألون عنه ويتحسسونه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ ما تبعتم الشيطان إلا قليلاً. قال قتادة يقول: ﴿لَاتَبِعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ كلکم. وقال الضحاك: هم أصحاب النبي ﷺ، كانوا حدثوا أنفسهم بأمور من أمور الشيطان، إلا طائفة منهم.

وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحِرْضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بِأَسْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾. قال قتادة: أي عقوبة.

قال البغوي^(١): (قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ وذلك «أن النبي ﷺ واعد أبا سفيان بعد حرب أحد، موسم بدر الصغرى في ذي القعدة، فلما بلغ الميعاد، دعا الناس إلى الخروج، فكرهه بعضهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ أي لا تدع جهاد العدو، والاستنصار للمستضعفين من المؤمنين، ولو وحدك، فإن الله قد وعدك النصر. وحرص المؤمنين على القتال»، أي: حضهم على الجهاد ورغبهم في الثواب، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا»، أي: قتال المشركين، وعسى من الله واجب. «والله أشد بأساً» أي أشد صولة وأعظم سلطاناً «وأشد تنكيلاً»، أي: عقوبة). انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا ۖ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِبَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ۝٨٦﴾
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾.

(١) انظر: «معالم التنزيل» (١/٣٦٣).

عن مجاهد في قوله: ﴿من يشفع شفاعه حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعه سيئة يكن له كفل منها﴾ قال: شفاعه بعض الناس لبعض. قال الحسن: ﴿من يشفع شفاعه حسنة﴾ كتب له أجره ما جرت منفعتها. وقال قتادة: ﴿من يشفع شفاعه حسنة يكن له نصيب منها﴾، أي: حفظ منها، ﴿ومن يشفع شفاعه سيئة يكن له كفل منها﴾ والكفل: هو الإثم. وقال ابن عباس: الشفاعه الحسنه هي الإصلاح بين الناس، والشفاعة السيئة هي المشي بالنميمة. وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا جاءه رجل يسأل، أو طالب حاجة، أقبل علينا بوجهه فقال: اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء»^(١). رواه البغوي وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وكان الله على كل شيء مقبلاً﴾ قال مجاهد: شهيداً حسيباً حفيظاً. وقال ابن عباس: المقبيل القدير.

وقوله تعالى: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾. قال السدي: إذا سلم عليك أحد فقل أنت: وعليك السلام ورحمة الله، أو تقطع إلى: السلام عليك كما قال لك. وقال قتادة: ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ للمسلمين، ﴿أو ردوها﴾ على أهل الكتاب.

وقال ابن كثير^(٢): قوله: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾، أي: إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم، فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة. وقال الحسن: السلام تطوع، والرد فريضة.

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٠٢٧ و ٦٠٢٨)، ومسلم (ح/٢٦٢٧).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٣١).

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

قال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ اللام لام القسم، تقديره: والله ليجمعنكم في الموت وفي القبور ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وسميت القيامة قيامة لأن الناس يقومون من قبورهم. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سُرَاعًا﴾^(٢) وقيل: لقيامهم إلى الحساب. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾^(٣)، أي: قولاً ووعداً. والله أعلم.



(١) انظر: «معالم التنزيل» (١/٣٦٥).

(٢) سورة المعارج: الآية ٤٣.

(٣) سورة المطففين: الآية ٦.

الدرس الثاني والستون

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ ٨٨ ﴿ وَدُّوا أَنْ تُكْفُرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنْخِذُوا مِنْهُمْ وَلَا نَصِيرًا ﴾ ٨٩ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُغَنِّبُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ ٩٠ ﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ أَلْسَلَمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ ٩١ ﴿ وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانِ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ٩٢ ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ ٩٣ ﴿

قوله عز وجل: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْبَلُوكُمْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَبَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (٩٠).

عن زيد بن ثابت قال: ذكروا المنافقين عند رسول الله ﷺ فقال فريق: نقتلهم، وقال فريق: لا نقتلهم، فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ إلى آخر الآية^(١). وقال ابن عباس: ﴿والله أركسهم بما كسبوا﴾ أردهم. وقال قتادة: أهلكهم بما عملوا. ﴿أتريدون أن تهتدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً﴾، أي: طريقاً إلى الحق.

وقوله تعالى: ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً﴾. قال السدي: إذا أظهروا كفرهم فاقتلوهم حيث وجدتموهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾. قال

(١) أخرجه البخاري (ح/ ١٨٨٤ و ٤٠٥٠ و ٤٥٨٩)، ومسلم (ح/ ١٣٨٤ و ٢٧٧٦).

السدي: فإن أحد منهم دخل في قوم بينكم وبينهم ميثاق، فأجروا عليه مثل ما تجرون على أهل الذمة.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ صُدُورُهُمْ أَنْ يِقَاتِلُوكُمْ أَوْ يَقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾.

قال ابن جرير^(١): معناه: أو جاءوكم قد حصرت صدورهم. قال السدي: يقول: رجعوا فدخلوا فيكم. ﴿حصرت صدورهم﴾ يقول: ضاقت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمَّ يِقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ عن الربيع. ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم﴾. قال: الصلح. وفي صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية: «فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد وأصحابه وعهدهم»^(٢).

قوله عز وجل: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوا هِمَّتَهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

عن مجاهد. ﴿يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ قال: ناس كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء، فيرجعون إلى قريش فيرتكسون^(٣) في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا.

(١) انظر «جامع البيان» (٥/١٩٨).

(٢) انظر حديث (٤١٨٠ و ٤١٨١).

(٣) في (الأصل): «فيرتكسون» وهو خطأ.

وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مَبِينًا﴾، أي: حجة ظاهرة. قال عكرمة: ما كان في القرآن من سلطان فهو حجة.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانُوا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ٩٣﴾.

عن قتادة: قوله: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ﴾ يقول: ما كان له ذلك فيما أتاه من ربه من عهد الله الذي عهد إليه.

قال ابن جرير^(١): وأما قوله: ﴿إلا خطأ﴾ فإنه يقول: إلا أن المؤمن قد يقتل المؤمن خطأ، وليس له مما جعل ربه، وهذا من الاستثناء الذي تسميه أهل العربية: الاستثناء المنقطع. قال عكرمة: «كان الحارث بن يزيد بن نبيشة من بني عامر بن لؤي، يعذب عياش بن أبي ربيعة مع أبي جهل، ثم خرج الحارث بن يزيد مهاجراً إلى النبي ﷺ، فلقبه عياش بالحرّة، فعلاه بالسيف حتى سكت، وهو يحسب أنه كافر، ثم جاء إلى النبي ﷺ فأخبر، ونزلت ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل إلا خطأ﴾ الآية، فقرأها عليه ثم قال: قم فحرره»^(٢).

(١) انظر «جامع البيان» (٢٠٣/٥).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٠٤/٥) عن عكرمة مرسلًا.

وقال الشعبي في قوله: ﴿فَتَحْرِيرَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً﴾ قال: قد صَلَّتْ وعرفت الإيمان. وقال عطاء: كل رقبة ولدت في الإسلام فهي تجزي.

قال ابن جرير^(١): وأما الدية المسلمة إلى أهل القتل فهي المدفوعة إليهم على ما وجب لهم، موفرة غير منقصة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً﴾. قال إبراهيم: هو الرجل يسلم في دار الحرب فيقتل، قال: ليس فيه دية وفيه الكفارة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾. قال إبراهيم: هذا الرجل المسلم، وقومه مشركون لهم عقد، فتكن ديته لقومه، وميراثه للمسلمين، ويعقل عنه قومه ولهم ديته. وقال ابن عباس: يقول: إذا كان كافراً في ذمتكم، فعلى قاتله الدية، مسلمة إلى أهله، وتحرير رقبة مؤمنة، أو صيام شهرين متتابعين.

قال ابن كثير^(٢): وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ الآية، أي: فإن كان القتل أولياؤه أهل ذمة، أو هدنة، فلهم دية قتلهم، فإن كان مؤمناً فدية كاملة، وكذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء. وقيل: يجب في الكافر نصف دية المسلم، وقيل: ثلثها. ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنْ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

(١) المصدر السابق (٢٠٦/٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٣٥).

قال ابن كثير^(١): ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين﴾، أي: لا إفتار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر استأنف.

وقوله: ﴿توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً﴾، أي: هذه توبة القاتل خطأ، إذ لم يجد العتق صام شهرين متتابعين.

وقوله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾. قال عطاء: العمد السلاح. وقال إبراهيم: إذا خنقه بحبل حتى يموت، أو ضربه بخشبة حتى يموت فهو القود. وقال طاوس: من قتل في عصبية في رمي يكون منهم بحجارة، أو جلد بالسياط أو ضرب بالعصي، فهو خطأ دية الخطأ، ومن قتل عمداً فهو قود يديه. قال ابن عباس: أكبر الكبائر الإشراف بالله، وقتل النفس التي حرم الله، لأن الله سبحانه يقول: ﴿فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾. وقال أبو صالح في قوله: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم﴾. قال: جزاؤه أن جازاه خلده في النار، وإن شاء غفر له. وقد قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾^(٢).

وقال الشيخ ابن سعدي: (وأحسن ما يقال أن ذكر الخلود على بعض الذنوب التي دون الشرك والكفر، أنها من باب ذكر السبب، وأنها سبب لخلود في النار لشفاعتها، وأنها بذاتها توجب الخلود إذا لم يمنع من الخلود مانع، ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام، أن الإيمان مانع من الخلود، فتتزل هذه النصوص على الأصل المشهور، وهو أنه لا تتم الأحكام إلاً بوجود شروطها وأسبابها وانتفاء موانعها، وهذا واضح والله الحمد). انتهى.

(١) المصدر السابق (١/٥٣٥).

(٢) سورة النساء: الآيتان ٤٨ و ١١٦.

قال ابن كثير^(١): فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك، وهي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها لتقوية الرجاء. والله أعلم. وثبت في الصحيحين: «خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ثم سأل عالماً: هل لي من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه، فهاجر إليه فمات في الطريق، فقبضته ملائكة الرحمة»^(٢).

قال: واختلف الأئمة: هل تجب عليه كفارة؟ على قولين: فالشافعي وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون: نعم؛ لأنه إذا وجبت عليه الكفارة في الخطأ، فلأن تجب عليه في العمد أولى. وقال أصحاب الإمام أحمد وآخرون: قتل العمد أعظم من أن يكفر، فلا كفارة فيه. وقد احتج من ذهب إلى وجوب الكفارة في قتل العمد، بما رواه الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع قال: «أتى النبي ﷺ نفر من بني سليم فقالوا: إن صاحباً لنا قد أوجب. قال: فليعتق رقبة، يفدي الله بكل عضو منها عضواً منه من النار». وفي رواية أبي داود: «أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا قد أوجب - يعني النار بالقتل - . فقال: أعتقوا عنه، يعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار»^(٣) انتهى ملخصاً. والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٣٤٧٠)، ومسلم (ح/٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) أخرجه أحمد (٣/٤٩١ و ١٠٧/٤)، وأبو داود (ح/٣٩٦٤)، وفي سنده ضعف، لكن له شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من أعتق رقبة مؤمنة، أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار، حتى فرجه بفرجه»، أخرجه البخاري (ح/٦٧١٥)، ومسلم (ح/١٠٥٩).

الدرس الثالث والستون

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَرَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَا يَسْتَوِ الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافَعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَّتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ يُعَمِّلُ خَيْرًا ﴿٩٤﴾﴾.

عن ابن عباس قال: لحق ناس من الناس رجلاً في غنيمة له فقال: السلام عليكم فقتلوه وأخذوا تلك الغنيمة، فنزلت هذه الآية: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾، تلك الغنيمة.

وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿كذلك كنتم من قبل﴾، تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعي بإيمانه، ﴿فمن الله عليكم﴾، فأظهر الإسلام ﴿فتبينوا﴾، قال ابن جرير^(١): يقول: فتأنوا في قتل من أشكل عليكم أمره، فلم تعلموا حقيقة إسلامه ولا كفره.

قوله عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

عن زيد بن ثابت: «أن رسول الله ﷺ أنزل عليه: ﴿لا يستوي القاعدون من

(١) انظر «جامع البيان» (٥/٢٢٠).

المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ﴿٩٧﴾، قال: فجاء ابن أم مكتوم وهو يملئها عليّ فقال: يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، قال: فأنزل عليه، وفخذه على فخذي فنقلت، فظننت أن ترضّ فخذي، ثم سرّي عنه فقال: ﴿٩٨﴾ غير أولي الضرر ﴿٩٩﴾، رواه ابن جرير وغيره.

وقوله تعالى: ﴿١٠٠﴾ فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴿١٠١﴾، قال ابن جريج: على أهل الضرر، ﴿١٠٢﴾ وكلا وعد الله الحسنى ﴿١٠٣﴾، قال قتادة: هي الجنة، ﴿١٠٤﴾ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴿١٠٥﴾، في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» ﴿١٠٦﴾.

قوله عز وجل: ﴿١٠٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٠٨﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٠٩﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمِثْ فِي الْأَرْضِ مُرْغَمَا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١١﴾.

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٥٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٢٧٩٠، ٧٤٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه وأخرجه مسلم (ح/١٨٨٤) عن أبي سعيد رضي الله عنه، وقد وهم ابن كثير — رحمه الله — وتبعه المؤلف — رحمه الله — حيث وهما أن البخاري أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال ابن عباس: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كانوا أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ، قَالُوا: فِيمَ كُنْتُمْ...﴾ الآية، وقال: «كنت أنا وأمي ممن عذر الله»^(١).

قال البغوي^(٢): ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة، فقال النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»^(٣).

وقال ابن كثير^(٤): هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهرائي المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع، ونص هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مِرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، قال قتادة: لما أنزل الله هؤلاء الآيات، ورجل من المؤمنين يقال له ضمرة بمكة، قال: والله إن لي من المال ما يبلغني المدينة وأبعد منها، وأني لأهتدي، أخرجوني — وهو مريض حينئذ — فلما جاوز المحرم قبضه الله فمات، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ...﴾ الآية، وقال ابن عباس في قوله: ﴿مِرَاغِمًا كَثِيرًا﴾، المراغم: التحول من أرض إلى

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣٤/٥) بسند صحيح، وقول ابن عباس: «كنت أنا وأمي...» أخرجه البخاري (٤٥٨٨/ح).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣٧٤/١).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٨٩/ح)، ومسلم (١٣٥٣/ح) حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٤٢/١).

أرض، وقال مجاهد: متزحزحاً عما يكره، وقال السدي: مبتغي^(١) للمعيشة، وقال قتادة: ﴿يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾، أي: والله، من الضلالة إلى الهدى، ومن العيلة إلى الغنى.

قال البغوي^(٢): وقال أبو عبيدة: المراغم المهاجر، يقال راغمت قومي وهاجرتهم، وهو المضطرب والمذهب، قيل: سميت المهاجرة مراغمة؛ لأن من يهاجر يراغم قومه، ﴿وسعة﴾، أي: في الرزق، وبالله التوفيق.



(١) في (الأصل): «وينبغي»، وهو خطأ.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٧٤).

الدرس الرابع والستون

﴿ وَإِذَا ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ (١٠١) وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ (١٠٣) وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٠٤)

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ۖ﴾.

عن يعلى بن أمية قال: «قلت لعمر بن الخطاب: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ وقد أمن الناس! فقال: عجبت مما عجبت حتى سألت النبي ﷺ عن ذلك فقال: صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»^(١). رواه ابن جرير وغيره.

وعن مجاهد عن أبي عياش الزرقى قال: «كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، وعلى المشركين خالد بن الوليد، قال: فصلينا الظهر، فقال المشركون: كانوا على حال لو أردنا لأصبنا غرة لأصبنا غفلة. فأنزلت آية القصر بين الظهر والعصر، فأخذ الناس السلاح وصفوا خلف رسول الله ﷺ مستقبلي القبلة، والمشركون مستقبلهم، فكبر رسول الله ﷺ وكبروا جميعاً، ثم ركع وركعوا جميعاً، ثم رفع رأسه ورفعوا جميعاً، ثم سجد وسجد الصف الذي يليه وقام الآخرون يحرسونهم، فلما فرغ هؤلاء من سجودهم سجد هؤلاء، ثم نكص الصف الذي يليه وتقدم الآخرون فقاموا في مقامهم، فركع رسول الله ﷺ فركعوا جميعاً، ثم رفع رأسه فرفعوا جميعاً، ثم سجد وسجد الصف الذي يليه وقام الآخرون يحرسونهم، فلما فرغ هؤلاء من سجودهم سجد هؤلاء الآخرون، ثم استوا معه فقعدوا جميعاً، ثم سلم عليهم جميعاً. فصلاها بعسفان، وصلاها يوم بني سليم»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (ح/٦٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٥٩، و ٦٠)، وأبو داود (ح/١١٣٦)، والنسائي (المجتبى) (٣/١٧٧ و ١٧٨)، وأيضاً في الكبرى (١/٥٩٦ و ٥٩٧)، وابن حبان - كما في الإحسان - (٧/١٢٦) والحاكم (١/٤٨٧ و ٤٨٨)، وصححه ووافقه الذهبي، وهو كما قال.

وعن ابن عباس قال: «فرض الله الصلاة على لسان نبيكم عليه السلام في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة»^(١) وقال أيضاً: قصر الصلاة إن لقيت العدو وقد حانت الصلاة: أن تكبر الله، وتخضع رأسك إيماء، راكباً كنت أو ماشياً.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾.

عن صالح بن خوات عن عمن صلى مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف يوم ذات الرقاع: «أن طائفة صلت مع رسول الله ﷺ، وطائفة وجاه العدو، فصلّى بالذين معه ركعة، ثم ثبت قائماً فأتوا لأنفسهم، ثم جاءت الطائفة الأخرى فصلّى بهم الركعة التي بقيت، ثم ثبت جالساً فأتوا لأنفسهم»^(٢). متفق عليه. قال الإمام أحمد: صحّت صلاة الخوف عن النبي ﷺ ست صفات أو سبع، كلها جائزة، وكان يعجبه هذا الحديث لأنه موافق للآية.

(١) أخرجه مسلم (ح/٦٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤١٢٩)، ومسلم (ح/٨٤٢).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾. عن مجاهد في قوله: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال: أتموها. وعن عطية العوفي في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ قال: فريضة مفروضة. وقال ابن مسعود: إن للصلاة وقتاً كوقت الحج. وعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ: «أن سائلاً أتاه فسأله عن مواقيت الصلاة قال: فلم يرد عليه شيئاً، ثم أمر بلالاً فأذن، ثم أمره فأقام الصلاة حين انشق الفجر فصلّى، ثم أمره فأقام الظهر، والقائل يقول: قد زالت الشمس أو لم تزل وهو كان أعلم منهم، ثم أمره فأقام العصر والشمس مرتفعة بيضاء نقية، ثم أمره فأقام المغرب حتى غابت الشمس، ثم أمره فأقام العشاء حين سقط الشفق. وقال: وصلّى الفجر من الغد والقائل يقول: طلعت الشمس ولم تطلع، وصلّى الظهر قريباً من وقت العصر بالأمس، وصلّى العصر والقائل يقول: قد احمرت الشمس، وصلّى المغرب قبل أن يغيب الشفق، وصلّى العشاء بعد ما ذهب ثلث الليل الأول. ثم قال: أين السائل عن وقت الصلاة؟ فقال: الرجل: أنا يا رسول الله. قال: ما بين هذا الوقتين وقت»^(١). رواه البغوي وغيره.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۚ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَلِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

قال قتادة يقول: لا تضعفوا في طلب القوم، فإنكم إن تكونوا تتجعون فإنهم يتجعون كما تتجعون ﴿وترجون من الله﴾ من الأجر والثواب ﴿ما لا يرجون﴾.

(١) أخرجه مسلم (ح/٦١٤)، والبغوي (١/٣٧٩ - ٣٨٠).

وقال البغوي^(١): قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ الآية، سبب نزولها: أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا يوم أحد، بعث رسول الله ﷺ طائفة في آثارهم، فشكوا ألم الجراحات، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي لا تضعفوا في طلب القوم: أبي سفيان وأصحابه: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾ تتوجعون من الجراح^(٢) ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾ أي يتوجعون يعني: الكفار ﴿كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي وأنتم مع ذلك تأملون من الأجر والثواب في الآخرة، والنصر في الدنيا ما لا يرجون^(٣).

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

قال ابن كثير^(٤): أي هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه وينفذه ويمضيه، من أحكامه الكونية والشرعية، وهو المحمود على كل حال. والله أعلم.



(١) انظر «معالم التنزيل» (١/ ٣٨٠).

(٢) في (الأصل): «من الحرج»، وهو خطأ.

(٣) في (الأصل): «ما لا يرجعون»، وهو خطأ.

(٤) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٥٥٠).

الدرس الخامس والستون

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَتَحَكَّمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٠٦ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَالُونَ أَنفُسُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝١٠٧ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝١٠٨ هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝١٠٩ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١١٠ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١١ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۝١١٢ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١١٤ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥ ۝١١٦ ۝١١٧ ۝١١٨ ۝١١٩ ۝١٢٠ ۝١٢١ ۝١٢٢ ۝١٢٣ ۝١٢٤ ۝١٢٥ ۝١٢٦ ۝١٢٧ ۝١٢٨ ۝١٢٩ ۝١٣٠ ۝١٣١ ۝١٣٢ ۝١٣٣ ۝١٣٤ ۝١٣٥ ۝١٣٦ ۝١٣٧ ۝١٣٨ ۝١٣٩ ۝١٤٠ ۝١٤١ ۝١٤٢ ۝١٤٣ ۝١٤٤ ۝١٤٥ ۝١٤٦ ۝١٤٧ ۝١٤٨ ۝١٤٩ ۝١٥٠ ۝١٥١ ۝١٥٢ ۝١٥٣ ۝١٥٤ ۝١٥٥ ۝١٥٦ ۝١٥٧ ۝١٥٨ ۝١٥٩ ۝١٦٠ ۝١٦١ ۝١٦٢ ۝١٦٣ ۝١٦٤ ۝١٦٥ ۝١٦٦ ۝١٦٧ ۝١٦٨ ۝١٦٩ ۝١٧٠ ۝١٧١ ۝١٧٢ ۝١٧٣ ۝١٧٤ ۝١٧٥ ۝١٧٦ ۝١٧٧ ۝١٧٨ ۝١٧٩ ۝١٨٠ ۝١٨١ ۝١٨٢ ۝١٨٣ ۝١٨٤ ۝١٨٥ ۝١٨٦ ۝١٨٧ ۝١٨٨ ۝١٨٩ ۝١٩٠ ۝١٩١ ۝١٩٢ ۝١٩٣ ۝١٩٤ ۝١٩٥ ۝١٩٦ ۝١٩٧ ۝١٩٨ ۝١٩٩ ۝٢٠٠ ۝٢٠١ ۝٢٠٢ ۝٢٠٣ ۝٢٠٤ ۝٢٠٥ ۝٢٠٦ ۝٢٠٧ ۝٢٠٨ ۝٢٠٩ ۝٢١٠ ۝٢١١ ۝٢١٢ ۝٢١٣ ۝٢١٤ ۝٢١٥ ۝٢١٦ ۝٢١٧ ۝٢١٨ ۝٢١٩ ۝٢٢٠ ۝٢٢١ ۝٢٢٢ ۝٢٢٣ ۝٢٢٤ ۝٢٢٥ ۝٢٢٦ ۝٢٢٧ ۝٢٢٨ ۝٢٢٩ ۝٢٣٠ ۝٢٣١ ۝٢٣٢ ۝٢٣٣ ۝٢٣٤ ۝٢٣٥ ۝٢٣٦ ۝٢٣٧ ۝٢٣٨ ۝٢٣٩ ۝٢٤٠ ۝٢٤١ ۝٢٤٢ ۝٢٤٣ ۝٢٤٤ ۝٢٤٥ ۝٢٤٦ ۝٢٤٧ ۝٢٤٨ ۝٢٤٩ ۝٢٥٠ ۝٢٥١ ۝٢٥٢ ۝٢٥٣ ۝٢٥٤ ۝٢٥٥ ۝٢٥٦ ۝٢٥٧ ۝٢٥٨ ۝٢٥٩ ۝٢٦٠ ۝٢٦١ ۝٢٦٢ ۝٢٦٣ ۝٢٦٤ ۝٢٦٥ ۝٢٦٦ ۝٢٦٧ ۝٢٦٨ ۝٢٦٩ ۝٢٧٠ ۝٢٧١ ۝٢٧٢ ۝٢٧٣ ۝٢٧٤ ۝٢٧٥ ۝٢٧٦ ۝٢٧٧ ۝٢٧٨ ۝٢٧٩ ۝٢٨٠ ۝٢٨١ ۝٢٨٢ ۝٢٨٣ ۝٢٨٤ ۝٢٨٥ ۝٢٨٦ ۝٢٨٧ ۝٢٨٨ ۝٢٨٩ ۝٢٩٠ ۝٢٩١ ۝٢٩٢ ۝٢٩٣ ۝٢٩٤ ۝٢٩٥ ۝٢٩٦ ۝٢٩٧ ۝٢٩٨ ۝٢٩٩ ۝٣٠٠ ۝٣٠١ ۝٣٠٢ ۝٣٠٣ ۝٣٠٤ ۝٣٠٥ ۝٣٠٦ ۝٣٠٧ ۝٣٠٨ ۝٣٠٩ ۝٣١٠ ۝٣١١ ۝٣١٢ ۝٣١٣ ۝٣١٤ ۝٣١٥ ۝٣١٦ ۝٣١٧ ۝٣١٨ ۝٣١٩ ۝٣٢٠ ۝٣٢١ ۝٣٢٢ ۝٣٢٣ ۝٣٢٤ ۝٣٢٥ ۝٣٢٦ ۝٣٢٧ ۝٣٢٨ ۝٣٢٩ ۝٣٣٠ ۝٣٣١ ۝٣٣٢ ۝٣٣٣ ۝٣٣٤ ۝٣٣٥ ۝٣٣٦ ۝٣٣٧ ۝٣٣٨ ۝٣٣٩ ۝٣٤٠ ۝٣٤١ ۝٣٤٢ ۝٣٤٣ ۝٣٤٤ ۝٣٤٥ ۝٣٤٦ ۝٣٤٧ ۝٣٤٨ ۝٣٤٩ ۝٣٥٠ ۝٣٥١ ۝٣٥٢ ۝٣٥٣ ۝٣٥٤ ۝٣٥٥ ۝٣٥٦ ۝٣٥٧ ۝٣٥٨ ۝٣٥٩ ۝٣٦٠ ۝٣٦١ ۝٣٦٢ ۝٣٦٣ ۝٣٦٤ ۝٣٦٥ ۝٣٦٦ ۝٣٦٧ ۝٣٦٨ ۝٣٦٩ ۝٣٧٠ ۝٣٧١ ۝٣٧٢ ۝٣٧٣ ۝٣٧٤ ۝٣٧٥ ۝٣٧٦ ۝٣٧٧ ۝٣٧٨ ۝٣٧٩ ۝٣٨٠ ۝٣٨١ ۝٣٨٢ ۝٣٨٣ ۝٣٨٤ ۝٣٨٥ ۝٣٨٦ ۝٣٨٧ ۝٣٨٨ ۝٣٨٩ ۝٣٩٠ ۝٣٩١ ۝٣٩٢ ۝٣٩٣ ۝٣٩٤ ۝٣٩٥ ۝٣٩٦ ۝٣٩٧ ۝٣٩٨ ۝٣٩٩ ۝٤٠٠ ۝٤٠١ ۝٤٠٢ ۝٤٠٣ ۝٤٠٤ ۝٤٠٥ ۝٤٠٦ ۝٤٠٧ ۝٤٠٨ ۝٤٠٩ ۝٤١٠ ۝٤١١ ۝٤١٢ ۝٤١٣ ۝٤١٤ ۝٤١٥ ۝٤١٦ ۝٤١٧ ۝٤١٨ ۝٤١٩ ۝٤٢٠ ۝٤٢١ ۝٤٢٢ ۝٤٢٣ ۝٤٢٤ ۝٤٢٥ ۝٤٢٦ ۝٤٢٧ ۝٤٢٨ ۝٤٢٩ ۝٤٣٠ ۝٤٣١ ۝٤٣٢ ۝٤٣٣ ۝٤٣٤ ۝٤٣٥ ۝٤٣٦ ۝٤٣٧ ۝٤٣٨ ۝٤٣٩ ۝٤٤٠ ۝٤٤١ ۝٤٤٢ ۝٤٤٣ ۝٤٤٤ ۝٤٤٥ ۝٤٤٦ ۝٤٤٧ ۝٤٤٨ ۝٤٤٩ ۝٤٥٠ ۝٤٥١ ۝٤٥٢ ۝٤٥٣ ۝٤٥٤ ۝٤٥٥ ۝٤٥٦ ۝٤٥٧ ۝٤٥٨ ۝٤٥٩ ۝٤٦٠ ۝٤٦١ ۝٤٦٢ ۝٤٦٣ ۝٤٦٤ ۝٤٦٥ ۝٤٦٦ ۝٤٦٧ ۝٤٦٨ ۝٤٦٩ ۝٤٧٠ ۝٤٧١ ۝٤٧٢ ۝٤٧٣ ۝٤٧٤ ۝٤٧٥ ۝٤٧٦ ۝٤٧٧ ۝٤٧٨ ۝٤٧٩ ۝٤٨٠ ۝٤٨١ ۝٤٨٢ ۝٤٨٣ ۝٤٨٤ ۝٤٨٥ ۝٤٨٦ ۝٤٨٧ ۝٤٨٨ ۝٤٨٩ ۝٤٩٠ ۝٤٩١ ۝٤٩٢ ۝٤٩٣ ۝٤٩٤ ۝٤٩٥ ۝٤٩٦ ۝٤٩٧ ۝٤٩٨ ۝٤٩٩ ۝٥٠٠ ۝٥٠١ ۝٥٠٢ ۝٥٠٣ ۝٥٠٤ ۝٥٠٥ ۝٥٠٦ ۝٥٠٧ ۝٥٠٨ ۝٥٠٩ ۝٥١٠ ۝٥١١ ۝٥١٢ ۝٥١٣ ۝٥١٤ ۝٥١٥ ۝٥١٦ ۝٥١٧ ۝٥١٨ ۝٥١٩ ۝٥٢٠ ۝٥٢١ ۝٥٢٢ ۝٥٢٣ ۝٥٢٤ ۝٥٢٥ ۝٥٢٦ ۝٥٢٧ ۝٥٢٨ ۝٥٢٩ ۝٥٣٠ ۝٥٣١ ۝٥٣٢ ۝٥٣٣ ۝٥٣٤ ۝٥٣٥ ۝٥٣٦ ۝٥٣٧ ۝٥٣٨ ۝٥٣٩ ۝٥٤٠ ۝٥٤١ ۝٥٤٢ ۝٥٤٣ ۝٥٤٤ ۝٥٤٥ ۝٥٤٦ ۝٥٤٧ ۝٥٤٨ ۝٥٤٩ ۝٥٥٠ ۝٥٥١ ۝٥٥٢ ۝٥٥٣ ۝٥٥٤ ۝٥٥٥ ۝٥٥٦ ۝٥٥٧ ۝٥٥٨ ۝٥٥٩ ۝٥٦٠ ۝٥٦١ ۝٥٦٢ ۝٥٦٣ ۝٥٦٤ ۝٥٦٥ ۝٥٦٦ ۝٥٦٧ ۝٥٦٨ ۝٥٦٩ ۝٥٧٠ ۝٥٧١ ۝٥٧٢ ۝٥٧٣ ۝٥٧٤ ۝٥٧٥ ۝٥٧٦ ۝٥٧٧ ۝٥٧٨ ۝٥٧٩ ۝٥٨٠ ۝٥٨١ ۝٥٨٢ ۝٥٨٣ ۝٥٨٤ ۝٥٨٥ ۝٥٨٦ ۝٥٨٧ ۝٥٨٨ ۝٥٨٩ ۝٥٩٠ ۝٥٩١ ۝٥٩٢ ۝٥٩٣ ۝٥٩٤ ۝٥٩٥ ۝٥٩٦ ۝٥٩٧ ۝٥٩٨ ۝٥٩٩ ۝٦٠٠ ۝٦٠١ ۝٦٠٢ ۝٦٠٣ ۝٦٠٤ ۝٦٠٥ ۝٦٠٦ ۝٦٠٧ ۝٦٠٨ ۝٦٠٩ ۝٦١٠ ۝٦١١ ۝٦١٢ ۝٦١٣ ۝٦١٤ ۝٦١٥ ۝٦١٦ ۝٦١٧ ۝٦١٨ ۝٦١٩ ۝٦٢٠ ۝٦٢١ ۝٦٢٢ ۝٦٢٣ ۝٦٢٤ ۝٦٢٥ ۝٦٢٦ ۝٦٢٧ ۝٦٢٨ ۝٦٢٩ ۝٦٣٠ ۝٦٣١ ۝٦٣٢ ۝٦٣٣ ۝٦٣٤ ۝٦٣٥ ۝٦٣٦ ۝٦٣٧ ۝٦٣٨ ۝٦٣٩ ۝٦٤٠ ۝٦٤١ ۝٦٤٢ ۝٦٤٣ ۝٦٤٤ ۝٦٤٥ ۝٦٤٦ ۝٦٤٧ ۝٦٤٨ ۝٦٤٩ ۝٦٥٠ ۝٦٥١ ۝٦٥٢ ۝٦٥٣ ۝٦٥٤ ۝٦٥٥ ۝٦٥٦ ۝٦٥٧ ۝٦٥٨ ۝٦٥٩ ۝٦٦٠ ۝٦٦١ ۝٦٦٢ ۝٦٦٣ ۝٦٦٤ ۝٦٦٥ ۝٦٦٦ ۝٦٦٧ ۝٦٦٨ ۝٦٦٩ ۝٦٧٠ ۝٦٧١ ۝٦٧٢ ۝٦٧٣ ۝٦٧٤ ۝٦٧٥ ۝٦٧٦ ۝٦٧٧ ۝٦٧٨ ۝٦٧٩ ۝٦٨٠ ۝٦٨١ ۝٦٨٢ ۝٦٨٣ ۝٦٨٤ ۝٦٨٥ ۝٦٨٦ ۝٦٨٧ ۝٦٨٨ ۝٦٨٩ ۝٦٩٠ ۝٦٩١ ۝٦٩٢ ۝٦٩٣ ۝٦٩٤ ۝٦٩٥ ۝٦٩٦ ۝٦٩٧ ۝٦٩٨ ۝٦٩٩ ۝٧٠٠ ۝٧٠١ ۝٧٠٢ ۝٧٠٣ ۝٧٠٤ ۝٧٠٥ ۝٧٠٦ ۝٧٠٧ ۝٧٠٨ ۝٧٠٩ ۝٧١٠ ۝٧١١ ۝٧١٢ ۝٧١٣ ۝٧١٤ ۝٧١٥ ۝٧١٦ ۝٧١٧ ۝٧١٨ ۝٧١٩ ۝٧٢٠ ۝٧٢١ ۝٧٢٢ ۝٧٢٣ ۝٧٢٤ ۝٧٢٥ ۝٧٢٦ ۝٧٢٧ ۝٧٢٨ ۝٧٢٩ ۝٧٣٠ ۝٧٣١ ۝٧٣٢ ۝٧٣٣ ۝٧٣٤ ۝٧٣٥ ۝٧٣٦ ۝٧٣٧ ۝٧٣٨ ۝٧٣٩ ۝٧٤٠ ۝٧٤١ ۝٧٤٢ ۝٧٤٣ ۝٧٤٤ ۝٧٤٥ ۝٧٤٦ ۝٧٤٧ ۝٧٤٨ ۝٧٤٩ ۝٧٥٠ ۝٧٥١ ۝٧٥٢ ۝٧٥٣ ۝٧٥٤ ۝٧٥٥ ۝٧٥٦ ۝٧٥٧ ۝٧٥٨ ۝٧٥٩ ۝٧٦٠ ۝٧٦١ ۝٧٦٢ ۝٧٦٣ ۝٧٦٤ ۝٧٦٥ ۝٧٦٦ ۝٧٦٧ ۝٧٦٨ ۝٧٦٩ ۝٧٧٠ ۝٧٧١ ۝٧٧٢ ۝٧٧٣ ۝٧٧٤ ۝٧٧٥ ۝٧٧٦ ۝٧٧٧ ۝٧٧٨ ۝٧٧٩ ۝٧٨٠ ۝٧٨١ ۝٧٨٢ ۝٧٨٣ ۝٧٨٤ ۝٧٨٥ ۝٧٨٦ ۝٧٨٧ ۝٧٨٨ ۝٧٨٩ ۝٧٩٠ ۝٧٩١ ۝٧٩٢ ۝٧٩٣ ۝٧٩٤ ۝٧٩٥ ۝٧٩٦ ۝٧٩٧ ۝٧٩٨ ۝٧٩٩ ۝٨٠٠ ۝٨٠١ ۝٨٠٢ ۝٨٠٣ ۝٨٠٤ ۝٨٠٥ ۝٨٠٦ ۝٨٠٧ ۝٨٠٨ ۝٨٠٩ ۝٨١٠ ۝٨١١ ۝٨١٢ ۝٨١٣ ۝٨١٤ ۝٨١٥ ۝٨١٦ ۝٨١٧ ۝٨١٨ ۝٨١٩ ۝٨٢٠ ۝٨٢١ ۝٨٢٢ ۝٨٢٣ ۝٨٢٤ ۝٨٢٥ ۝٨٢٦ ۝٨٢٧ ۝٨٢٨ ۝٨٢٩ ۝٨٣٠ ۝٨٣١ ۝٨٣٢ ۝٨٣٣ ۝٨٣٤ ۝٨٣٥ ۝٨٣٦ ۝٨٣٧ ۝٨٣٨ ۝٨٣٩ ۝٨٤٠ ۝٨٤١ ۝٨٤٢ ۝٨٤٣ ۝٨٤٤ ۝٨٤٥ ۝٨٤٦ ۝٨٤٧ ۝٨٤٨ ۝٨٤٩ ۝٨٥٠ ۝٨٥١ ۝٨٥٢ ۝٨٥٣ ۝٨٥٤ ۝٨٥٥ ۝٨٥٦ ۝٨٥٧ ۝٨٥٨ ۝٨٥٩ ۝٨٦٠ ۝٨٦١ ۝٨٦٢ ۝٨٦٣ ۝٨٦٤ ۝٨٦٥ ۝٨٦٦ ۝٨٦٧ ۝٨٦٨ ۝٨٦٩ ۝٨٧٠ ۝٨٧١ ۝٨٧٢ ۝٨٧٣ ۝٨٧٤ ۝٨٧٥ ۝٨٧٦ ۝٨٧٧ ۝٨٧٨ ۝٨٧٩ ۝٨٨٠ ۝٨٨١ ۝٨٨٢ ۝٨٨٣ ۝٨٨٤ ۝٨٨٥ ۝٨٨٦ ۝٨٨٧ ۝٨٨٨ ۝٨٨٩ ۝٨٩٠ ۝٨٩١ ۝٨٩٢ ۝٨٩٣ ۝٨٩٤ ۝٨٩٥ ۝٨٩٦ ۝٨٩٧ ۝٨٩٨ ۝٨٩٩ ۝٩٠٠ ۝٩٠١ ۝٩٠٢ ۝٩٠٣ ۝٩٠٤ ۝٩٠٥ ۝٩٠٦ ۝٩٠٧ ۝٩٠٨ ۝٩٠٩ ۝٩١٠ ۝٩١١ ۝٩١٢ ۝٩١٣ ۝٩١٤ ۝٩١٥ ۝٩١٦ ۝٩١٧ ۝٩١٨ ۝٩١٩ ۝٩٢٠ ۝٩٢١ ۝٩٢٢ ۝٩٢٣ ۝٩٢٤ ۝٩٢٥ ۝٩٢٦ ۝٩٢٧ ۝٩٢٨ ۝٩٢٩ ۝٩٣٠ ۝٩٣١ ۝٩٣٢ ۝٩٣٣ ۝٩٣٤ ۝٩٣٥ ۝٩٣٦ ۝٩٣٧ ۝٩٣٨ ۝٩٣٩ ۝٩٤٠ ۝٩٤١ ۝٩٤٢ ۝٩٤٣ ۝٩٤٤ ۝٩٤٥ ۝٩٤٦ ۝٩٤٧ ۝٩٤٨ ۝٩٤٩ ۝٩٥٠ ۝٩٥١ ۝٩٥٢ ۝٩٥٣ ۝٩٥٤ ۝٩٥٥ ۝٩٥٦ ۝٩٥٧ ۝٩٥٨ ۝٩٥٩ ۝٩٦٠ ۝٩٦١ ۝٩٦٢ ۝٩٦٣ ۝٩٦٤ ۝٩٦٥ ۝٩٦٦ ۝٩٦٧ ۝٩٦٨ ۝٩٦٩ ۝٩٧٠ ۝٩٧١ ۝٩٧٢ ۝٩٧٣ ۝٩٧٤ ۝٩٧٥ ۝٩٧٦ ۝٩٧٧ ۝٩٧٨ ۝٩٧٩ ۝٩٨٠ ۝٩٨١ ۝٩٨٢ ۝٩٨٣ ۝٩٨٤ ۝٩٨٥ ۝٩٨٦ ۝٩٨٧ ۝٩٨٨ ۝٩٨٩ ۝٩٩٠ ۝٩٩١ ۝٩٩٢ ۝٩٩٣ ۝٩٩٤ ۝٩٩٥ ۝٩٩٦ ۝٩٩٧ ۝٩٩٨ ۝٩٩٩ ۝١٠٠٠ ۝١٠٠١ ۝١٠٠٢ ۝١٠٠٣ ۝١٠٠٤ ۝١٠٠٥ ۝١٠٠٦ ۝١٠٠٧ ۝١٠٠٨ ۝١٠٠٩ ۝١٠١٠ ۝١٠١١ ۝١٠١٢ ۝١٠١٣ ۝١٠١٤ ۝١٠١٥ ۝١٠١٦ ۝١٠١٧ ۝١٠١٨ ۝١٠١٩ ۝١٠٢٠ ۝١٠٢١ ۝١٠٢٢ ۝١٠٢٣ ۝١٠٢٤ ۝١٠٢٥ ۝١٠٢٦ ۝١٠٢٧ ۝١٠٢٨ ۝١٠٢٩ ۝١٠٣٠ ۝١٠٣١ ۝١٠٣٢ ۝١٠٣٣ ۝١٠٣٤ ۝١٠٣٥ ۝١٠٣٦ ۝١٠٣٧ ۝١٠٣٨ ۝١٠٣٩ ۝١٠٤٠ ۝١٠٤١ ۝١٠٤٢ ۝١٠٤٣ ۝١٠٤٤ ۝١٠٤٥ ۝١٠٤٦ ۝١٠٤٧ ۝١٠٤٨ ۝١٠٤٩ ۝١٠٥٠ ۝١٠٥١ ۝١٠٥٢ ۝١٠٥٣ ۝١٠٥٤ ۝١٠٥٥ ۝١٠٥٦ ۝١٠٥٧ ۝١٠٥٨ ۝١٠٥٩ ۝١٠٦٠ ۝١٠٦١ ۝١٠٦٢ ۝١٠٦٣ ۝١٠٦٤ ۝١٠٦٥ ۝١٠٦٦ ۝١٠٦٧ ۝١٠٦٨ ۝١٠٦٩ ۝١٠٧٠ ۝١٠٧١ ۝١٠٧٢ ۝١٠٧٣ ۝١٠٧٤ ۝١٠٧٥ ۝١٠٧٦ ۝١٠٧٧ ۝١٠٧٨ ۝١٠٧٩ ۝١٠٨٠ ۝١٠٨١ ۝١٠٨٢ ۝١٠٨٣ ۝١٠٨٤ ۝١٠٨٥ ۝١٠٨٦ ۝١٠٨٧ ۝١٠٨٨ ۝١٠٨٩ ۝١٠٩٠ ۝١٠٩١ ۝١٠٩٢ ۝١٠٩٣ ۝١٠٩٤ ۝١٠٩٥ ۝١٠٩٦ ۝١٠٩٧ ۝١٠٩٨ ۝١٠٩٩ ۝١١٠٠ ۝١١٠١ ۝١١٠٢ ۝١١٠٣ ۝١١٠٤ ۝١١٠٥ ۝١١٠٦ ۝١١٠٧ ۝١١٠٨ ۝١١٠٩ ۝١١١٠ ۝١١١١ ۝١١١٢ ۝١١١٣ ۝١١١٤ ۝١١١٥ ۝١١١٦ ۝١١١٧ ۝١١١٨ ۝١١١٩ ۝١١٢٠ ۝١١٢١ ۝١١٢٢ ۝١١٢٣ ۝١١٢٤ ۝١١٢٥ ۝١١٢٦ ۝١١٢٧ ۝١١٢٨ ۝١١٢٩ ۝١١٣٠ ۝١١٣١ ۝١١٣٢ ۝١١٣٣ ۝١١٣٤ ۝١١٣٥ ۝١١٣٦ ۝١١٣٧ ۝١١٣٨ ۝١١٣٩ ۝١١٤٠ ۝١١٤١ ۝١١٤٢ ۝١١٤٣ ۝١١٤٤ ۝١١٤٥ ۝١١٤٦ ۝١١٤٧ ۝١١٤٨ ۝١١٤٩ ۝١١٥٠ ۝١١٥١ ۝١١٥٢ ۝١١٥٣ ۝١١٥٤ ۝١١٥٥ ۝١١٥٦ ۝١١٥٧ ۝١١٥٨ ۝١١٥٩ ۝١١٦٠ ۝١١٦١ ۝١١٦٢ ۝١١٦٣ ۝١١٦٤ ۝١١٦٥ ۝١١٦٦ ۝١١٦٧ ۝١١٦٨ ۝١١٦٩ ۝١١٧٠ ۝١١٧١ ۝١١٧٢ ۝١١٧٣ ۝١١٧٤ ۝١١٧٥ ۝١١٧٦ ۝١١٧٧ ۝١١٧٨ ۝١١٧٩ ۝١١٨٠ ۝١١٨١ ۝١١٨٢ ۝١١٨٣ ۝١١٨٤ ۝١١٨٥ ۝١١٨٦ ۝١١٨٧ ۝١١٨٨ ۝١١٨٩ ۝١١٩٠ ۝١١٩١ ۝١١٩٢ ۝١١٩٣ ۝١١٩٤ ۝١١٩٥ ۝١١٩٦ ۝١١٩٧ ۝١١٩٨ ۝١١٩٩ ۝١٢٠٠ ۝١٢٠١ ۝١٢٠٢ ۝١٢٠٣ ۝١٢٠٤ ۝١٢٠٥ ۝١٢٠٦ ۝١٢٠٧ ۝١٢٠٨ ۝١٢٠٩ ۝١٢١٠ ۝١٢١١ ۝١٢١٢ ۝١٢١٣ ۝١٢١٤ ۝١٢١٥ ۝١٢١٦ ۝١٢١٧ ۝١٢١٨ ۝١٢١٩ ۝١٢٢٠ ۝١٢٢١ ۝١٢٢٢ ۝١٢٢٣ ۝١٢٢٤ ۝١٢٢٥ ۝١٢٢٦ ۝١٢٢٧ ۝١٢٢٨ ۝١٢٢٩ ۝١٢٣٠ ۝١٢٣١ ۝١٢٣٢ ۝١٢٣٣ ۝١٢٣٤ ۝١٢٣٥ ۝١٢٣٦ ۝١٢٣٧ ۝١٢٣٨ ۝١٢٣٩ ۝١٢٤٠ ۝١٢٤١ ۝١٢٤٢ ۝١٢٤٣ ۝١٢٤٤ ۝١٢٤٥ ۝١٢٤٦ ۝١٢٤٧ ۝١٢٤٨ ۝١٢٤٩ ۝١٢٥٠ ۝١٢٥١ ۝١٢٥٢ ۝١٢٥٣ ۝١٢٥٤ ۝١٢٥٥ ۝١٢٥٦ ۝١٢٥٧ ۝١٢٥٨ ۝١٢٥٩ ۝١٢٦٠ ۝١٢٦١ ۝١٢٦٢ ۝١٢٦٣ ۝١٢٦٤ ۝١٢٦٥ ۝١٢٦٦ ۝١٢٦٧ ۝١٢٦٨ ۝١٢٦٩ ۝١٢٧٠ ۝١٢٧١ ۝١٢٧٢ ۝١٢٧٣ ۝١٢٧٤ ۝١٢٧٥ ۝١٢٧٦ ۝١٢٧٧ ۝١٢٧٨ ۝١٢٧٩ ۝١٢٨٠ ۝١٢٨١ ۝١٢٨٢ ۝١٢٨٣ ۝١٢٨٤ ۝١٢٨٥ ۝١٢٨٦ ۝١٢٨٧ ۝١٢٨٨ ۝١٢٨٩ ۝١٢٩٠ ۝١٢٩١ ۝١٢٩٢ ۝١٢٩٣ ۝١٢٩٤ ۝١٢٩٥ ۝١٢٩٦ ۝١٢٩٧ ۝١٢٩٨ ۝١٢٩٩ ۝١٣٠٠ ۝١٣٠١ ۝١٣٠٢ ۝١٣٠٣ ۝١٣٠٤ ۝١٣٠٥ ۝١٣٠٦ ۝١٣٠٧ ۝١٣٠٨ ۝١٣٠٩ ۝١٣١٠ ۝١٣١١ ۝١٣١٢ ۝١٣١٣ ۝١٣١٤ ۝١٣١٥ ۝١٣١٦ ۝١٣١٧ ۝١٣١٨ ۝١٣١٩ ۝١٣٢٠ ۝١٣٢١ ۝١٣٢٢

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ
بِمَا أَرَادَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ۝١٠٦ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٠٧ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ
كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝١٠٨ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ
يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝١٠٩ هَتَأْتُمْ هَتُؤَلَاءِ
جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ
يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝١١٠﴾ .

في الصحيحين عن أم سلمة: «أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب
حجرته، فخرج إليهم فقال: ألا إنما أنا بشر، وإنما أقضي بنحو مما أسمع، ولعل
أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما
هي قطعة من النار، فليحملها أو يذرها»^(١).

وعن قتادة بن النعمان قال: «كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق: بشر
وبشير ومبشر، وكان بشير رجلاً منافقاً، وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب
رسول الله ﷺ، ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان: كذا، وقال فلان:
كذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر
إلا الخبيث، فقال:

أوكلما قال الرجال قصيدة أصموا وقالوا: ابن الأبيرق قالها؟!!

(١) سبق تخريجه.

قال: وكانوا أهل بيت فاقة وحاجة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت قافلة من الشام بالدرمك^(١)، ابتاع الرجل منهم فخص به نفسه، فأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير. فقدمت قافلة من الشام، وابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من الدرملك، فجعله في مشربة له، وفي المشربة سلاح له درعان وسيفاهما وما يصلحهما، فعدا عديّ من تحت الليل فنقب المشربة وأخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي تعلم أنه قد عديّ علينا في ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا، فذهب بسلاحنا وطعامنا. قال: فتجسسنا في الدار وسألنا، فقليل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نراه إلّا على بعض طعامكم.

قال: وقد كان بنو أبيرق قالوا: ونحن نسأل في الدار: والله ما نرى صاحبكم إلّا لبيد بن سهل، رجل منا له صلاح وإسلام، فلما سمع بذلك لبيد اخترط سيفه ثم أتى بني أبيرق فقال: والله ليخالطنكم هذا السيف ولتبيين هذه السرقة، قالوا: إليك عنا أيها الرجل، فوالله ما أنت بصاحبها. فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال عمي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له.

قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقلت: يا رسول الله إن أهل بيت منا أهل جفاء، عمدوا إلى عمي رفاعة فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا به. فقال رسول الله ﷺ: سأنظر في ذلك. فلما سمع بذلك بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له أسير بن عروة، فكلّموه في ذلك، واجتمع إليه ناس من أهل الدار، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا

(١) الدرملك: الدقيق الأبيض الخالص النقي.

رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا، أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت.

قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته فقال: عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت؟! قال: فرجعت ولوددت أنني خرجت من بعض مالي، ولم أكلّم رسول الله ﷺ في ذلك. فأتيت عمي رفاعه فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، قال: الله المستعان. فلم يلبث أن نزل القرآن: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ يعني بني أبيرق ﴿واستغفر الله﴾، أي: مما قلت لقتادة: ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ أي بني أبيرق ﴿إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً يستخفون من الناس﴾ إلى قوله: ﴿ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾، أي: أنهم إن يستغفروا الله يغفر لهم. ﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً﴾ ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً ﴿قولهم للبيد. ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك﴾ يعني أسيراً وأصحابه. ﴿وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ إلى قوله: ﴿فسوف يؤتيه أجراً عظيماً﴾ فلما نزل القرآن، أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فردّه إلى رفاعه.

قال قتادة: فلما أتيت عمي بالسلاح، وكان شيخاً قد عسا^(١) في الجاهلية، وكنت أرى إسلامه مدخولاً، فلما أتيت به بالسلاح قال: يا ابن أخي هو في سبيل الله. قال: فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً. فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين، فنزل

(١) عسا: أي كبر ووهن.

على سلافة^(١) بنت سعد بن سمية^(٢)، فأُنزل الله فيه: ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾. فلما نزل على سلافة رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر، فأخذت رحله فوضعت على رأسها، ثم خرجت فرمته بالأبطح، ثم قالت: «أهديت إليّ شعر حسان، كنت تأتيني بخير»^(٣). رواه ابن جرير وغيره.

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا^(١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا^(١١٢).

عن ابن عباس قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قال: أخبر الله عباده بحلمه، وعفوه، وكرمه، وسعة رحمته، ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيمًا، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، كقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(٤).

(١) في (الأصل) وتفسير ابن جرير، «والدر المثلث»، وتفسير ابن كثير: «سلافة»، والمثبت من سنن الترمذي.

(٢) في تفسير ابن جرير: (بن سهل)، وفي «الدر المثلث»: «الشهيد»، وفي (الأصل) «بن شهيد». والمثبت من سنن الترمذي، وتفسير ابن كثير.

(٣) أخرجه الترمذي (ح/٣٠٣٦)، وابن جرير (٥/٢٦٥)، وفي سنده ضعف.

(٤) سورة المائدة: الآية ٤٨.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيثًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ وهذا عام في بني أبيرق وفي غيرهم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إصلاح ذات البين، قال: وفساد ذات البين هي الحالقة»^(١). رواه أحمد وغيره.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ قال: من آلهة الباطل.

قال البغوي^(٢): ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾، أي: يخالفه ﴿مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ من التوحيد والحدود ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: غير طريق المؤمنين ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾، أي: نكله في الآخرة إلى ما تولى في الدنيا ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

(١) أخرجه أحمد (٤٤٤/٦)، وأبو داود (٤٩١٩/ح)، والترمذي (ح/٢٥١١)، وقال:

«صحيح»، وهو كما قال رحمه الله.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٨٣).

قال ابن كثير^(١): أي إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك، بأن نحسنها في صدره ونزينها له استدراجاً له، كما قال تعالى: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾^(٣). انتهى والله أعلم.



(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٥٥).

(٢) سورة القلم: الآية ٤٤.

(٣) سورة الصف: الآية ٥.

الدرس السادس والستون

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝١١٦﴾ إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ۝١١٧ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَدَّنَ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝١١٨ وَلَا ضَلَّ عَنْهُمْ وَلَا مَتَّيْنَتْهُمْ وَلَا مَرَّئَتْهُمْ فَلْيَبْتَئَكُنَّ ءَاذَانَ الْإِنْعَمِ وَلَا مَرَّئَتْهُمْ فَلْيَغَيِّرْ بَخْلَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ۝١١٩ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢٠ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ۝١٢١ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٢٣ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝١٢٤ وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ۝١٢٦﴾ .

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١١٦) ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ (١١٧) ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَذِّنْ مِنْ عِبَادِكِ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (١١٨) ﴿وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ وَلَا مُمْيِنَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ مَا ذَاكَ الْأَنْعَمِ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْيِرْكُ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ (١١٩) ﴿يَعْدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢٠) ﴿أُولَئِكَ مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا مُحْيِصًا﴾ (١٢١).

قال علي رضي الله عنه: ما في القرآن آية أحب لي من هذه الآية يعني ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نفس تموت لا تشرك بالله شيئاً، إلّا حلت لها المغفرة، إن شاء الله عذبها، وإن شاء غفر لها» ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١). رواه ابن أبي حاتم وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا﴾. قال ابن زيد: آلهتهم اللات والعزى ويساف ونائلة هم إنثا يدعونهم من دون الله، وقرأ: ﴿وإن يدعون إلّا شيطاناً مریداً﴾. وقال قتادة: ﴿إن يدعون من دونه إلّا إنثا﴾، أي: إلّا ميتاً لا روح فيه. وعن مجاهد في قوله: ﴿إِنثًا﴾. قال: أوثناناً.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/١٤٥/أ)، بسند ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً﴾ قال قتادة: تمرد على معاصي

الله .

وقوله تعالى: ﴿لعنه الله﴾، أي: أخزاه وأقصاه وأبعده .

وقوله تعالى: ﴿وقال لاتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولاضلنهم ولامنينهم ولامرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولامرنهم فليغيرن خلق الله﴾، عن الضحاك: نصيباً . قال: معلوماً . وعن قتادة في قوله: ﴿ولامرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ قال: البتك في البحيرة والسائبة، كانوا يبتكون آذانها لطواغيتهم . وقال عكرمة: دين شرعه لهم إبليس . وعن مجاهد في قوله: ﴿ولامرنهم فليغيرن خلق الله﴾ . قال: الفطرة دين الله . وقال ابن مسعود: «لعن الله الواشمات والمتوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله»^(١) . وقال عكرمة: ﴿فليغيرن خلق الله﴾ بالخصاء والوشح وقطع الآذان .

قال القرطبي^(٢): الخصاء في غير بني آدم ممنوع في الحيوان، إلا لمنفعة خاصة في ذلك، كتطيب اللحم، أو قطع ضرر عنه . قال الحافظ ابن حجر: والنهي عن الخصاء نهى تحريم في بني آدم بلا خلاف .

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(٣) .

يقول تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، أي: صدقت قلوبهم، وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات ﴿سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، ويصرفونها حيث شاءوا ﴿خالدين

(١) سبق تخريجه .

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٩٠) .

فيها أبداً، أي: بلا زوال ولا انتقال. ﴿وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً﴾، أي: لا أحد أصدق منه قولاً، فوعده واقع^(١) لا محالة.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَبِذًا﴾^(١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾^(١٢٦).

قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم. وقال المسلمون: نحن أولى بالله، نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله. فأنزل الله ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به﴾، إلى قوله: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾، ثم أفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان. وعن مجاهد في قوله: ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب﴾. قال: قریش وكعب بن الأشرف: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾.

قال ابن كثير^(٢): (والمعنى في هذه الآية أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وفر في القلوب، وصدقته الأعمال، وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال أنه على الحق سمع قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان، ولهذا قال تعالى: ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من

(١) في (الأصل): «وقع»، ولعل ما أثبتته أولى.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٥٧).

يعمل سوءاً يجز به، أي: ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله سبحانه واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام). انتهى. وعن الربيع بن زياد أنه قال لأبي بن كعب: قول الله تبارك وتعالى: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾، والله إن كان كل ما عملنا جزينا به هلكنا! قال: والله إن كنت لأراك أفقه مما أرى، لا يصيب رجلاً خدش ولا عثرة إلاّ بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر حتى اللدغة والنفخة.

وقوله تعالى: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾، قال الضحاك: فضل الله الإسلام على كل دين فقال: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾ إلى قوله: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾، وليس يقبل فيه عمل غير الإسلام وهي الحنيفية.

قال ابن كثير^(١): وقوله: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾، وهذا من باب الترغيب في اتباعه، لأنه إمام يقتدى به، حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخلّة التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلاّ لكثرة طاعته لربه، كما وصفه به في قوله: ﴿وابراهيم الذي وفى﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض﴾، أي: الجميع ملكه وخلقه وعبيده، وهو المتصرف في ذلك، ألا له الخلق والأمر. ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا يخفى عليه شيء، وهو على كل شيء قدير. والله أعلم.



(١) المصدر السابق (١/٥٥٩).

(٢) سورة النجم: الآية ٣٧.

الدرس السابع والستون

﴿ وَیَسْتَفْتُونَكَ فِی النِّسَاءِ قُلِ اللّٰهُ یُفْتِیْكُمْ فِیْهِنَّ وَمَا یُتْلٰی عَلَیْكُمْ فِی الْكِتَابِ فِی یَتَمٰی النِّسَاءِ الَّتِی لَا تُؤْتُوْنَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَرَّغُبُوْنَ اَنْ تَنْكِحُوْهُنَّ وَالْمُسْتَضْعِفِیْنَ مِنَ الْوُلَدِیْنَ وَاَنْ تَقُوْمُوْا لِلْیَتٰمٰی بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوْا مِنْ خَیْرٍ فَاِنَّ اللّٰهَ كَانَ بِهٖ عَلِیْمًا ۝۱۲۷ وَاِنْ اَمْرَاةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا اَوْ اِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَیْهَا اَنْ یُّصْلِحَ بَیْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَیْرٌ وَاُحْضِرَتِ الْاَنْفُسُ الشُّحَّ وَاِنْ تُحْسِنُوْا وَتَتَّقُوا فَاِنَّ اللّٰهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِیْرًا ۝۱۲۸ وَلَنْ تَسْتَطِیْعُوْا اَنْ تَعْدِلُوْا بَیْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِیْلُوْا كُلَّ الْمِیْلِ فَتَذَرُوْهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَاِنْ تُصْلِحُوْا وَتَتَّقُوا فَاِنَّ اللّٰهَ كَانَ غَفُوْرًا رَّحِیْمًا ۝۱۲۹ وَاِنْ یَنْفَرَا یُعَنِ اللّٰهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِیْهِ وَكَانَ اللّٰهُ وَسِعًا حَكِیْمًا ۝۱۳۰ وَلِلّٰهِ مَا فِی السَّمٰوٰتِ وَمَا فِی الْاَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّیْنَا الَّذِیْنَ اٰتَوْنَا الْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَاِیَّاكُمْ اَنْ اَتَّقُوا اللّٰهَ وَاِنْ تَكْفُرُوْا فَاِنَّ لِلّٰهِ مَا فِی السَّمٰوٰتِ وَمَا فِی الْاَرْضِ وَكَانَ اللّٰهُ غَنِیًّا حَمِیْدًا ۝۱۳۱ وَلِلّٰهِ مَا فِی السَّمٰوٰتِ وَمَا فِی الْاَرْضِ وَكَفٰی بِاللّٰهِ وَكِیْلًا ۝۱۳۲ اِنْ یَشَأْ یُذْهِبْكُمْ اٰیٰتِیْهَا النَّاسَ وَیَاْتِ بِخٰرِیْنَّ وَكَانَ اللّٰهُ عَلٰی ذٰلِكَ قَدِیْرًا ۝۱۳۳ مَنْ كَانَ یُرِیْدُ ثَوَابَ الدُّنْیَا فَعِنْدَ اللّٰهِ ثَوَابُ الدُّنْیَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللّٰهُ سَمِیْعًا بَصِیْرًا ۝۱۳۴ یٰۤاٰیُّهَا الَّذِیْنَ اٰمَنُوْا كُوْنُوْا قَوٰمِیْنَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلٰی اَنْفُسِكُمْ اَوْ الْوُلَدِیْنَ وَالْاَقْرَبِیْنَ اِنْ یَكُنْ غَنِیًّا اَوْ فَقِیْرًا فَاللّٰهُ اَوَّلٰی بِهَمَّآ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوٰی اَنْ تَعْدِلُوْا وَاِنْ تَلَوْا اَوْ تَعْرِضُوْا فَاِنَّ اللّٰهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِیْرًا ۝۱۳۵ ﴾

قوله عز وجل: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ۝١٢٧﴾ .

عن ابن عباس: ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ قال: كلن أهل الجاهلية لا يورثون المولود حتى يكبر، ولا يورثون المرأة، فلما كان الإسلام قال: ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ في أول سورة في الفرائض. ﴿اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾ وقالت عائشة: هذا في اليتيمة تكون عند الرجل، لعلها تكون شريكته في ماله وهو أولى بها من غيره، فيرغب عنها أن ينكحها ويعضلها لما لها، ولا ينكحها غيره، كراهية أن يشركه أحد في مالها.

وقوله تعالى: ﴿والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾ عن السدي قوله: ﴿والمستضعفين من الولدان﴾ كانوا لا يورثون جارية، ولا غلاماً صغيراً، فأمرهم الله أن يقوموا لليتامى بالقسط، والقسط: أن يعطى كل ذي حق منهم حقه ذكراً كان أو أُنثى، الصغير منهم بمنزلة الكبير.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا

أَنْ تَمْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا
كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٨﴾ وَإِنْ يَنْفَرَا
يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٢٩﴾ .

عن خالد بن عرعر أن رجلاً أتى علياً رضي الله عنه يستفتيه في امرأة، خافت
من بعلمها نشوزاً أو إعراضاً فقال: قد تكون المرأة عند الرجل، فتنبو عيناه عنها من
دمامتها^(١) أو كبرها، أو سوء خلقها وفقرها، فتركه فراقه، وإن وضعت له من
مهرها شيئاً حل له، وإن جعلت له من أيامها شيئاً فلا حرج.

وقال عمر رضي الله عنه: هذه المرأة تكون عند الرجل قد خلا من سنّها،
فيتزوج المرأة الشابة يلتمس ولدها، فما اصطلحها عليه من شيء فهو جائز.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: هي المرأة تكون عند الرجل فيريد أن
يفارقها، وتكره أن يفارقها، ويريد أن يتزوج فيقول: إني لا أستطيع أن أقسم لك
بمثل ما أقسم لها، فتصالحه أن يكون لها في الأيام، فيتراضيان على ذلك،
فيكونان على ما اصطلحا عليه. وقال عبيدة: يصالحها على ما رضيت دون حقها،
فله ذلك ما رضيت، فإذا أنكرت أو قالت: غرت، فلها أن يعدل عليها، أو يرضيها
أو يطلقها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْضَرْتُ الْأَنْفُسَ الشَّحَّ﴾ قال ابن عباس: نصيبها منه. قال
ابن جرير: والشح الإفراط في الحرص على الشيء.

قال ابن كثير^(٢): وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا﴾ وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهم، وتقسموا لهن أسوة

(١) في (الأصل): «دمامتها»، وهو خطأ.

(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٦٣).

أمثالهن^(١)، فإن الله عالم بذلك، وسيجزيكُم على ذلك أوفر الجزاء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ يعني في الحب والجماع. وعن قتادة قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول: اللهم أما قلبي فلا أملك، وأما سوى ذلك فأرجو أن أعدل. وعن الحسن: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾ قال: في الغشيان والقسم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ قال ابن عباس: هي أيم ولا ذات روح.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قال ابن كثير^(٢): أي وإذا أصلحتُم في أموركم، وقسمتم بالعدل فيما تملكون، واتقيتم الله في جميع الأحوال، غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يَغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعْتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ عن مجاهد في قول الله: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يَغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعْتِهِ﴾ قال: الطلاق ﴿يَغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعْتِهِ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾.

(١) في (الأصل): «مثالهن»، وهو خطأ.

(٢) المصدر السابق (١/٥٦٤).

عن علي: ﴿وكان الله غنياً حميداً﴾ قال: غنياً عن خلقه. ﴿حميداً﴾ قال: مستحماً إليهم. قال البغوي^(١): فإن قيل: فأى فائدة في تكرار قوله تعالى: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض﴾؟؟ قيل: لكل واحد منها وجه: أما الأول: فمعناه ﴿والله ما في السموات وما في الأرض﴾ وهو يوصيكم بالتقوى فاقبلوا وصيته.

وأما الثاني: فيقول: ﴿فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾، أي: هو الغني فاطلبوا منه ما تطلبون.

وأما الثالث: فيقول ﴿والله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله كيولاً﴾، أي: له الملك فاتخذوه كيولاً، ولا تتوكلوا على غيره.

وقوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾ قال قتادة: قادر والله ربنا على ذلك، أن يهلك من يشاء من خلقه ويأت بآخرين من بعدهم.

وقوله تعالى: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سمعياً بصيراً﴾.

قال البغوي^(٢): يريد: من كان يريد بعمله عرضاً من الدنيا، ولا يريد الله عز وجل، آتاه الله من عرض الدنيا، أو دفع عنه فيها ما أراد الله، وليس له الآخرة من ثواب، ومن أراد بعمله ثواب الآخرة، آتاه الله من الدنيا ما أحب، وجزاه الجنة في الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا

(١) انظر «معالم التنزيل» (١/٣٨٩).

(٢) المصدر السابق (١/٣٩٠).

تَتَّبِعُوا أَمْرِي أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ .

قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن يقولوا الحق، ولو على أنفسهم أو آبائهم أو أبنائهم، ولا تحابوا غنياً لغناه، ولا ترحموا مسكيناً لمسكنته، وذلك قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ فتذروا الحق فتجوروا ﴿وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا﴾ قال: هما الرجلان يجلسان بين يدي القاضي فيكون لِي القاضي وإعراضه لأحدهما على الآخر. وقال مجاهد: ﴿وَإِنْ تَلَوْا﴾، أي: تبدلوا الشهادة ﴿أَوْ تَعْرَضُوا﴾ قال: تكتموها. وقال ابن عباس: تلوي لسانك بغير الحق وهي اللجلجة، فلا تقيم الشهادة على وجهها، والإعراض: الترك.

قال ابن كثير^(١): والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ قال النبي ﷺ: «خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسئله»^(٢). ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ والله أعلم.

• • •

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٦٥).

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٧١٩)، من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

الدرس الثامن والستون

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَٰبِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَالْكِتَٰبِ الَّذِي أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللّٰهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُتَفِقِينَ بِأَنَّهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبِنُغُوثَ عَبْدُ اللَّهِ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَٰبِ أَن إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللّٰهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ءِإِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللّٰهَ جَامِعُ الْمُتَفِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنَ اللّٰهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّٰهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللّٰهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُتَفِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّٰهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَوةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللّٰهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَن يُجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا

وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ^{١٣٦} وَسَوْفَ يُؤْتِي اللهُ
الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٣٧﴾ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ^{١٣٧}
وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَتَّخِثُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَالِهَةً وَرَسُولَهُ وَالْكِتَابَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابَ الَّذِي أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِإِلَهِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١٣٦) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَدُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ .

قيل: «نزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾ في مؤمني أهل الكتاب، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتاب والرسول. فقال لهم النبي ﷺ: بل آمنوا بالله ورسوله محمد، والقرآن، وبكل كتاب كان قبله، فأنزل الله هذه الآية» (١). وقال الضحاك: أراد بهم اليهود والنصارى، يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بموسى وعيسى ﴿آمنوا﴾ بمحمد والقرآن. وقال مجاهد: أراد بهم المنافقين، يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ باللسان ﴿آمنوا﴾ بالقلب. وقال أبو العالية: هذا خطاب للمؤمنين يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾، أي: أقيموا وأثبتوا على الإيمان.

وقال ابن كثير (٢): يأمر تعالى عباده المؤمنين، بالدخول في جميع شرائع

(١) أخرجه الثعلبي كما عزاه له السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٤١٤).

(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (١/٥٦٦).

الإيمان، وشعبه، وأركانه، ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل، وتقريره، وتثبيتته، والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن في كل صلاة: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، أي: بصّرنا فيه، وزدنا هدى، وثبتنا عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴿﴾ قال قتادة: هم اليهود والنصارى، آمنت اليهود بالتوراة ثم كفرت، وآمنت النصارى بالإنجيل ثم كفرت، وكفرهم به تركهم إياه. ثم ﴿أزْدَادُوا كُفْرًا﴾ بالفرقان وبمحمد ﷺ. وقال ابن زيد: هؤلاء المنافقون، آمنوا مرتين وكفروا مرتين، ثم أزْدَادُوا كُفْرًا بعد ذلك. وعن علي رضي الله عنه قال: يستتاب المرتد ثلاثاً ثم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾. وقال إبراهيم، يستتاب كلما ارتد، وهو قول أكثر أهل العلم.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ﴾، أي: أقاموا على ذلك ﴿ولا ليهديهم سبيلاً﴾، أي: طريقاً إلى الحق.

وقوله تعالى: ﴿بَشَرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴿﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

قوله عز وجل: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَن إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ أَنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَفِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾^(٢) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ

(١) سورة المنافقون: الآية ٨.

فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ .

قوله: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستنهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾ يشير إلى قوله في سورة الأنعام^(١) ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾. وعن هشام بن عرفة قال: أخذ عمر بن عبد العزيز قوماً على شراب فضربهم^(٢) وفيهم صائم فقالوا: إن هذا صائم، ﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾.

وقوله تعالى: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾. قال ابن جريج: إن أصاب المسلمون من عدوهم غنيمة قال المنافقون: ألم نكن معكم؟ قد كنا معكم فأعطونا غنيمة مثل ما تأخذون، وإن كان للكافرين نصيب يصيبونه من المسلمين قال المنافقون للكافرين: أم نستحذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين؟ قد كنا نبطهم عنكم.

وقوله تعالى: ﴿فإن الله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ عن منيع الحضرمي قال: كنت عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال رجل: يا أمير المؤمنين أرايت قول الله عز وجل: ﴿ولن يجعل الله

(١) سورة الأنعام: الآية ٦٨.

(٢) في (الأصل): «ففر بهم»، وهو خطأ.

للكافرين على المؤمنين سيلاً ﴿١٤٢﴾ ، وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون؟ قال له علي: أذنه أذنه. ثم قال: ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سيلاً﴾ يوم القيامة، قال السدي: حجة.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٤٣﴾ مُدْبَذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٤﴾ .

عن السدي: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾ قال: يعطيهم يوم القيامة نوراً يمشون به مع المسلمين كما كانوا معهم في الدنيا، ثم يسلبهم ذلك النور فيطفيه، فيقومون في ظلمتهم، ويضرب بينهم السور.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى﴾. قال قتادة: وإنه والله لولا الناس ما صلى المنافق، ولا يصلي إلا رياء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قال الحسن: إنما قل لأنه كان لغير الله. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم انطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار»^(١).

وفي رواية: «والذي نفسي بيده، لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقاً سميناً، أو مرامتين جنتين لشهد العشاء، ولولا ما في البيوت من النساء والذرية، لحرقت عليهم بيوتهم بالنار»^(٢). وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «تلك صلاة

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٥٧)، ومسلم (١/٤٥١).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٦٤٤) من حديث أبي هريرة أيضاً مسلم (ح/٦٥١).

المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً^(١).
رواه مسلم وغيره.

وقوله تعالى: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾. قال قتادة في قوله: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يقول: ليسوا بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين بالشرك. وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائزة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، لا تدري أيهما تتبع»^(٢). رواه ابن جرير وغيره.

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ^(١١٩) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ^(١٢٠) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ^(١٢١) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ^(١٢٢).

عن قتادة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ وإن الله السلطان على خلقه، ولكنه يقول عذراً مبيناً. وقال عكرمة: ما كان في القرآن من سلطان فهو حجة. وعن ابن مسعود: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال: في توابيت من حديد مبهمة عليهم. وقال حذيفة: ليدخلن الجنة قوم كانوا منافقين، ثم قرأ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ

(١) أخرجه مسلم (ج/٦٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (ج/٢٧٨٤).

تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فألثك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً.

وقوله تعالى: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ أي: أنه لا يعذب المؤمن الشاكر. ﴿وكان الله شاكراً عليماً﴾، أي: من أطاعه صادقاً أثابه أوفر الجزاء. والله أعلم.

انتهى الجزء الأول بحمد الله،
ويليه الجزء الثاني

فَهْرَسْتُ الْمَوْضُوعَاتِ الجزء الأول

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
— مقدمة المحقق	٥	— وصيته	٣٤
— ترجمة المؤلف	١٣	— عقبه	٣٦
— اسمه ونسبه	١٤	— تنبيهات وتعقبات	٣٧
— مولده	١٤	— النسخ المعتمدة	٤٢
— نشأته	١٤	— عنوان الكتاب	٤٣
— طلبه للعلم	١٤	— نسبه إلى المؤلف	٤٣
— شيوخه	١٥	— سبب تأليفه	٤٣
— رحلته في طلب العلم	١٦	— منهج المؤلف فيه	٤٣
— إجازة العلماء له	١٧	— منهجي في تحقيق الكتاب	٤٥
— صفاته الخلقية والخلقية	١٨	— نموذج مصور للنسخة الخطية ..	٤٧
— زهده وورعه	١٨	— مقدمة المؤلف	٥١
— أعماله ومناصبه	١٩	— معاني القرآن لا تخرج عن خمسة	
— الجوف والمثوى الأخير	٢١	— علوم	٥٢
— حياته اليومية في الجوف	٢١	— معرفة الناسخ والمنسوخ	٥٢
— جهوده في الدعوة إلى الله	٢٢	— الآيات المتفق على نسخها	٥٢
— تلاميذه	٢٣	— معرفة أسباب النزول	٥٤
— مؤلفاته	٢٤	— سبب النزول على قسمين	٥٥
— مراسلاته	٣٠	— أحسن طرق التفسير	٥٥
— وفاته	٣٣	— الرجوع إلى أقوال التابعين	٥٦

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
— أوجه التفسير التي ذكرها ابن عباس	٥٧	الآية: ٢٥	١١١
— فصل في فضائل القرآن	٦٠	الآيتان: ٢٦ و ٢٧	١١٣
— من القرآن	٦٠	الآيتان: ٢٨ و ٢٩	١١٥
— من السنّة	٦٤	الدرس الرابع	١١٧
— فصل في الأحرف السبعة	٧٧	الآية: ٣٠	١١٨
الدرس الأول	٨١	الآيات: ٣١ — ٣٣	١١٩
﴿سورة الفاتحة﴾	٨١	الآيتان: ٣٤ و ٣٥	١٢٠
تفسير البسملة	٨٣	الآية: ٣٦	١٢١
الآية: ٢	٨٤	الآية: ٣٧	١٢٣
الآية: ٣	٨٥	الآيتان: ٣٨ و ٣٩	١٢٤
الآية: ٤	٨٦	الدرس الخامس	١٢٥
الآيتان: ٥ و ٦	٨٧	الآيات: ٤٠ — ٤٣	١٢٦
الآية: ٧	٨٨	الآيات: ٤٤ — ٤٦	١٢٨
الدرس الثاني	٩٣	الدرس السادس	١٣١
﴿سورة البقرة﴾	٩٣	الآيتان: ٤٧ و ٤٨	١٣٢
فضلها	٩٣	الآية: ٤٩	١٣٣
الآيات: ١ — ٥	٩٧	الآية: ٥٠	١٣٤
الآيتان: ٦ و ٧	١٠٠	الآيات: ٥١ — ٥٣	١٣٥
الآيات: ٨ — ١٢	١٠١	الآيات: ٥٤ — ٥٦	١٣٦
الآيات: ١٣ — ١٦	١٠٣	الآية: ٥٧	١٣٧
الآيات: ١٧ — ٢٠	١٠٤	الدرس السابع	١٣٨
الدرس الثالث	١٠٨	الآيتان: ٥٨ و ٥٩	١٣٩
الآيتان: ٢١ و ٢٢	١٠٩	الآية: ٦٠	١٤٠
الآيتان: ٢٣ و ٢٤	١١٠	الآية: ٦١	١٤٢

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الآية: ٦٢	١٤٣	الآيات: ١٠٦ — ١٠٨	١٧٩
الآيتان: ٦٣ و ٦٤	١٤٤	الآيات: ١٠٩ — ١١٢	١٨١
الآيتان: ٦٥ و ٦٦	١٤٥	الآية: ١١٣	١٨٢
الدرس الثامن	١٤٧	الدرس الثالث عشر	١٨٤
الآية: ٦٧	١٤٨	الآية: ١١٤	١٨٥
الآيات: ٦٨ — ٧١	١٤٩	الآية: ١١٥	١٨٦
الآيات: ٧٢ — ٧٤	١٥٠	الآيتان: ١١٦ و ١١٧	١٨٧
الدرس التاسع	١٥٢	الآية: ١١٨	١٨٨
الآية: ٧٥	١٥٤	الآيتان: ١١٩ و ١٢٠	١٨٩
الآيات: ٧٦ — ٧٩	١٥٥	الآية: ١٢١	١٩٠
الآيات: ٨٠ — ٨٢	١٥٦	الآيتان: ١٢٢ و ١٢٣	١٩١
الآية: ٨٣	١٥٨	الدرس الرابع عشر	١٩٢
الآيات: ٨٤ — ٨٦	١٥٩	الآيتان: ١٢٤ و ١٢٥	١٩٣
الدرس العاشر	١٦١	الآية: ١٢٦	١٩٥
الآية: ٨٧	١٦٣	الآيات: ١٢٧ — ١٢٩	١٩٦
الآيتان: ٨٨ و ٨٩	١٦٤	الدرس الخامس عشر	٢٠١
الآيتان: ٩٠ و ٩١	١٦٥	الآيات: ١٣٠ — ١٣٢	٢٠٣
الآيتان: ٩٢ و ٩٣	١٦٦	الآية: ١٣٣	٢٠٤
الآيات: ٩٤ — ٩٦	١٦٧	الآيتان: ١٣٤ و ١٣٥	٢٠٥
الدرس الحادي عشر	١٦٩	الآية: ١٣٦	٢٠٦
الآيات: ٩٧ — ١٠١	١٧٠	الآيات: ١٣٧ — ١٣٨	٢٠٧
الآيتان: ١٠٢ و ١٠٣	١٧٣	الآيات: ١٣٩ — ١٤١	٢٠٨
الدرس الثاني عشر	١٧٧	الدرس السادس عشر	٢١٠
الآيتان: ١٠٤ و ١٠٥	١٧٨	الآية: ١٤٢	٢١٢

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الآية: ١٤٣	٢١٣	الآية: ١٨٥	٢٤٩
الآية: ١٤٤	٢١٥	الآية: ١٨٦	٢٥١
الآية: ١٤٥	٢١٦	الآية: ١٨٧	٢٥٢
الآيات: ١٤٦ - ١٤٨	٢١٧	الآية: ١٨٨	٢٥٤
الآيتان: ١٤٩ و ١٥٠	٢١٨	الدرس الحادي والعشرون	٢٥٦
الآيات: ١٥١ - ١٥٤	٢١٩	الآيتان: ١٨٩ و ١٩٠	٢٥٧
الآيات: ١٥٥ - ١٥٧	٢٢٠	الآيتان: ١٩١ و ١٩٢	٢٥٨
الدرس السابع عشر	٢٢٣	الآيتان: ١٩٣ و ١٩٤	٢٦٠
الآية: ١٥٨	٢٢٤	الآية: ١٩٥	٢٦١
الآيتان: ١٥٩ و ١٦٠	٢٢٥	الدرس الثاني والعشرون	٢٦٣
الآيات: ١٦١ - ١٦٤	٢٢٦	الآية: ١٩٦	٢٦٦ و ٢٦٥
الآيات: ١٦٥ - ١٦٧	٢٢٧	الآية: ١٩٧	٢٦٧
الدرس الثامن عشر	٢٣٠	الآيتان: ١٩٨ و ١٩٩	٢٧٠
الآيتان: ١٦٨ و ١٦٩	٢٣١	الآيات: ٢٠٠ - ٢٠٣	٢٧٢
الآيتان: ١٧٠ و ١٧١	٢٣٢	الدرس الثالث والعشرون	٢٧٥
الآيتان: ١٧٢ و ١٧٣	٢٣٣	الآيات: ٢٠٤ - ٢٠٦	٢٧٧
الآيات: ١٧٤ - ١٧٦	٢٣٥	الآية: ٢٠٧	٢٧٨
الدرس التاسع عشر	٢٣٧	الآيتان: ٢٠٨ و ٢٠٩	٢٧٩
الآية: ١٧٧	٢٣٨	الآية: ٢١٠	٢٨٠
الآيتان: ١٧٨ و ١٧٩	٢٣٩	الآيتان: ٢١١ و ٢١٢	٢٨٢
الآية: ١٨٠	٢٤٢	الآية: ٢١٣	٢٨٣
الآيتان: ١٨١ و ١٨٢	٢٤٤	الآية: ٢١٤	٢٨٤
الدرس العشرون	٢٤٦	الدرس الرابع والعشرون	٢٨٥
الآيتان: ١٨٣ و ١٨٤	٢٤٧	الآيتان: ٢١٥ و ٢١٦	٢٨٦

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الآيتان: ٢١٧ و ٢١٨	٢٨٧	الآية: ٢٤٧	٣٢١
الآيتان: ٢١٩ و ٢٢٠ .. ٢٨٩ و ٢٩٠	٢٩٠	الآيتان: ٢٤٨ و ٢٤٩	٣٢٢
الدرس الخامس والعشرون	٢٩٢	الآيات: ٢٥٠ — ٢٥٢	٣٢٣
الآية: ٢٢١	٢٩٣	الدرس التاسع والعشرون	٣٢٦
الآية: ٢٢٢	٢٩٤	الآية: ٢٥٣	٣٢٧
الآية: ٢٢٣	٢٩٥	الآيتان: ٢٥٤ و ٢٥٥	٣٢٨
الآيتان: ٢٢٤ و ٢٢٥	٢٩٦	الآية: ٢٥٦	٣٣١
الآيتان: ٢٢٦ و ٢٢٧	٢٩٧	الآية: ٢٥٧	٣٣٢
الدرس السادس والعشرون	٢٩٩	الدرس الثلاثون	٣٣٣
الآية: ٢٢٨	٣٠١	الآية: ٢٥٨	٣٣٤
الآية: ٢٢٩	٣٠٢	الآية: ٢٥٩	٣٣٥
الآيتان: ٢٣٠ و ٢٣١	٣٠٤	الآية: ٢٦٠	٣٣٧
الآيتان: ٢٣٢ و ٢٣٣	٣٠٦	الدرس الحادي والثلاثون	٣٤٠
الدرس السابع والعشرون	٣٠٩	الآيات: ٢٦١ — ٢٦٣	٣٤١
الآية: ٢٣٤	٣١٠	الآية: ٢٦٤	٣٤٢
الآيتان: ٢٣٥ و ٢٣٦	٣١١	الآية: ٢٦٥	٣٤٣
الآية: ٢٣٧	٣١٢	الآية: ٢٦٦	٣٤٤
الآيتان: ٢٣٨ و ٢٣٩	٣١٣	الدرس الثاني والثلاثون	٣٤٦
الآية: ٢٤٠	٣١٤	الآية: ٢٦٧	٣٤٧
الآيتان: ٢٤١ و ٢٤٢	٣١٥	الآيتان: ٢٦٨ و ٢٦٩	٣٤٨
الدرس الثامن والعشرون	٣١٦	الآيتان: ٢٧٠ و ٢٧١	٣٤٩
الآية: ٢٤٣	٣١٨	الآيتان: ٢٧٢ و ٢٧٣	٣٥٠
الآيتان: ٢٤٤ و ٢٤٥	٣١٩	الآية: ٢٧٤	٣٥١
الآية: ٢٤٦	٣٢٠	الدرس الثالث والثلاثون	٣٥٢

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الآية: ٢٧٥	٣٥٣	الدرس التاسع والثلاثون	٣٩٢
الآية: ٢٧٦	٣٥٤	الآيات: ٣٣ و ٣٤	٣٩٣
الآيات: ٢٧٧ - ٢٧٩	٣٥٥	الآيات: ٣٥ و ٣٦	٣٩٣
الآية: ٢٨٠	٣٥٦	الآية: ٣٧	٣٩٥
الآية: ٢٨١	٣٥٧	الآيات: ٣٨ و ٣٩	٣٩٦
الدرس الرابع والثلاثون	٣٥٨	الآيات: ٤٠ و ٤١	٣٩٧
الآية: ٢٨٢	٣٥٩ و ٣٦١	الدرس الأربعون	٣٩٩
الآية: ٢٨٣	٣٦٢	الآيات: ٤٢ و ٤٣	٤٠٠
الدرس الخامس والثلاثون	٣٦٤	الآيات: ٤٤ - ٤٦	٤٠١
الآية: ٢٨٤	٣٦٥	الآيات: ٤٧ - ٥١	٤٠٣ و ٤٠٢
الآيات: ٢٨٥ و ٢٨٦	٣٦٧	الدرس الحادي والأربعون	٤٠٥
الدرس السادس والثلاثون	٣٧٠	الآيات: ٥٢ - ٥٥	٤٠٧
﴿سورة آل عمران﴾	٣٧٠	الآيات: ٥٦ - ٥٨	٤٠٨
الآيات: ١ - ٦	٣٧٢	الآيات: ٥٩ - ٦٣	٤٠٩
الآيات: ٧ - ٩	٣٧٤	الآية: ٦٤	٤١٠
الدرس السابع والثلاثون	٣٧٨	الآيات: ٦٥ - ٦٧	٤١١
الآيات: ١٠ - ١٣	٣٧٩	الآية: ٦٨	٤١٢
الآيات: ١٤ - ١٧	٣٨١	الدرس الثاني والأربعون	٤١٣
الدرس الثامن والثلاثون	٣٨٣	الآيات: ٦٩ - ٧١	٤١٥
الآيات: ١٨ - ٢٠	٣٨٥	الآيات: ٧٢ - ٧٤	٤١٦
الآيات: ٢١ - ٢٥	٣٨٧	الآيات: ٧٥ و ٧٦	٤١٧
الآيات: ٢٦ و ٢٧	٣٨٨	الآية: ٧٧	٤١٨
الآية: ٢٨	٣٨٩	الآيات: ٧٨ - ٨٠	٤١٩
الآيات: ٢٩ - ٣١	٣٩٠	الدرس الثالث والأربعون	٤٢١
الآية: ٣٢	٣٩١		

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الآيات: ٨١ و ٨٢	٤٢٢	الدرس الثامن والأربعون	٤٦٠
الآيات: ٨٣ - ٨٥	٤٢٣	الآيات: ١٤٩ - ١٥١	٤٦٢
الآيات: ٨٦ - ٨٩	٤٢٥	الآيات: ١٥٢ و ١٥٣	٤٦٣
الآيات: ٩٠ - ٩١	٤٢٦	الآيات: ١٥٤ و ١٥٥	٤٦٦
الدرس الرابع والأربعون	٤٢٧	الدرس التاسع والأربعون	٤٦٨
الآيات: ٩٢ - ٩٥	٤٢٩	الآيات: ١٥٦ - ١٥٨	٤٧٠
الآيات: ٩٦ و ٩٧	٤٣٠	الآيات: ١٥٩ و ١٦٠	٤٧١
الآيات: ٩٨ و ٩٩	٤٣٢	الآيات: ١٦١ - ١٦٤	٤٧٢
الآيات: ١٠٠ و ١٠١	٤٣٣	الآيات: ١٦٥ - ١٦٨	٤٧٤
الآيات: ١٠٢ و ١٠٣	٤٣٤	الآيات: ١٦٩ - ١٧٥	٤٧٦
الآيات: ١٠٤ - ١٠٩	٤٣٦	الدرس الخمسون	٤٧٩
الدرس الخامس والأربعون	٤٣٨	الآيات: ١٧٦ - ١٧٨	٤٨١
الآيات: ١١٠ - ١١٢	٤٤٠	الآيات: ١٧٩ - ١٨٠	٤٨٢
الآيات: ١١٣ - ١١٥	٤٤١	الآيات: ١٨١ - ١٨٦	٤٨٣
الآيات: ١١٦ و ١١٧	٤٤٢	الآيات: ١٨٧ - ١٨٩	٤٨٥
الآيات: ١١٨ - ١٢٠	٤٤٣	الدرس الحادي والخمسون	٤٨٧
الدرس السادس والأربعون	٤٤٥	الآيات: ١٩٠ - ١٩٤	٤٨٨
الآيات: ١٢١ و ١٢٢	٤٤٧	الآية: ١٩٥	٤٨٩
الآيات: ١٢٣ - ١٢٧	٤٤٨	الآيات: ١٩٦ - ١٩٨	٤٩٠
الآيات: ١٢٨ - ١٣٢	٤٥٠	الآيات: ١٩٩ و ٢٠٠	٤٩١
الآيات: ١٣٣ - ١٣٦	٤٥١	الدرس الثاني والخمسون	٤٩٣
الدرس السابع والأربعون	٤٥٤	﴿سورة النساء﴾	٤٩٣
الآيات: ١٣٧ - ١٤٣	٤٥٥	الآيات: ١ - ٤	٤٩٥
الآيات: ١٤٤ - ١٤٨	٤٥٧	الآيات: ٥ و ٦	٤٩٧
		الآيات: ٧ - ١٠	٤٩٨

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الدرس الثالث والخمسون	٥٠١	الآيات: ٤٧ - ٥٠	٥٤٥
الآية: ١١	٥٠٢ و ٥٠٣	الآيات: ٥١ - ٥٥	٥٤٦
الآية: ١٢	٥٠٤	الآيتان: ٥٦ و ٥٧	٥٤٨
الآيتان: ١٣ و ١٤	٥٠٥	الدرس التاسع والخمسون	٥٤٩
الدرس الرابع والخمسون	٥٠٧	الآيتان: ٥٨ و ٥٩	٥٥١
الآيتان: ١٥ و ١٦	٥٠٨	الآيات: ٦٠ - ٦٥	٥٥٣
الآيتان: ١٧ و ١٨	٥٠٩	الآيات: ٦٦ - ٧٠	٥٥٥
الآيات: ١٩ - ٢١	٥١٠	الدرس الستون	٥٥٧
الدرس الخامس والخمسون	٥١٢	الآيات: ٧١ - ٧٤	٥٥٨
الآية: ٢٢	٥١٤	الآيتان: ٧٥ و ٧٦	٥٦٠
الآيتان: ٢٣ و ٢٤	٥١٥	الآيات: ٧٧ - ٧٩	٥٦١
الآية: ٢٥	٥١٩	الدرس الحادي والستون	٥٦٤
الآيات: ٢٦ - ٢٨	٥٢٠	الآيتان: ٨٠ و ٨١	٥٦٥
الدرس السادس والخمسون	٥٢٢	الآيات: ٨٢ - ٨٤	٥٦٦
الآيات: ٢٩ - ٣١	٥٢٣	الآيات: ٨٥ - ٨٧	٥٦٧
الآيتان: ٣٢ و ٣٣	٥٢٥	الدرس الثاني والستون	٥٧٠
الآيتان: ٣٤ و ٣٥	٥٢٧	الآيات: ٨٨ - ٩٠	٥٧١
الدرس السابع والخمسون	٥٣٢	الآية: ٩١	٥٧٢
الآيتان: ٣٦ و ٣٧	٥٣٣	الآيتان: ٩٢ و ٩٣	٥٧٣
الآيتان: ٣٨ و ٣٩	٥٣٦	الدرس الثالث والخمسون	٥٧٧
الآيات: ٤٠ - ٤٢	٥٣٧	الآيات: ٩٤ - ٩٦	٥٧٨
الدرس الثامن والخمسون	٥٤٠	الآيات: ٩٧ - ١٠٠	٥٧٩
الآية: ٤٣	٥٤٢	الدرس الرابع والستون	٥٨٢
الآيات: ٤٤ - ٤٦	٥٤٤		

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الآية: ١٠١	٥٨٣	الدرس السابع والستون	٥٩٩
الآيتان: ١٠٢ و ١٠٣	٥٨٤	الآية: ١٢٧	٦٠٠
الآية: ١٠٤	٥٨٥	الآيات: ١٢٨ - ١٣٠	٦٠١
الدرس الخامس والستون	٥٨٧	الآيات: ١٣١ - ١٣٤	٦٠٢
الآيات: ١٠٥ - ١٠٩	٥٨٨	الآية: ١٣٥	٦٠٤
الآيات: ١١٠ - ١١٢	٥٩١	الدرس الثامن والستون	٦٠٥
الآيات: ١١٣ - ١١٥	٥٩٢	الآيات: ١٣٦ - ١٣٩	٦٠٧
الدرس السادس والستون	٥٩٤	الآيتان: ١٤٠ و ١٤١	٦٠٩
الآيات: ١١٦ - ١٢١	٥٩٥	الآيتان: ١٤٢ و ١٤٣	٦١٠
الآية: ١٢٢	٥٩٦	الآيات: ١٤٤ - ١٤٧	٦١١
الآيات: ١٢٣ - ١٢٦	٥٩٧		



